جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية في إلهامهم

تأليف :

الأستاذ حسن كامل الملطاوي

الجزء الأول



القاهرة
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية في إلهامهم

تأليف :

الأستاذ حسن كامل الملطاوي

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى من علينا بالايمان ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد امام الأولين والآخرين ، علمه ربه فأتقن تعليمه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وطهر بنفحاته القدسية قلبه ، وزكى بأنواره الربانية روحه ، وأنزل عليه القرآن الكريم ، وأمره أن يبلغه للناس ، ويبين معانيه ، فصدع بالأمر غير عابىء بما لقى من الحروب والكروب والشدائد ، مجاهدا فى الله حق جهاده ، حتى علت فى الارض كلمة الله ، ثابتة الدعائم ، قوية الأركان .

ثم قيض له سبحانه من يحفظها من بعده ، فرزقه من عطائه أكرم ذرية ، وطهرهم من الرجس تطهيرا ، كما رزقه خير أصحاب ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وجعل من هؤلاء وأولئك أعظم أئمة ، فى هذه الأمة ، ليقتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، وجعل تعالى من هؤلاء المقتدين أئمة فى كل جيل ، روادا للحق ، ورائدين للسالكين ، حتى يبقى نور الايمان وضاء فى القلوب ، ليتم ما أراده الله من أن تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، كما نطقت آيات الله البينات .

وأئمة الهدى هؤلاء ، أهل سعادة أبدية فى سوابق الأزل ، أحبهم الله فأحبوه ، وآثرهم وآثروه ، ونصروه فنصرهم ، فهموا عنه ، وجاهدوا فيه وأقبلوا اليه بكلياتهم وجزئياتهم ، فى سرهم وجهرهم ، فأنسوا به ، واستوحشوا مما سواه ، وافتقروا لاحسانه اختيارا ، فملأهم أسرارا .

وقد اصطلح فى القرن الثانى الهجرى على أن يلقب هؤلاء الخواص بلقب « الصوفية » وهم كما وصفهم الله فى قوله الكريم (واصبر نفسك

مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هـواه وكان أمره فرطا) .

ويتكلم عنهم في شيء من التفصيل امام منهم ، من أئمة القرن الرابع الهجرى ، هو الامام أبو بكر الكلاباذى فيقول :

« سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقـوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأنارت اعلامهم .

فهموا عن الله وساروا الى الله ، وأعرضوا عما سـوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفي الأرض سماويون ، سكوت نظار ، غيب حضار ، ملوك تحت أطمار أنزاع قبائل وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، ونعوتهم خافية ، ونفوسهم صـافية ، صـفوية صوفية ، نورية صفية ، ودائع الله بين خليقته وصفوته في بريته ووصاياه لنبيه ، وخفـاياه عند صفيه ، هم في حيـاته صلى الله عليه وسـلم أهل صفته ، وبعد وفاته ، خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثاني والسابق التالي بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله » .

وعن هؤلاء الصوفية ، تتكلم المقالات التي يحويها هذا الكتاب وقد تفضل المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، فنشرها مسلسلة في مجـلة « منبر الاسلام » الغراء ، ثم تفضل فطبعها في هذا الكتاب مجموعة بين دفتيه ، لتيسير الاطلاع عليها جملة ، فأضاف فضلا لاحقا الى فضل سابق ، وللمجلس الموقر في كل ذلك فضل البداية ، وعلى دوام الشكر والثناء .

حسن كامل الملطاوى

تفويض الأمور لله تعالى والرضا بقضائه

— ١ —

شاء الله سبحانه ، وهو الفعال لما يشاء أن أعرف في نشأتي ، مصادفة رجلين من أعلام التصوف في عصرنا ، فنهلت من وردهما الصافي المروق أصفى المشارب وأحلاها ، وقد فقدتهما واحدا بعد واحد ، وسبحان الحي الذي لا يموت ، فأصبحت أطوى ضلوعي على ذكرياتهما الحلوة ، فآنس بها ، وأحمد الله على صحبتهما لأني أعتبر تلك الصحبة أعظم حدث سعدت به في حياتي ، كيف وقد دلاني على الله ، وربياني في طاعته تعالى ، وهي السعادة الحقة .

واحتفظ للعارف الأكبر منهما برسائل قليلة ، لكنها تضمنت نصائح روحية من الهام نفس زكية ، بارة تقية .

واحتفظ للثاني بحكم صوفية شعرية ، كان ينطق بها الهاما لوقته ، وكنا نكتب منها ما تيسرت لنا كتابته حتى تكاملت لدينا مجموعة مباركة من الحكم ، يفاخر بها صوفية زماننا عصور الصوفية الزاهرة .

أما أول الرجلين فهو العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى وهو أستاذى الذى بايعته على تربيتى فى السلوك الى الله ، وقد انتقل الى دار الرضوان فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤٤ .

وأما ثانى الرجلين فتلميذه الاول العارف بالله سيدى الشيخ علـى عقل ، الذى عاون فى ثقافتى الدينية وتربيتى الصوفية بأمر أستاذه وقد انتقل الى دار الرضوان فى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٨ .

وهما من صالحى خلفاء العارف بالله ، قطب زمانه ، ومجدد قرنه ، سيدى الشيخ محمد أبو خليل ، الحسينى نسبا ، الشافعى مذهبا ، ساكن ضريحه الأنور بالزقازيق ، وصاحب الطريقة الخليلية التى انتشرت فى البلاد شرقا وغربا ، وقد انتقل الى رضوان الله فى يونية سنة ١٩٢٠ .

وسأعطى أخى القارىء الكريم فى هذه العجالة نماذج من تلك الحكم والنصائح النثرية والشعرية وهى تفصح بأسلوبها عما كان يتحلى به الامامان من معرفة وصفاء ، وعلم وحكمة ، وأدب كامل فى الدين .

فمما نصحنى به أستاذى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، فى احدى رسائله (وكان حينئذ بالاسكندرية وكنت بالقاهرة) قوله :

« أما عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، فدعها بما فيها لمن يدبرها فيوفيها وفيها ما فيها ، لأنك ان دبرت وصح التدبير ، وهو مطلوب شرعا ، فلا تدرى كيف قضى فيه ، فان صح القضاء بالرضاء فهو القضاء ، وان حصل الجفاء سألناه اللطف فى القضاء ، مع الرضاء على أنه الرضاء » .

وها أنت تراها نصيحة غالية ، تعلم المؤمن الرضا بمواقع المقدور ، وهو عند الصوفية أساس من أسس تعاليمهم ، التى يبنون عليها تربية القلوب فى جنب علام الغيوب ، حتى انهم قالوا : الرضا بمواقع القدر نعم الوسيلة الى درجات المعرفة .

وقد أثر عن القطب الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى (من أعلام القرن السادس الهجرى) أنه كان يقول فى هذا المقام :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما يشاء يفعل بى
أحاط بى علمه من قبل تصويرى

واذا نظرت فى أقوال أئمتنا المجتهدين ، الذين عقدت الأمة لهم ألوية الامامة فى الدين ، أخذت عنهم هذا المشرب كذلك ، لان السادة الصوفية لم يبتدعوا شيئا فى الدين ، بل هم أخذوا منه بالعزائم دون الرخص والتأويلات ، وأقبلوا على الله بكلياتهم وجزئياتهم ، فسمت مذاقاتهم ، حتى ظن العوام أنهم غالوا فى الدين ، ونأوا عن الصراط المستقيم ، وحاشاهم أن يفعلوا ذلك وهم يتمسكون بالكتاب والسنة ، ويتأسون بمولانا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الاقوال والأفعال

والأحوال ، وانما الجديد هو أنهم وضعوا آداب القلوب فى سلوكها الى الله فى قالب علم ، عرف بعلم « التصوف » ولقب أهلوه بلقب «الصوفية» وقيل للمتشبهين بهم « المتصوفة » ، وذلك شبيه بما وقع فى شأن العلوم الأخرى التى نشأت فى صدر الاسلام ، فقد وضعت مثلا قواعد اللغة العربية فى قالب علم عرف بعلم النحو ، ووضعت أحكام الشريعة فىقالب علم عرف بعلم الفقه ، و لايقال ان النحويين أتوا بلغة جديدة ، أو ان الفقهاء أتوا بشرع جديد .

هذا ومن تسليم الامام مالك ورضاه بقدر الله أنه — رضى الله عنه — كتم أمر مرضه بسلس البول عن تلاميذه ومحبيه أعواما طوالا ، فلم يعرفوا أن تلك العلة كانت السبب فى تخلفه عن الذهاب للحرم النبوى كعادته ، وجلس للتدريس فى منزله ، ولما علموها آخر حياته سألوه ولماذا لم تخبرنا بذلك يا امامنا فقال : أأشكو خالقى لعباده ؟ .

كما أن الامام الشافعى — رضى الله عنه — يقول فى توحيد خالص لله تعالى ، وفى رد الأمور لمشيئته سبحانه :

وما شئت كان وان لم أشأ
وما شئت ان لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت
ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت
وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقى ومنهم سعيد
ومنهم قبيح ومنهم حسن

فاذا نحن قارنا أحوالنا بأحوال هؤلاء الصالحين ، وجدنا الفرق واضحا وكبيرا ، فنحن نضجر بمواقع القدر وهم يسلمون ، ونحن نشكو وهم يشكرون ، ذلك بأننا نجهل الحقيقة وهم يعلمون ، ونضعف فىايماننا وهم يوقنون .

أما عن الحكم الشعرية ، فانى ناقل لاخوانى مثلا رائعا منها،لاستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، فقد كان — رضى الله عنه —ينشد

شعره على مجلس الذكر الهاما وارتجالا لوقته دون روية أو اعمال فكر، وكان ينشده ليشد عزائم الذاكرين ، فكان فيما قال وكتبناه عنه :

حوالى فضـل الله من كل جانب
عـزيز غزير جـاره اليـوم واصـل

فأردت أن أبين للسامعين الذين لم يقفوا من قبل على حاله النورانى أن هذا من الهامه الفورى وليس شـعرا مؤلفا على روية وتفـكير ، أو محفوظا من قديم ،

فقلت لسيدى الاستاذ .. حوالى مرة أخرى ياسـيدى الشيخ ، وكنت أثيرا عنده ، فقال عفا الله عنه :

حـوالى نور العلم يسـكن جبهتى
أسـالم أيامى ومـا أنا جاهـل

فقلت : حوالى مرة أخرى من فضل الشيخ ، فقال :

حـوالى نور المصـطفى وأنا به
أمـوت وأحيـا انه لى منـاهل

فقلت : حوالى ايضا لو سمحت ياسيدى (وكنت قد رأيت انتباها شديدا من السامعين) فقال :

حـوالى ايناس من الله وحده
وما لعبت يوما بعقـلى الشواغل

فقلت أريدها والله مرة أخرى اكراما لذكرى مولانا الامام الحسين ــ رضى الله عنه ــ (وكانت الحفلة مقامة فى مناسبة ذكرى مولدهالمبارك) فقال قدس الله سره :

حـوالى اشراق من الشرع ثابت
وشمس التجـلى ما عليها حـوائل

وعندئذ هب الجمع على كثرتهم وقوفا ، وصفقوا طويلا ، وصاحوا صيحة الاعجاب ، ولا أقول بعد الذى جاء فى الشطر الأخير من البيت الأخير ، الا ما قاله الله تعالى (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم) .

تربية النفس فى جنب الله تعالى

— ٢ —

قدمت لاخوانى القراء الأعزاء فى الصفحات السابقة نماذج مما أحتفظ به من حكم ملهمة — نثرية وشعرية للامامين الصوفيين المعاصرين ، العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى وسيدى الشيخ على عقل ، قدس الله سرهما — وهما اللذان توليا تربيتى الدينية فى الطريقة الخليلية لصاحبها الامام العظيم والقطب الكبير سيدى الشيخ محمد أبو خليل رضى الله عنه — ساكن ضريحه المشرق بالزقازيق ، وذلك على مشرب السادة الصوفية — وهو أصفى مشرب للواردين الظامئين فى هجرتهم الى الله رب العالمين ، ذلك المشرب الذى يصفه الامام الغزالى رضى الله عنه بقوله :

« علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة أولها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك » .

وأقدم اليوم جديدا من تلك الحكم الصادرة من قلوب زكية ، امتلأت بحب الله واستضاءت بنور رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كتب لى استاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فى رسالة بعث بها من الاسكندرية :

« ان استعراض النفوس يحير الألباب ، ويفتح باباوراءهألفحجاب لا يعلم ما وراءها الا واهب الألباب طريق الصواب ، فان كشف الحجاب لبعض الأحباب ، رأى تدبير القادر الحكيم وقال « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » .

والمتأمل فى حكمة استاذى هذه يدرك أهمية النفس فى صلة العبد بربه ، فهى رأس مال الانسان فان نسى ربه أنساه الله نفسه ، فغفل عن النظر اليها ، ففقد رأس ماله ، وكان عاقبة أمره خسرا ، وان خاف مقام ربه فنهى النفس عن هواها ، وعنى بها فزكاها ، انكشف له حجاب الغفلة وأشرقت عليه شمس الحقيقة ، فرأى بنور اليقين الذى يهبه الله لأحبابه الذين قال فيهم (يحبهم ويحبونه) — ان القلب السليم هو خير ما يلقى به العبد ربه يوم القيامة ، ولا يكون القلب سليما الا اذا سلم من آفة الشرك المميتة ، ومن ظلمات الغفلة المعوقة .

وقد بين القرآن الكريم أنواع النفوس التى تصاحب الناس ، فهناك نفس أمارة ، ونفس لوامة ، ونفس ملهمة ، ونفس مطمئنة فقال فى الأولى (ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) وقال فى الثانية (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) وقال فى الثالثة (ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها) وقال فى الرابعة (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) ونالت النفس المطمئنة بذلك الشرف كل الشرف اذ خاطبها رب العزة ثم أرجعها الى حظيرة قدسه راضية مرضية ثم كان جزاؤها (فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

والايمان علم وعمل يزيد وينقص ، وحجب الغفلة كثيرة وكثيفة عبر عنها سيدى الشيخ بأنها « ألف حجاب » فان جاهد المؤمن نفسه وهواه بالطاعة والذكر والأخذ عن العارفين والتقلب فى الصالحين ، تبددت حجب الغفلة ، وظلمات الهوى ، فانفتحت عين البصيرة فقرأ المؤمن بها فى صفحات الخلود قوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) فاهتدى الى طريق الصواب فآثر الله تعالى على هواه وعلى كل ما سواه ، وهذا هو الملك الحقيقى وليس ملك العروش الزائلة ، وفى

ذلك يقول استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى اشراقاته الملهمة :

عرش كسرى تغنى عنه كسره
ما وقى الملك من الموت أجل

ليس من ورث عرشا ملكا
أو على الملك تفانى واتكل

انما الملك الذى حد الهوى
وعن اللهو تناءى وعدل

وحياة قد خلا سلطانها
من تقى الله قصاراها الفشل

ليس عندى أى مال انما
كل مالى فيه علم وعمل

ان عيدى يوم القاه فما
لى عيد غير وجه الله جل

شهدت روحى حمياه وقد
لاح لى نور المحيا واتصل

ايه يا دنيا افعلى ما شئته
ان شمس الحشر أدنى من زحل

عن مغانيك بشبر اكتفى
وعن البحر اجتزاء بالوشل

ولا يستطيع المؤمن أن يزيد ايمانه الا بمعاشرة أهل اليقين ، ولذلك جاء فى الحديث الشريف « تعلموا اليقين » أى جالسوا أهل اليقين وقد نصحنى استاذى فقال لى فى رسالة أخرى .

وكن مع أهل الحقيقة وابحث عنهم بحث الباحث عن حق يرجع اليه لنفسه فقط .

ولا عجب فان أهل الحقيقة جاهدوا فى الله حق جهاده حتى فنوا عن أنفسهم بربهم فحيوا وأحيوا غيرهم اذ استخلفهم الله فى الأرض فصاروا أطباء النفوس بما آتاهم من فضله ورحمته فداو نفسك يا أخى بدوائهم وغذها بغذائهم تصح كما صحوا (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول :

أساة جسمك شتى حين تطلبهم
فمن لروحك بالنطس المداوينا

ولله در الامام البوصيرى حين يوجهنا الى ضرورة العناية بالنفس فى قوله :

والنفس كالطفل ان تهمله شب على
حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
فراعها وهى فى الأعمال سائمة
وان هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

ويبدى استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل انه انما عاين آيات اليقين بعد أن قتل هوى نفسه فيقول فى الهامه الممتع :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفس
وجافيت انسى فانحدرت الى الأنس

ولم أبد أمرى للعباد لطالما
كتمت الذى القى عن الجن والانس

وأدركت بالوجدان سر أحبتى
وعاينت آيات اليقين بلا لبس
وعشت زمانى لست أحفل بالورى
وكيف وقلبى هام فى مشهد القدس

تعشقت نور الله وهـو بصـيرتى
وقد وضح البرهان من آية الـكرسى

وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس

وان شرب النـاس الطلا وتصببوا
فسنة خير الخلق فى شربها كأسى

وعلمت غيرى ما أفدت من الهدى
فلم يبق ذو فهم لدى على طمس

ولم أعشق الدنيـا فتلك مجـازة
تهيىء للأخـرى وفى فـوتها عرسى

وأترك لأخى القارىء الكريم ، أن يذوق حلاوة هذا الالهام المتدفق، مذاق المؤمن الذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب) .

ويتعرض السادة الصوفية فى جهاد أنفسهم لسخرية الناس الذين لا يعقلون ، ولكنهم لا يعبأون بسخرية الناس أو ملامتهم ، وقد تعرض لها الأنبياء والمرسلون من قبلهم فلم يحفلوا بها ، ذلك بان محب الله لاينثنى عن حبه ، مهما لا قى فى سبيل الحب ، وأى حب هو ، انه حب الله ، الذى ليس كمثله شيء ، ولا شيء قبله ، ولا شيء بعده ، ومبدؤنا منه ومنتهانا اليه سبحانه .

ولهذا يقول أستاذى العـارف بالله سيدى الشيخ عـلى عقل فى الهاماته :

انا محبـوه آثرنا الحيـاة له
فلا نلام عـلى احيـاء تقـواه

ان كان حبى جنونا بئسما زعموا
يارب زدنى جنـونا أنت منحـاه

قالوا اتخذ لك جاها تستعين به
قلت اتخذت فكفوا حسبى الله

ويقول أيضا رضى الله عنه :

لا تحارب بالعذل قلب محب
عالج الشوق عمره ولهانا

وتلطف به فقد حكم الشوق
عليه فلن يفيق جنانا

اعذرونى أو اعذلونى فانى
لست أخشى الملام من حيث كانا

انما اللوم فى المحبة عندى
لا يزيد المحب الا افتتانا

جرب الحب مثلما جرب العاشق
تلق الملام يذكى هوانا

قد رضينا بالله لا بسواه
ما لقينا لما رضيناه هوانا

قد تناءيت عن سواه بكلى
وتلقيت سره احسانا

وقريب من كلام استاذى قول الشهيد الحلاج رضى الله عنه :

يالائمى فى هواه كم تلوم فلو
عاينت منه الذى عاينته لم تلم

ويبدو لى — فى غير تعصب — ان كلام أستاذى فى دفع الملامة أقوى من كلام الشهيد الحلاج رضى الله عنه ، وان كان الشهيد الحلاج رضى الله عنه يقول بعد ذلك فى روعة صوفية ظاهرة :

للناس حج ولى حج الى سكنى
تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى

يطوف بالبيت قوم لا بجارحة
بالله طافوا فأغناهم عن الحرم

واذا كان أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل لا يحفل باللائمين وانما يدعوهم للتجربة ليشهدوا بانفسهم أن الملامة تذكى الهوى وتلهبه فليس عجيبا أن يصف حاله فى حب الله بقوله :

وقفت على نجوى الاله جوانحى
لذلك قلبى منزل كله ذكر

وأخليت قلبى من مناجاة غيره
فأصبح طودا لا يزازله الغير

أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأنطق اجلالا وما عاقنى سير

ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

ألا رحم الله الصالحين من السلف والخلف ، ورزقنا تقواه وهداه ، وجمل قلوبنا بالحكمة لنكون ممن قال تعالى فيهم :

(يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب) •

الذكر - الشكر - الرضا - العلم بالله

— ٣ —

« وتقلب فى الذاكرين ، وكن معهم ذاكرا شاكرا ، ولا يهمك أمر الدنيا ، فان السعة هى الرضا ، وقل رب زدنى علما » .

وهذه حكمة أخرى من الحكم التى كتب بها الى من الهامه أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه وهى تتناول فى التربية الصوفية أربعة أسس : الذكر ، والشكر ، والرضا ، والعلم .

أما عن ذكر الله ، فانه اذا أطلق على عمومه ، شمل كل قول أو فعل أريد به وجه الله تعالى فيدخل فى ذكر الله أداء العبادات المفروضة على وجهها الصحيح ، وتلاوة القرآن الكريم ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتحصيل العلوم اللازمة لذلك ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وافتاء الناس فى الحلال والمواريث ، والجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، والتسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، والتلبية .. الخ .

أما ذكر الله على التخصيص ، فيقصد به ذكره تعالى بأسمائه الحسنى جماعة أو فرادى ، باللسان والقلب ، وهو من فضائل الأعمال ، وثمراته دانية ، دلت عليها التجربة العملية ، ورواد التجربة صوفية كل عصر ، والتقلب فيهم يكسب المؤمن محبة الله تعالى محبة خاصة ، يؤثر بها ربه عما سواه ، كما آثره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سجل الله تعالى لهم ايثارهم فى أروع صورة فى مثل قوله الكريم (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) وقوله تعالى : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو

والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة) .

ويبين أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه آثار ذكر الله فى تربية الروح فى أقوال كثيرة ، فمن الهامه فى هذا المجال قوله :

رضينا بما يرضيك أنت منانا
وان نطلب اللقيا فأنت علانا
وكل فؤاد غافل عنك صخرة
ولكنه ان ذاق ذكرك لانا
ونفس هوت فى الغى من بدء أمرها
اذا ذكرت يوما تنال أمانا
وبالذكر كانت أرض تبر لأهلها
وبالذكر تكسى عزة وحنانا
ومن يذكر الرحمن بالقلب صادقا
علا فوق أعناق الملوك مكانا
ورب فتى فى الناس رثت ثيابه
ولكنه ساد الضحى لمعانا
اذا كنت تهوى الله نلت مكانة
وان كنت تهوى الناس نلت هوانا
وروحى تستغنى عن الناس باسمه
وقلبى تدانى بالهوى وتفانى
ونحن قلوب طهر الله أصلها
ورب السما بالمكرمات كسانا
ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بيانا
الا أيها اللاحى تجرع كؤوسنا
لتصبح منا ان سقيت سقانا

وتعـرف عنــا ودنا وغرامنــا
وتدرك منا علمنــا وهــوانا
تجلت لنــا الأنوار من عــالم البقا
فهامت بها أرواحنــا ونهــانا
فنينا بهــا حبــا فطابت حيــاتنا
رأينا بها عنــد الفنــاء بقانا

وهكذا كشف لنا سيدى الأستاذ عن منازلات الذاكرين وأحــوالهم ومقاماتهم ، ويتوجها جميعا مقام الفناء في الله ، وهو عين البقاء والخلود، ويعبر عنه الشهيد الحلاج رضى عنه بأنه الحياة فى قوله :

اقتــلونى يا ثقــاتى
ان فى قتلى حيــاتى
وحيــاتى فى ممــاتى
ومممــاتى فى حيــاتى
أنا عندى محو ذاتى
من أجــل المــكرمات
وبقــائى فى صــفاتى
من قبيــح الســيئات

ويعبر عنه القطب الكبير سيدى ابراهيم الدسوقى بقوله فى مناجاة ربه : وخذنى اليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتونا بنفسى، محجوبا بحسى ، واكشف لى عن كل سر مكتوم ، يا حى يا قيوم •

ولا يتسع هذا المقال لتفصيل أكثر عن ذكر الله وأثره فيجمع القلوب على الله ، وقد تغنى الاشارة عن العبارة ، فقد قال العارفون بحق :

الذكر منشور الولاية ، وسلم الهداية ، وصلاح المريدين ، ورأس مال كل عارف ، وشجرة المعارف •

وكفى شرفا للذاكرين قول الله تعالى : « فاذكرونى أذكركم » وقوله تعالى فى الحديث القدسى : « أنا جليس من ذكرنى » وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله تعالى •

أما شكر الله فهو من دعائم الايمان القوية كما أنه مظهر من مظاهر حيه سبحانه ويكون شكره باللسان ، والأركان ، والجنان •

أما شكر اللسان فالتحدث بالنعمة بنية الشكر واظهار الفضل •

« وأما بنعمة ربك فحدث » فلا يتحدث المؤمن افتخارا ولا تزكية لنفسه •

والشكر بالاركان يكون بأداء العبادات المفروضة « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » •

أما الشكر بالجنان فهو أن يعتقد المؤمن ويحس بقلبه أن النعم التى يتقلب فيها ظاهرة وباطنة من احسانه تعالى ومحض جوده سبحانه لاالزام عليه فيها (وما بكم من نعمة فمن الله) •

ومن الهام أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى ردالفضل لله تعالى قوله :

وزمانى يقول لى
لا تفتخر بقوة
كل من عاش ذاهب
أى فخر لميت
وحبيبى يقول لى
سر لبابى بخشية
وفؤاى يقول لى
احفظ أصول المودة
يا فؤادى اذا بدا
فضل مولاك فاثبت
ذكر مولاى مقصدى
عز مولاى منعتى
حكمة الله ملجئى
وتقى الله رفعتى

أنا صـــاف مهـــذب
ذائق كـــل رحمـــة
بالهـــدى صـــانني وقد
بعـــت نفـــى برغبتـــى
بين عـــز وحـــكمة
أكمـــل الله نعمتـــى

ومن الهامه كذلك :

سألت فوفاني رجـوت فـزادني
وان كريم الكف ما خاب ســائله
أحن على ذل وأهـوى على هـدى
وأسرى على علـم بقلبى أواصـله
وهل يـدرك الآيات الا رجـالها
وهل يعرف الوجـدان الا مزاوله
وذوه الوجد لا يغضى عن الحب لحظة
به عاش حتى لو أصيبت مقــاتله
فقل للذى لم يشـهد الحق لاتحـد
عن الحق ان الحق قد خاب جاهله

أما الرضا فيقول عنه سيدي الشيخ « ولا يهمك أمر الدنيـا فان السعة هى الرضا » والرضا هو السـعة حقا كما جربنا ، فبغير الرضـا يضيق الفسيح فى الدنيا ، وكم كبير مات وكانت الدنيا تضيق عن نفسه ، فأضحى تسعه حفرة من رمسه ، وما أكثر العبر وأقل الاعتبار .

عبـر كلهـا الحيـاة ولـكن
أين من يفتـح الـكتاب ويقـرا

أما الصادقون فقد ابتلوا فى الدنيا بأنواع البـلاء ، فانزاحت عنهم مرارة البلاء بحلاوة الرضاء ، فعاشوا دنياهم برضاهم سعداء ، وكانوا بعد موتهم فى جوار ربهم أسـعد ، (فرحين بما آتاهم الله من فضله) .

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرى نعم الله عليه فى البلاء فيقول ما من بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم : النعمة الأولى أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، الثانية انه لم يقع أكبر مما وقع ، الثالثة أن الله دفع جزعى منه بالايمان ، الرابعة أنه ادخر لى ثواب الصبر عليه ، وهذا من قوة يقين أمير المؤمنين وتأمله فى حكمة القضاء .

وما أبدع الهام أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى تهوين الألم والرضا بمواقع المقدور اذ يقول رضى الله عنه :

لولا التألم فى الحياة لما بدا
نور التأمل لامرىء قوام
لولا وقود النار فيما ينبغى
ما كان ينضج بعد أى طعام

وكذلك قوله :

انما هذه الحياة قضاء
وقضايا لها البرية تجهل
ليس يدرى القضاء الا الذى
قدره وهو فى الحقيقة أول
ان من ذاق للمحبة طعما
فهو عند الأحداث لا يتململ

ويقول أيضا رضى الله عنه :

كل شىء يهون عندى سوى الله
فما للحياة أعطى انتباها
ليس تفكيرى فى غد كيف يأتى
ما مضى اليوم عفتها أشباها

أما العلم فهو نور يمحو ظلمات الجهالة ، وأشرف ما يعلمه الانسان توحيد ربه والايمان برسله وباليوم الآخر ، فاذا وحد الانسان ربه، أمكنه أن

يزداد بالتربية الدينية ايمانا ، فيتصل بالله اتصال الخواص ، الذين آثروا ربهم عما سواه وكيف لايتفانى المؤمن فى حب الله وقد أحاطت به نعمتاه ، نعمة الايجاد ، ونعمة الامداد ، ولولاه ما كان شيئا مذكورا .

غير أن المؤمن لايستطيع الاتصال بالله تعالى الا من الباب الذى دله الله عليه ، وهو مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) وصدق سيدى البكرى اذ يقول فى مناجاته صلى الله عليه وسلم:

وأنت باب الله أى امرىء
أتاه من غيرك لا يدخل

وقد شرف الله بالعلم أبا البشر آدم عليه السلام ، فعلمه الأسماء كلها ، قبل أن تعلمها الملائكة ، ومن الله على سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم الموهوب فقال تعالى : (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وأساس علمه صلى الله عليه وسلم (فاعلم انه لا اله الا الله) وهبة العلم جاءته فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وفى قوله تعالى « فأوحى الى عبده ما أوحى » وكان على الدوام فى زيادة علمية ، كيف لا وقد اختار له ربه دعوة بالزيادة فى العلم (وقل رب زدنى علما) وهو صلى الله عليه وسلم خير السائلين والله تعالى أقرب المجيبين وفى الخبر (بربى عرفت كل شىء) .

ولأن معرفة الله تعالى هى أول فرض فرضه على عباده حين خاطبهم فى عالم الذر (ألست بربكم قالوا بلى) صارت العلوم الشرعية أطهر العلوم وأصفاها ، وأشرفها وأزكاها لأنها تهيىء القلوب لتذوق العبادات والتلقى الواردات الرحمانية ، والنفحات الربانية التى لا تنفد ، وما يلقاها الا أولياؤه المتقون ، فحدث عنها ما شئت ، فانها من الهام الله وكلماته .

ويذكر أستاذى العارف بالله سـيدى الشيخ على عقل فضل ربه عليه فى الهامه رضى الله عنه فيقول :

آنس الله مهجتى بعـلوم
مزجتنى بهـا فـكنت وعاها

طاف بى النور فالمعارف بحـرى
تلفظ الـدر وهى لا تتنـاهى

وارتقاء الأرواح فى مـورد العـلم
يصـفى الأرواح من دنيـاها

وانعـدام الأهـواء والحس منهـا
هـو معنى السـمو فى مسراها

يا سرورى بقـوله يا عبـادى
أنـا فى سـمعها أنال رضـاها

الا جزى الله عنى وعن اخواني المؤمنين أساتذتى خيرا وجعلنى أهلا لبنوتهم وهدانا بهداهم •

الصوفى جسمه بين الخلق يسعى
وقلبه فى الملكوت يرعى

— ٤ —

« وكن مع أهل الحقيقة وابحث عنهم بحث الباحث عن حق يرجع اليه لنفسه فقط » .

وتلك حكمة من الحكم الغالية التى كتب لى بها استاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، وقد رجوته حينئذ أن يفسرها لى فقال دعها حتى يفسرها الزمن ، فالتزمت أمره ، ودار الزمن دورته ، وتقدمت بى السن ، وتقلبت فى التجارب ، وفى حلو الحياة ومرها، ورأيت تفاوت الناس فى معادنهم ومشاربهم ، فما أبكى عينى ولا أحزن قلبى ، مثل فراق والدى وشيخى وبعض اخوان لى فى الله ، رحم الله من مضى ، وبارك من بقى ، فقد قدرت لهم وأكبرت فيهم صلاحهم ومعاونتى فى طاعة الله والشغف به تعالى وايثاره على ما سواه .

ولم أخرج من تجاربى بخير مما أوصانى به سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، وقد كان ينظر بنور الله فيما أوصانى به ، فقد وجدت أن أهل الحقيقة هم أصفى المجتمع ، لأنهم يطلبون ربا لا يفنى ، ويتلهى غيرهم بغمرات الدنيا التى تزول ولا تبقى ، والأولون يظنهم الناس حمقى وهم العقلاء ، والآخرون يراهم الناس عقلاء ، وهم حمقى غافلون .

ولا أود أن يفهم اخوانى القراء الأعزاء ، أنى أرمى أهل الحقيقة بالسلبية فى الحياة وترك السعى فيها ، لا ، انما أقول انهم يسعون فى الدنيا كما يسعى الناس ، ولكنهم مع سعيهم فى دنياهم يجعلون سعيهم هذا فى خدمة أخراهم ، ايثارا للآخرة على الدنيا ، لأنهم خلقوا للآخرة ، وهى مقرهم ، وهم يمرون بالدنيا فى طريقهم اليها ، فلا يشغلهم ممرهم عن مقرهم .

وخصوصية أهل الحقيقة ، محلها البواطن ، وقد كان شيخنا الأكبر سيدى محمد أبو خليل ، رضى الله عنه يقول : « خلوتنا بالقلب » لذلك عرف الصوفى بأنه المؤمن الذى صفا قلبه من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع الى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر .

وانقطاع الصوفى من البشر ، انما هو انقطاع بالقلب لا بالحس ، فتراه بين الخلق يسعى وقلبه فى الملكوت يرعى ، وقد تقلب سادتنا الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات الله بين الناس بأجسادهم ، وباينوهم بمواجيدهم والذين لم يعرفوهم بخصوصيتهم الباطنة ظلوا على كفرهم ، فقد قالوا مثلا فى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وأضلت الظواهر أبا لهب حين نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه يتيم أبى طالب فلم ير أنه السراج المنير الهادى الى سواء السبيل ، وهذا من عمى القلب والعياذ بالله .

وقد قال سيدى أبو سعيد الخراز رضى الله عنه : ليس الكامل من صدرت منه أنواع الكرامات ، وانما الكامل الذى يقعد بين الخلق يبيع ويشترى معهم ويتزوج ويختلط بالناس ولا يغفل عن الله لحظة واحدة ، ويؤيده فى كلامه هذا قوله تعالى « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة .. الآية » .

وتفصح السيدة رابعة العدوية عن خلوة القلب بالله ، مع تقلب الأجسام فى الناس ، فتقول رضى الله عنها مناجية ربها :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ويقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

ليس التصوف بالظواهر انما ... هو للبواطن حلة وشعار
كم ضاحك لكنه فى محنة ... كم خائف لكنه مختار
والقلب روض واليقين ثماره ... فاذا اعتززت به تطيب ثمار

وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أئمة الأمة عامة وأهل الصدق خاصة ، وأهل الحقيقة يحاكونهم فى أخذ الدين بقوة العزائم ،

وقد أدى الصحابة رضوان الله عليهم دورهم فى المجتمع أحسن تأدية ، فقد تاجروا وكسبوا عيشهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وفتحوا الأمصار لاعلاء كلمة الله وقاتلوا أهل الزيغ كمسيلمة ، وأهل الردة والخوارج ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وبلغوا الخلف أحكام الشريعة وآداب القلوب .

وقد التبس على الناس بما فيهم بعض علماء الشريعة ، معنى الحقيقة، وعجبوا أن يعرف الصوفية وأهل العناية بالدين بأنهم أهل الحقيقة ، واعترضوا على ذلك بأن الناس مكلفون بالشريعة ، فلا معنى لأن تذكر الى جنبها الحقيقة ، وقد أجاب الصوفية على هذه الشبهة فقالوا ان الشريعة عبادة ، والحقيقة عبودية كما قالوا الشريعة تعلق ، والطريقة تخلق والحقيقة تحقق ، أو الشريعة باب والطريقة آداب والحقيقة لباب ، فاذا أدى المسلم العبادة على وجهها الصحيح وذكر الله كثيرا وأحبه من كل قلبه ، ذاق طعم الايمان ، فاستشعر بهذا المذاق عبوديته ، فتفانى فى حب سيده فغمرته الأنوار وزكته الاسرار ، وآثره تعالى عما سواه وصارت أقواله وأفعاله وأحواله لله وبالله وفى الله ، أما العبادة الشكلية فهى عبادة آلية ، لا تتزكى فيها الروح بدرجة الخواص المراعين أنفاسهم مع الله .

وزاد السادة الصوفية الأمر وضوحا فقالوا ان الشريعة هى القيام بالأوامر ، والحقيقة هى محبة الآمر ، فالدين واحد يجمع حدود الأوامر ومحبة الآمر جل جلاله ، كما قالوا ان فاتحة الكتاب جاء فيها ، اياك نعبد، وهى شريعة ، واياك نستعين ، وهى حقيقة ، فالعون منه سبحانه ، ولا يعرف ذلك الا من استشعر العبودية لله وحده ، وقالوا فى معنى لا اله الا الله ، أنه لا نافع ولا دافع الا الله ، فيجب أن تكون السيادة له وحده سبحانه .

والنتيجة أن العبادة هى شكل العبادات ، والعبودية هى روح تلك العبادات ، ولهذا تختلف مثلا درجة المصلين وان تساووا فى شكل الصلاة وعدد الركعات ، فمنهم من ينصرف من صلاته وما كتب له الا نصفها ثلثها ربعها خمسها سدسها سبعها ثمنها كما جاء فى الحديث الشريف .

ويكسب المؤمن روح الدين وقوة اليقين ، بالأخذ عن العارفين من العلماء الربانيين ، وهم أهل الحقيقة ، وهم من فضل الله موجودون فى كل جيل ، وهم عباد الرحمن ، الذين جاءت أوصافهم فى آيات القرآن الكريم ، ومن دعائهم المستجاب « واجعلنا للمتقين اماما » .

والاحكام الشرعية ربما يحصلها المجتهد من الاطلاع على تآليفها ويستغنى فى تحصيلها عن الاستاذ المعلم ، أما آداب القلوب فى سلوكها الى الله تعالى ، فلابد فيها من الشيخ العارف الذى يربى تلميذه بالحال والمقال ويرشده الى ذكر الله ذكرا كثيرا حتى يستغرق الذاكر بالذكر القلبى فيحيا به حياة الخواص المراعين أنفاسهم مع الله ، وقد قال العارفون :حياة الروح بالذكر وحياة الذكر بالذاكر وحياة الذاكر بالمذكور .

وهذه سنة السلف منذ صدر الاسلام ، فقد قيل للامام الحسن البصرى رضى الله عنه وهو أفضل التابعين ، يا أبا سعيد نراك تتكلم بكلام لم نسمعه من غيرك ، فممن تعلمت هذا العلم ، قال : أخذته عن حذيفة بن اليمان « الصحابى الجليل » .

ويحدث حذيفة بن اليمان ، رضى الله عنه ، عن نفسه فيقول : كان أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقنى ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون يارسول الله ما لمن عمل كذا وكذا وكنت أقول يارسول الله ما يفسد كذا وكذا ، فلما رآنى مقبلا على هذا العلم خصنى به .

وبفضل هذا العلم الذى حرص حذيفة رضى الله عنه على أخذه من منهل النور الأصفى صلى الله عليه وسلم ، خص حذيفة بعلم المنافقين ،حتى أن مولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان لا يصلى على أحد مات الا اذا رأى حذيفة يصلى عليه . وقد وصف الله المنافقين فى القرآن الكريم فقال تعالى « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » .

ولأن أهل الحقيقة يعنون بأحوال القلوب وآدابها ، فانه لابدللسالك مسلكهم أن يدقق فى اختيار شيخه الذى يأخذ عنه تلك الآداب الروحية.

وقد قالوا ينبغى أن يكون الشيخ صوفيا منتهيا ، وعرفه ابن الجوزى فقال « هو ذلك الذى يربيه الحق من صغره ، فتراه فى الطفولة معتزلا عن الصبيان ، كأنه فى الصبا شيخ ، ينبو عن الرذائل ، ويفزع من النقائص ثم لا تزال شجرة همته تعلو ، حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، ساع فى طلب الفضائل خائف من النقائص ، فلو تصورت التوفيق والالهام الربانى ، كيف يأخذ بيده ان عثر ، ويمنعه من الخطأ ان هم ، ويستخدمه فى الفضائل ، ويستر عمله حتى لا يراه منه ، فلو تصورت النبوة تكتسب لدخلت فى كسبه .

وأنت ترى أيها الأخ الكريم من ذلك أن الشيخ يجب أن يتوافر له فى الارشاد علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة .

وقد قالوا ان من العلامات الدالة عليه ، السخاء ، وحسن الخلق ، والشفقة على خلق الله ، وعدم الانكباب على جمع الدنيا ، وعدم المبالاة باقبال الناس عليه أو ادبارهم عنه ، وعدم الشكوى من ضيق العيش ، ومجانبة الدعوى ، وليس من لازمه الكرامات أو الاخبار بالغيب .

وقد لمست فى شيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه تلك الصفات التى ذكروها ، وذلك من فضل الله علينا وعلى اخواننا فى الله ، وقد تعرض لفضله فى مناسبة ذكرى مولده المبارك تلميذه العارف الموهوب سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فقال الهاما :

هذا اجتماع فى المباح — قد جنينا ثمره
نحيى به ذكرى لعا — رف قوى التبصره
من فضله روى القلوب — حيث أجرى أنهره
علمنا تصوف الرجا — ل أهل الآخره
الحلوانى ذى الوقا — ر والأيادى الخيره
حتى غدت قلوبنا — بالحق تسرى نيره

ومن معـــانى الذكر كم تلقى الوجـــوه مسـفره
وجوهنـــــا من ذكـره ضـــاحكة مستبشرة
وما علينـــا فى هـوى رب العبـــاد من تره
من عــاش يدعـــو ربه ونفســــــه مطهــره
فانه فى حشـــــره يحمــد حسن المغفــرة
ان كنت ترجـو عفــوه فاعمـــل وخذ ما أمـره
نجـــواه رب القلب لا يورق قـــلب هجــره
كالنبت ان رويتـــه أفنـــانه مزدهـــره
من قال يارب الســـما فى علمنـــا ما أظهـرم

ويشير رضى الله عنه الى أن الصادقين من أهل الحقيقة قلة،والمدعون كثير ، فيقول رضى الله عنه :

لم أبالـغ اذا حلفت يمينـا ان فى عصرنا يعـم البـلاء
زمن فيـه للتـدين ناس زعموه وهم له أعــداء
ان رأوا فى الطريق أى فقير نهـروه والســادة الاغنياء
وتراهم ان قيل بيك وباشا احنوا الرأس فى النفوس رياء
يحسنون المديح فى لؤم طبع تتأذى بسـمعه الاذكيـاء
عامل الناس بالوداعة والحكمة تمحى من صدرها البغضاء
وترفق اذا نصحت ولا تغل ففى الرفق للنفوس دواء
كن مع الناس فى صفاءودين واعف عنهم من الذى لا يساء
ان عفوا عن الضـعيف مقام والتغاضى عن اللئيم غبـــاء
احفظوا عهدكم مع الله صدقا واتبعوا ما دعت به الانبيـاء
كيف يرضى الجحود من جاءه الحق وبالخير قد حبته السـماء

ويقول أيضا طيب الله ثراه :

شراب الحب يعرف بالمذاق وما كل السقاة له بساق
دعاة الحب أكثر ما تلاقى وقل الصادقون فما تلاقى
وليس بعـاشق من لاتراه عن الشـهوات طهر والنفاق

اذا ما عشت لا أنسى الهى ... به أسمو من الأخرى المراقى
أحب الله عن أدب وصدق ... ولا أرضى سوى التقوى خلاقى
تركت جميع خلق الله دونى ... شغلت عن الخلائق باشتياقى
يعز على ترك الحب عندى ... ولو بلغت بى الروح التراقى
أطوف على الرحاب بكل ذل ... مريدا واليقين به انسياقى
ومن عرف المحبة عن يقين ... حرام أن يميل الى فراق

وها هو ذا يصف أحوال أهل الحقيقة ومواجيدهم ، فيقول رضى الله عنه :

أرواحنا فوق السماء ... مع الكواكب سارية
وقلوبنا مثل البدور ... بكل ليل زاهية
ونفوسنا أنفاسها ... كالطيب امست زاكية
ولساننا بيت المعارف ... والعلوم الراقية
وكنوزنا فى قلبنا ... فيها المعانى غالية
أعضاؤنا طربت بحبك ... وهى تذكر صافية
والروح من وجد عن الـ ... أغيار عاشت نائية
فنيت به عن غيره ... فاستمسكت بالباقية
شرفت به وتلذذت ... بشهوده فى عافية
ان كان جسمى بالفناء ... سقوفه متداعية
فالروح بعد فنائه ... في الخلد شمس سامية

اللهم ارزقنا حبك ، وحب من يحبك ، لنكون من القوم الذين قلت فيهم « يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ».

القرب من الله قرب مكانة لا قرب مكان
الصوفية ينفون الحلول والاتحاد .

— ٥ —

« ان باء بنعمة الاخلاص اليك انسان ، فقد يكون هذا الضعيف ، الذى يضرع الى الخالق البارىء ، أن يهبنا الاخلاص الكامل ، والقرب الشامل » .

وهكذا ترى فى كلام سيدى الاستاذ العارف بالله الشيخ عبدالسلام الحلوانى ، تواضع الأئمة الأتقياء ، فهو يكتب لتلميذه الناشىء بلغة التواضع والتراحم ، ويعلمه أن السعى فى الله تعالى باخلاص كامل ، يوصل الى القرب الشامل ، وهو قرب مكانة لا قرب مكان ، فانه تعالى كما يقول السادة الصوفية :

« يتقدس عن الحدود والأقطار ، والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل ، فقرب هو فى نعته محال ، وهو تدانى الذوات ،وقرب هو واجب فى نعته ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فىوصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللطف » .

وقرب الفضل باللطف هذا هو مقام فى التصوف يتصل المؤمن فيه بربه ، بالروح لا بالبدن ، ولا تتسع العبارات للتعبير عنه ، وقد قال عنه الامام الغزالى « يضيق نطاق النطق عنه وكل ما أقوله لكم عنه :

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ويزيدنا شيئا من الافصاح عنه أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على فيقول :

قد شربنا من حبه فسكرنا   وعرفنا من أين نأتى الجوارا
ودخلنا دار الكرامة نروى   بيقين الهدى وكنا حيارى

اعـــذرونا اذا نهيم فانا | في ديار الهوى خلقنا اسارى
وترانامن حيث نشرب في الكأس | سكارى ولم نكن بسكارى
تتحلى بالعلم في كـل ناد | ونرى بالتقى علينـا ازارا
فقلوب مثل الكواكب فينا | تظهر النور فهو لا يتوارى

ولسيدى محيى الدين بن عربى (الذى يرميــه الحــاقدون بأنه من أهل الحلول والاتحاد) ، قدس الله سره ، كلام نفيس فى ذلك المقام يقول فيه : ومن أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضـهم أن نعلم عقلا أن القمر ليس فيــه من نور الشــمس شيء ، وأن الشمس ما انتقلت اليه بذاتها ، وانما كان القمر مجلاها ، فكذلك العبد ليس فيه شيء من خالقه ولا حل فيه (باب ٢٥٢ من الفتوحات المكية) ، وكـذلك جاء فى شعره ما ينفى الحلول والاتحاد الذى ينسبه اليه أعداؤه فيقـول رضى الله عنه :

ودع مقالة قوم قال عالمهم | بانه بالاله الواحـد اتحدا
الاتحــاد محال لا يقول به | الا جهول به عن عقله شردا
وعن حقيقته وعن شريعتــه | فاعبد الهك لاتشرك به احدا

وكان سيدى على وفا — رضى الله عنه — يقول :

المراد بالاتحاد حيث جاء فى كلام القوم فناء مراد العبد فى مـراد الحق ، كما يقال اتحد فلان وفلان اذا عمـل كل منهما بمراد صـاحبه ثم أنشد :

وعلمـك أن كل الأمر أمرى | هو المعنى المسمى باتحاد

وكان سيدى على البيومى — رضى الله عنه — يقول :

كل له ورد يكون وسيلة | لمعاشــه ومعــاذه ومعــاده
وجعلت وردى فى الخروج عن الورى | وأكون مع مولاى تحت مراده

أما الاخــلاص فهو السر الذى يودعه الله قلب من أحب ما عبــاده الذين قال فيهم « يحبهم ويحبونه » ويترقى المؤمن فى صلته بربه ، على

قدر ما وهب من ذلك الاخلاص الذى أودعه الله فيه وقسمه له ، « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

والصدق هو سلم الترقى الذى يستند الى الاخلاص ، وقد قال تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ، كما قال تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » . وقد جاء الحض عليهما فى الكتاب والسنة ، ويشير الى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل — رضى الله عنه — فيقول الهاما :

ماكل من دخل الطريق أخو هدى	أو كل من صب المدامة ساق
كم عالم فى نفسه مرض العلا	لم ينتفع بمكارم الاخلاق
الصدق والاخلاص أسباب الهدى	يا مدعى التقوى بلا استحقاق
احفظ مقام الناس واترك عرضهم	حتى تنال مواهب الخلاق
انا لى من القرآن خير معلم	ومن الحديث منابعى ومذاقى

وأنت ترى من البيت الأخير أن التصوف يجب أن يقوم على الكتاب والسنة ، ولذلك قال السادة الصوفية اذا رأيتم الرجل يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة .. وقال الامام الجنيد — رضى الله عنه — علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

ويطلب — رضى الله عنه — العون من ربه ، وهو يجاهد فى سبيله، ويتشرف بالانتساب اليه تعالى فيقول فى الهامه :

أسعى لخلاقى واقصد وجهه	وعن المسير اليه لن اتخلفا
يا مالكا روحى ومانحها الهدى	انظر الى فأنت أكرم من عفا
ان قيل من قلت امرؤ فى ربه	ساع وهذا فى انتسابى قدكفى
لا والذى غمر العباد بفضله	انى بغير الله لن اتشرفا

أما اخلاص الاستاذ المربى لتلميذه الناشىء ، فهو من حنان الأبوة الذى يلقاه الأبناء من آبائهم ، وقد كان شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى دائم العطف على ، والاحسان الى ، وكان يسره مايسرنى، ويؤلمه ما يؤلمنى ، ومن عنايته بى وجهنى الى آخذ حذرى من نفسى التى

بين جنبى ، وأسر لى فيما بينى وبينه ، حكمة مأثورة عن السادة الصوفية يقولون فيها « لا يدخل حضرة القدوس أحد من أرباب النفوس » .

وكأنما نقشها — رضى الله عنه — على قلبى ، فهى لا تبـارحنى ، وكلما همت نفسى أن تخادعنى أذكـرها بتلك الحـكمة الغالية ، فأكسر نخوتها ، وأدعو لسيدى الشيخ بالرضا والرضوان ، ورضـوان الله عن سيدى الشيخ على اذ يقول فى الهامه :

آفة النفس أن تظن بها الخير ولا تعطى للمعـلم حقـه
درجات الرجـال لا يقتنيهـا غير من ذل وهو ينكر سبقه

ويقول كذلك فى ضبط النفس وانكسار القلوب لله تعالى :

يا مريدا للنفس معنى علاها احفظ النفس بالتقى من أذاها
واقصد الله وحـده وتواضع ان فضـل الاله لا يتنـاهى
أحزم الناس من اذا نال رزقا عاش بالذل وهو لا يتباهى
قد صدقنا الرحمن سرا وجهرا ونفينا الأمثـال والأشباها

ويقول أيضا :

نحن فى عالم اليقين رجال قد غسلنا نفوسـنلم ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم انما نحن فـوق ذاك شربنا
أجد الذل أقرب الباب الى الله لهذا عن العبـاد افترقنا
ان قلبا يعيش بالذل للنـا س يعيش الحيلة منهم معنى
أيها المستجير بالله طهـــر قلبك العمر من سوى الله تغنى
انما الحب رغبة فاتبـــاع ففنـاء من البقاء فيه معنى

وما يشير اليه — رضى الله عنه — بقوله : « انما نحن فـوق ذاك شربنا » هو السر المكنون بينهم وبين بارئهم وواهبهم — جل جلاله — ويقول القطب الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى فى مقام هؤلاء الخواص « أما طريق الخاصة فطريق مسلوك تضمحل المعقول فى أقل القليـل من وصفه » وقد جاء فى وصف سيدنا الخضر — عليه السلام — « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

وهى آية من كتاب الله تشهد بالعلم الوهبى للخواص من عباد الله ، وحرص سيدنا موسى — عليه السلام — على الانتفاع من هـذا العـلم الباطنى فيه دليل شرعى على وجوب طلب علم التصوف من أهـله الذين خصهم الله برحمته •

ويقول كذلك فى سعيهم اليه تعالى على صراط الشرع الشريف :

أطوف وأسعى بالعبادة صادقا ... وانى بغير الشرع لا أتعبـد
وان أنا بالأرض اتخذت مساجدى ... فقلبى لنور الله بيت ومسجد
وان يعبدوا خوفا عبدتك رغبة ... ولى لذة فى رغبتى تتجـدد
واسبغ ثوب الذل فوقى لعلنى ... أرى يوم ألقى الله ما أنا أقصـد
فقلبك أدبه عن الناس كلهم ... ولا تعترض عبدا مسالكه دد
فكم مذنب قد صادفته عناية ... فعاد وقورا بالمتابة يسـجد
وكم طائع قد غره سهد ليله ... فظن العلا فى نفسه وهو مبعـد
ومن لم يعلم نفسه قبل غيره ... فليس له نصح يراد ويحمـد

وهذا البيت الأخير عبر عن معناه السادة الصوفية الأقدمون بقولهم: من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز •

وهذه حقيقة لا شبهة فيها ، فان نجاح شيخ فى التربية لا يـكون الا بعد تهذيب نفسه ، فيعطى من تهذيبه لتلاميذه الدروس العملية قبل الدروس الكلامية ، فاذا صار التصوف رسما بلا عمـل ، بقيت القلوب على آفاتها النفسية فلا تغنى أصحابها شيئا فى كسب آداب الخصـوص حتى لو سلمت أجسادهم من العلل الصحية ، والتصوف يقـوم على تربية القلوب والوجدان بهمة لا تعرف الملل ، وبجد يضعف الركبتين ويحـزن القلب ويدمع العين ، ولهذا يقول سيدى الشيخ على رضى الله عنه :

وما التصوف قول قد نزخرفه ... بل التصوف قلب قد وهبناه
أمسى على أرق اشتاق فى حرق ... بالدمع فى غرق قصدى محياه

ويقول فى وصف الصوفية :

رجال ولـكن علا قدرهم — تبارك من لهمو قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسى — وهم عند ربك نور الغسق
ونارهمو فى النعيم المقيم — فيا عجبا جنة فى حـرق

ويرى السادة الصوفية أن الانسان انما يكون انسانا بنفسه المهذبة العابدة الذاكرة الشاكرة الراكعة الساجدة المتصلة بربها الذى خلقها لعبادته فاذا لم يكن على صلة عامرة بربه ورابطة طاهرة بيقينه فيه — سبحانه — فلا يعتد به وان كان جسده فى صورة انسان ، ويقول بعض صوفية الفرس فيما ترجمه الى العربية صديقى فضيلة الشيخ الصاوى شعلان :

اذا الورود خلت من طيب نفحتها — فلا تزاحم بها فى الأرض بستانا
اذا الوجوه خلت من نور سجدتها — لم تستحق غداة الموت أكفانا
اذا القلوب خلت من ذكر خالقها — فهى الصخور التى تحتل أبدانا
اذا خلا المرء من فهم ومعرفة — ظلمت نفسك لو تدعوه انسانا

وأبلغ مما قاله القائلون جميعا فى وصفهم ما سجله الحق تشريفا لعباده الصالحين فى آخر سورة الفرقان ·

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » الى قوله تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما »

الصلة الروحية بين التلميذ وشيخه عند الصوفية

— ٦ —

« ان قلت أنا مشتاق ، والشوق شديد فليس هذا معنى ما تقاسيه الروح من ألم ذلك الشوق ، انما أترك الأرواح تتناجي ولها الله سبحانه وتعالى وهو الذى يعلم السر وأخفى » .

لم تقف هذه العبارة التى كتب لى بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، عند بث الشوق لتلميذه ، بل تعدت هذا الأفق الى آفاق أبعد وأعمق ، ذلك بأنها دلت على تجاذب الأرواح ، الذى يكون بين الشيخ وتلميذه ، ويكون للشيخ فيه سلطان الأبوة ، وللتلميذ تلقى الأبناء فى الله وهو سلطان قوى ، لا تدرك آفاقه الا بالتجربة العملية ، ويقرب لنا وصفه ، سيدى القطب ابن عطاء الله السكندرى فى قوله رضى الله عنه :

« وليس شيخك من سمعت منه ، انما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته ، انما شيخك من سرت فيك اشارته ، وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك حتى وصلت اليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة ، وقال لك : ها أنت وربك » .

فالشيخ اذن هو النائب عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تهذيب الروح وصقلها ، ببث الآداب النبوية ظاهرها وباطنها فى قرارة النفس ، حتى يعرج المريد « التلميذ » فى معارج الخواص ، المراعين أنفاسهم مع الله سبحانه وتعالى ، فيكون ممن ينطبق عليهم قوله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

وقوله تعالى :

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

والأخذ عن شيخ عارف بالله ، أمر ضرورى فى التصوف لكسب اليقين ، وقد جاء فى الحديث الشريف « تعلموا اليقين » أى جالسوا أهل اليقين ، وكل بيعة حصلت بعد النبى صلى الله عليه وسلم هى تجديدلبيعته صلى الله عليه وسلم ، والعارفون بالله نواب عنه صلى الله عليه وسلم فى تعليم الناس آداب الدين الظاهرة والباطنة ، والآدلب الباطنة أصعب منالا من الآداب الظاهرة ، لأنها تحتاج لمعترك خفى بين المرء وهوى نفسه وشيطانه ، وغرور الدنيا الخداعة ، وآفاته القلبية من الحقد والحسد والعجب والرياء والنفاق .. الخ ومن طلب طريق القوم بغير امام عارف بالله ، تاه فى أول قدم ، وكفى شرفا لطريقهم النورانى ، ان سيدنا موسى عليه السلام وهو من المرسلين أولى العزم ، طلبه من الخضر عليه السلام وقال له :

« هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » .

وهذا أقوى دليل على وجوب طلب التصوف « وهو علم آداب القلوب » من أهله .

ويشير الى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فيقول :

اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى ... يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه ... سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها ... على موجة التيار مانورها يسرى

وقد كنت أجالس شيخى رضى الله عنه فلا يكلمنى لسانه ، وانما يناجينى حاله ، فكنت أحس باحساسه فى بعض الأحيان ، ومن أعجب ما وقع لى من ذلك انى جلست اليه مرة ، فأحسست برعب شديد كاد أن ينخلع له قلبى ، والشيخ صامت ، وهو جالس على مقعد فى مقابلتى ،

وخيل الى أن الدقائق صارت أياما ، كما خيل الى أن رضوى على كتفى ، وما شعرت حتى اضطربت أعصـابى ، وارتجت أركانى ، ولا أدرى من سر ذلك شيئا ، وبعد نحو ربع ساعة نطق الشيخ مخاطبا لى ، ولم يكن معنا أحد ، وقال لى : أتدرى فى ماذا كنت أفكر ، وكأنما فنس عنى كربتى فى التحدث الى ، فقلت : لا يا سيدى فقال : كنت أفـكر فى أهـوال يوم القيامة ، وأتصور النـار فى شهيقها وزفيـرها ، وأراها كالبركان يرمى بالقذائف ذات الحمم ، فيقشعر جلدى ، وتكاد من خوفى تزهق روحى ، فقلت رحمنا الله واياك من شرها ياسيدى ، والله لقد كشفت عن سر ما كنت أنا فيه من الهلع ، فقد أحسست باضطراب هد كيانى ، وعرفت الآن السر الذى خفى على ، فانت كنت فى مقام الخوف ، وتعداك الى تلميذك ، وما عهدتك فى ذلك المقام قبل اليوم ، بل كنت أرى فى مجالستك أنسا وسرورا ينسينى أهلى وأعمالى ، ثم سكت وسكت ، ومن السكوت أحيانا خطاب وبيـان •

وكذلك وقع لى من مثل هذا معه ، انى دعوته ليتناول عنـدى طعام الغداء مع بعض اخواننا ، فتفضل وأجاب الدعوة ، وكنت معتادا أن أدعو معه شخصا بعينه كان يلازمه كثيرا ، فوجدتنى منصرفا عمدا عن دعـوته معه هذه المرة ، بسبب خفى عنى ، واستغربت انصرافى هذا ، فـكاشفت شيخى رضى الله عنه بما وقع لى ، فقال « عملت طيبا ان فـلانا هذا يظن الآن انى بغيره لا أستطيع أن أتحرك » فقلت لا حول ولا قـوة الا بالله ، ورأيت من التجربة العجيبة التى كان سرها خافيـا على حتى كشف غطاءه شيخى رضى الله عنه — مصداق قوله تعالى فى أوليائه « لهم ما يشـاءون عند ربهم » . فقـد صرفنى الله بدافع قلبى لا أدريه عن دعوة من لا يود شيخى أن يكون معه فى الدعوة ، ومن مثل تلك الوقائـع فهمت معنى ما يقوله السادة الصوفية : حال واحد فى ألف خير من كلام ألف فى واحد

ذلك جانب تناجى الأرواح بين الشيخ والمريدين ، بقى جانب آخر ، تضمنه عجز العبارة وهو الذى قال فيه رضى الله عنه : « ولهـا الله الذى يعلم السر وأخفى » وهو توجيه صوفى ، يقوم عليه التصوف كله ، فرقابة

الله ، تقتضى أن يخشى المريد ربه فى سره كما يخشاه فى علانيته وزيادة ، لأن الخشية فى العلانية ، قد يكون مراعيا فيها جانب الناس ، من الحكام وغيرهم ، أما السر ، فيكون بينه وبين ربه الذى لا يخفى عليه خافية .

وقد قالوا من رجع عن المخالفات خوفا من عذاب الله فهو تائب ،ومن رجع حياء من نظر الله فهو منيب ، ومن رِجع تعظيما لجلال الله فهو أواب.

ويعجبنى فى هذا المقام قول المرحوم السيد اسماعيل صبرى ، وهو الهام صوفى جميل :

يا رب أهلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب الحليم ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عـــالم الأسرار

وها هو ذا شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل يرينـا كيف يطهر المريد قلبه ، ويصحح باطنه ، ليكون مهبط أسرار الله تعالى فيقـول رضى الله عنه :

يا أيها السارى لخلاق السما وفقت جاهد فى فؤادك واحتف
واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى حافظ عـــلى آياته بتلهف
وانهض بروحك نهضة قدسية ولسنة المختار فى السـير اقتف
وأحب ما فى هــذه الدنيا التقى من حـاد عنـه ليس بالمتعفف
ان المحب اذا صفت أخـلاقه مـع ربه لمنـامه لم يألف
لا تذكر البارى لقصـد ولاية أو أن تكون على السما لاتنطفى
اذكر لوجه الله جـل جـلاله من رام غير جنـابه لم يشرف
من كان نور الله مـلء فؤاده عيب عليـه النـوم بعد تعرف
يا قلب كن مع ربك البارى على ثقة وايمـان وحسن تصرف

كما يقول أيضا فى العشق الخفى ، الذى يراه الله ولا يراه الناس :

ليس بالعـاشق مـن فى قـومه بالعشـق يفخـر
انمـا العـاشق من فى قلبه للعشـــق أضـــمر

لا نريد النـــــاس يوما حبنـــــا لله يـــؤثر
قـــــد وزنا كـــل شيء بقـــلوب تتــــذكر
فتركنـــا الخـــلق لله ورب الخـــلق أكبـــر

ويصف لنا رضى الله عنه باطنـــه الذى يركن فيه الى الله وحـــده فى الشدة وانرخاء فيقول :

فتشت كل الخلق عن عـــلم فلم أر لى سوى رب السما من وال
فتركت كل العـــالمين وجئته وجعلت ذكـــرى ذاته منوالى
يا رب قلبى قد غسلت من الورى اذ ليس غيرك ما ذكرت ببـــالى
ان مر بى عصف الزمان وقصفه —والله— لست بما شهدت أبالى
أأحبه وأخاف سطوة غيـــره هذا وحقك لا تعيه خصـــالى
روض المحبة قد شـــهدت جلاله وجمـــاله فثبت فى أحـــوالى
يا نفس انى لا أمالىء غيـــره قومى الى حوض الكريم تعالى
ان الذى فهم المحبـــة قلبـــه لم يتجـــه يومـــا لآل زوال
ســـلم لربك أمره واترك له أقـــداره واحـــذر من الأقوال
وذر العبـــاد وشأنهم وفعالهم ان كنت مرتادا بلوغ كمـــال

ويقول مذكرا بأمر الآخرة ، وتحصيل الطاعات فى الدنيا قبل الرحيل منها ، ويحذر من اهمال جانب الآخرة ، بمظاهر الدنيا الفانيـــة ، مبينا أن المال الذى يحصله المرء فى الدنيا لخدمة الدنيا ذاهب لغيره لا محالة ، وما يحصله من مال فى الدنيا ليخدم آخرته ، يبقى له أنيسا فى قبره :

خل عنك الدنيا ان من خدموها خـــدعتهم والذنب للخـــدمات
عبدوها بانها خير جـــاه بئس جاه نما على السيئات
وتنادى العبـــاد فى كل يوم احـــذرونى وجانبـــوا غدراتى
تتـــرك المـــال للوريث ولكن تؤنس القبر تركة الصالحات
ان من يفقـــه الحقيقة يدرى انما كان كاســـب الاوقات
ذاكرا شـــاكرا مقـــدم بر ساهرا جانحا عن الشـــهوات
مستدرا فيض الاله عليـــه مستقيما مـــلازم الحسنات

قائمـا فى عبـادة الله يقظان قوى الفؤاد أهـل الثبـات
ذلك الحى فى الرجال عليه يوم أن مات أعظم الرحمات

وما أروع التجاءه الى الله فى غفران ذنوبه مع خوفه الباطنى منـه سبحانه :

لم يفتنى تذكر الذنب يوما ان ذنبى يطيـل من حسراتى
أنا والله لا أخاف سـوـاه كل من فى الوجود عبد الذات
لم أر العصمة التى زعمـوها انما الذنب مظهرى وسـماتى
دون ذنب ما كنت أدرك عفوا ان عفو الاله أزكى صـلاتى
رب هبنى رضاك سرا وجهرا واعف عنـا يا غافـر الزلات

اللهم ارض عن مشايخنا فى الله ، وألحقنا بهم فضـلا وكرما ، فاننا مؤمنون بك وقد قلت وقولك الحق « والذين آمنـوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » .. آمين .

— ٧ —

كنت قد كتبت لسيدى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه أن بردا أصابنى فى سفر فكتب لى — أعلى الله قدره فى الأولياء — يقول :

وقد آلمنى ألمك الذى رافقك من سفرك — شفاك الله وعافاك — واحترس أخى من هواء الخريف لأنه لطيف و لايخاف الا من اللطيف كما قال بعض الحكماء :

احــذر أخى هــوا الخريف فانه
مســتعذب مســتلطف خطــاف
يجــرى من الأجســام جرى عروقها
بلطــافة ومــن اللطيف يخــاف

وأنت تراه قد تألم لما تألمت منه ، ودعا لتلميذه بالشفاء والعافية ، ثم لم يفوت الفرصة فى توجيهى لما ينفعنى فى دينى ودنياى ، فحذرنى أولا من هواء الخريف ، بأسلوب رقيق كما تــرى ، وزاد على ذلك نصــيحة صوفية رقيقة ودقيقة ، جاءت فى عبارته ، ولا يخــاف الا من اللطيف ، وأيدها بحكمة شعرية قديمة .

ولنفهم أولا معنى اسمه تعالى « لطيف » ولقد تفضل رضى الله عنه فشرحه لى ذا تمرة فى مناسبة من المناسبات وقال لى أن معناه « مصور الشىء فى قالب ضده » فرجوته أن يزيدنى شرحا وتوضيحا فقال لى : يخرج الطفل من بطن أمه فترى له جمالا فى الخلقة ولو أنك تفكرت فى سبب الخلقة لوجدته ماء مهينا ، خرج من بين الصلب والترائب ، فتحول هذا الماء المهين فى أطوار متعددة الى أن صار بقدرة الله بشرا سويا ، ذا تقويم حسن وشكل جميل ، أرأيت كيف حول الله الماء القبيح فى بدايته

الى طفل وسيم فى النهاية ، فتطور بقدرة الله من القبح الى الجمال وذلك يدل على أنه تعالى لطيف ، وكذلك سجن سيدنا يوسف عليه السلام بفرية افتريت عليه ، وكان السجن مهانة وشدة صبر عليهما بضع سنين، وقد آثر عليه السلام السجن فرارا من معصية الله ، حين ناجى ربه قائلا « رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » فلما أراد الله له الفرج خرج من السجن حاكما لمصر ، وجاء بأهله من البدو ، وجمع شمل الأسرة بعد الفرقة ، فتذكر فضل الله عليه فى كل هذا ثم قال عليه السلام (ان ربى لطيف لما يشاء) فجعل الله له من المحن منحا ، وذلك من لطفه سبحانه .

ومقام الخوف عند السادة الصوفية من مقامات اليقين الأساسية ، لكنهم يقرنونه بالرجاء ، حتى لا ييأس المريد من رحمة ربه ، فيكون فى سيره الى الله ، بين الخوف والرجاء ، أشبه بالطائر الذى يطير بجناحيه معا .

ويقول فى ذلك العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

لاتيأسوا من روحه ... فاليائسون كفره
أو تأمنوا من مكره ... فالآمنون فجره
بين خوف ورجا ... تعبد نفس حذره

ويقول أيضا :

يارب أنت علمتنى ... لم تخف منى خافية
سقمى يزيد وانما ... آيات عفوك شافية
أنا مذنب واحسرتى ... أنا ما نسيت حسابية
بل خائف يأتى الحساب ... وما أمنت عذابيه
كنف المهيمن دائما ... بين الورى أوفى بيه
مهما فعلت فاننى ... راج جزيل ثوابيه

ويتشبث رضى الله عنه برحمة الله ، ولا يستند الى عمل من أعماله فيقول :

فتشت أعمالى الحسنى فوا أسفى ... لم ألق من حسن يدنى لعقباه

هجرت كل مرام غير رحمته ... (فانها حسناتى يوم القاه)

وها هو ذا سيدى العالم العارف بالله ، الشيخ أحمد الحلوانى والد شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما يجمع بين الخوف والرجاء فى قصيدته المسماة المستغفرة فى قوله :

يا ويلتا من ذنوب ... فجورها مفجور

ومن خطاى اللواتى ... الى الخطا تستطير

وآه من كل اثم ... عليه يطوى الضمير

ومن مقاصد سوء ... جرى بها التعبير

ومن خطيئات خطى ... وما حوى التسطير

ومن ومن لست أدرى ... فذاك شىء كثير

قبائح كنت فيها ... أسرى وطورا أسير

سررت منها زمانا ... وغمها مذخور

نسيتها ووعاها ... كتابى المسطور

ماذا أقول لربى ... اذا بدا التحرير

يا رب أنت رحيم ... وبالسماح جدير

يارب أنت عفو ... وأنت رب قدير

يارب أنت كريم ... والعبد عبد فقير

يا رب انى حقير ... جدا وأنت الكبير

وشأن من جل يغضى ... اذا أساء الحقير

وأين ترب خسيس ... من ربه يامجير

وما أريد احتجاجا ... عليك بل أستجير

أجر عبيدك يا من ... سواه ليس يجير

مالى سواك أغثنى ... وهل سواك نصير

ولى اليك شفيع ... بدر الظلام المنير

غوث الأنام المرجى ... اذا السماء تمور

به توسلت فاجبر كسرى فانى كسير
واسكب عليه التحايا ما فاض منه النور

وكلامه رضى الله عنه يشع بنوره الفياض ، كيف لا وهو من الهام عالم عارف بالله ، قد امتلأ ، قلبه من محبة الله وهداه ، ويتعلق أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل بعفو الله فيقول رضى الله عنه :

من ظن أن عطاء الله عن بدل واستكثر العفو منه ضل مانجحا
زادت ذنوبى لكن ما استجرت به الا وجدت مقام العفو قد وضحا
ان نام قلبى من الزلات فى ظلم فانه بضياء العفو منه صحا
الذنب يحزننى والعفو يفرحنى فاعجب لكاسب ذنب ينتشى فرحا

وما أروع المقابلة فى كلامه المبارك فى الأبيات السابقة — ويغلب رضى الله عنه الرجاء على الخوف فيقول فى الهامه البديع :

من ينادى الكريم عجزا وذلا قد أجاب الكريم فضلا نداه
ان علمتم أن الاله كريم أتراه يرد من ناداه
لو بأعمالنا نكافأ ضعنا انما عفوه وحسن عطاه
ان رجونا فالرجاء من العبد جميل اذا دعا مولاه
رب رفقا بمن أتاك ضعيفا حاملا ثقله كثيرا أذاه
ان ربى بما تقرر أولى لا يرد الضعيف ان ناجاه
أنا باك ولست يوما بشاك كيف أشكو والقلب حل حماه

ومع الرجاء فى الله يدعو رضى الله عنه الى الجهاد فى سبيل الله فيقول :

أتحب أن تعلو بغير مشقة لولا المشقة لا ينال علاه
جاهد تنل واصبر تفز واصدق تسد واسهر تذق واعبد يهبك عطاه
يا أيها الاخوان هل من ذاكر عهدا مضى كنا ضياء سماه
كنا أولى أدب وفينا حكمة الفرد منا كوكب بسناه
كنا نقوم على رضا كنا نسير على تقى كل يحب أخاه

ما بالنا شيطاننـــا فى يومنـــا غلب الجميــع وما يــرد عنــاه
فيقول لى أنت المحــــب وينثنى لســــواى يمدح أنت كنز حماه
إعودوا بنــا لليل نسهر بالهــدى فالليل يكشف للمريــد غــطاه
أننــــام ليلا ثم ندعى ســـادة هــذا الضلال البحت وا أسفاه
لا تطمئنوا للحيــاة وصـــفوها فالصــفو قبــل الموت ما أرداه
لا تركنوا للنــوم فى أيامـــكم فالنــوم للمشــتاق بــدء جفاه
سر يا مريد على المبادىء صادقا للمنتهى حتى تنـــال لقـــاه

والخوف يبعث على تقوى الله اتقاء لغضبه وبالتقوى يتخذ المؤمن ربه صاحبا ، ويدع الناس جانبا ، والى اخوانى القراء مثــلا من تفــكير السادة الصوفية ، فيما يقربهم الى الله ، ويدعوهم الى المجاهدة فى سبيله والاعتماد عليه فى جميع أمورهم :

روى أن حاتما الأصم كان تلميذا لشقيق البلخى رضى الله عنه فقال الشيخ لتلميذه منذ كم صحبتنى ؟ قال منذ ثلاث وثلاثين ســنة قال فما تعلمت منى فى هذه المدة ؟

قال ثمانى مسائل ، قال شقيق : انا لله وانا اليه راجعون ذهب عمرى معك ولم تتعلم الا ثمانى مسائل فما هى ؟ قال : الأولى .. نظرت الى هذا الخلق ، فرأيت كل واحد يحب شيئا فلا يزال محبوبه معه ، فاذا ذهب الى قبره فارقه فجعلت الحسنات محبوبى ، قال أحسنت فما الثـانية ؟ قال : نظرت فى قول الله عز وجل « وأما من خاف مقــام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » فعلمت ان قوله تعالى حق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

الثالثة .. انى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل من له شىء له قيمة وله عنده مقدار يحفظه ، ثم نظرت فى قول الله عز وجل (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فكلما وقع لى شىء له قيمة ومقدار وجهته الى الله تعالى ليبقى لى عنده .

الرابعة : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع الى المال والحسب والشرف والنسب ، فنظرت فاذا هي لا شيء ، ثم نظرت الى قوله تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » فعمدت الى التقوى حتى أكون عند الله كريما .

الخامسة : نظرت الى هذاالخلق فوجدتبعضهم يطعن فى بعضويلعن بعضهم بعضا ، فعلمت أن أصل ذلك كله الحسد فنظرت الى قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) فتركت الحسد وعداوة الخلق وعلمت أن الذى قسم لى كائن لابد منه .

السادسة : نظرت الى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويعادى بعضهم بعضا فنظرت الى عدوى فى الحقيقة فاذا هو الشيطان وقد قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) فعاديته وأحببت الناس أجمعين .

السابعة : نظرتالى الخلق فوجدتهم يطلبونالكثرة ويذلون أنفسهم بسببها ، ثم نظرت الى قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) فعلمت أنى من جملة المرزوقين فاشتغلت بالله عز وجل وتركت ما سواه .

الثامنة : نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم يتوكل بعضهم على بعض ويتوكل هذا على تجارته ، وهذا على صنعته ، وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق يتوكل على مخلوق ، فرجعت الى قوله عز وجل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت على الله عز وجل فقال الشيخ لتلميذه ، وفقك الله يا حاتم فقد جمعت الأمور كلها .

اللهم انا نخافك ، وأنت الغفور الرحيم ، ونخافك وأنت القهار ذو البطش الشديد ، فاجعلنا يا الهى فى خوفنا من الراجين ، وفى رجائنا من الخائفين ، ليمتزج خوفنا ورجاؤنا فانا لا نخاف الا من نرجوه ، ولا نرجو الا نخاف ، وقد سبقت رحمتك وجودنا ، ومغفرتك ذنوبنا ، وان خوفتنا فمن رحمتك بنا ، وان أطمعتنا فى رحمتك فمن احسانك الينا ، فعاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك فانك قلت وقولك الحق « ان ربك واسع المغفرة » .

فضل مولانا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومدده

— ٨ —

« وأني أسأل الله لكم ولنا التوفيق والرضا وأن يجعل وجهتنا اليه ، وأن يفتح لنا طريق الخير ، وأن يمدنا بنور من نور نبيه صلى الله عليه وسلم حتى نسلك سبيله القويم ، وأن يجعل فرحنا به خير ما نلقاه به يوم القيامة ، انه سميع الدعاء » .

ويرى أخي القارىء الكريم في كلام شيخي العارف بالله سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني رضي الله عنه ، مشرب السادة الصوفية الأكابر ، في التبرى من الحول والقوة ، والركون الى الله تعالى فيما يحتاجه العبد للفلاح ، من التوفيق ، وعون الله ، والنور النبوى المبين الذى يهدى الى الله سبحانه ، مصداقا لقوله تعالى (وان تطيعوه تهتدوا) وقوله تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) ، فمن اطاعه صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ومن بايعه صلى الله عليه وسلم فقد بايع الله « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » ويرى السادة الصوفية أن هذه الآية الأخيرة هي أمدح آية في القرآن لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت يده صلى الله عليه وسلم ممثلة ليده تعالى بين العباد ، فصارت أيدى العباد في الأرض في يد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار الله في عليائه شهيدا عليهم في بيعتهم ، وراضيا عنهم فيما بايعوه عليه ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما .

كل مؤمن مبايع بايمانه لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما بايع عليه أسلافه الأولون ، لذلك كان مولانا رسول الله صلى الله عليه

وسلم أبا للأرواح المؤمنة ، وله على المؤمنين حرمة الأبوة ، كما أن أزواجه الطاهرات – رضوان الله عليهن – لهن حرمة الأمومة ، فحرم الله نكاحهن من بعده ، تأكيدا لهذه الحرمة ، وذلك بنص صريح فى القرآن كما هو معلوم ، ويوجب السادة الصوفية الاكثار من الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعظم فضلها ، وكثرة نفعها للمصلى ، ورأيت فى بعض مزاجعهم ، أن أقل حد لها عندهم ، ثلثمائة مرة فى اليوم ، ويقولون فى تبرير الاكثار منها أنه تعالى أبرز فضلها فى قوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وهى آية تدلنا على أنه سبحانه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة يصلون عليه ، فأراد الله تعالى أن يصلى عليه أهل الأرض ، كما يصلى عليه أهل السماء (ان فضله كان عليك كبيرا) وكان هو صلى الله عليه وسلم يصلى على نفسه امتثالا لأمر الله تعالى ، وليتأسى به المؤمنون .

ويقول العارفون ليست الصلاة عليه شفاعة منا له صلى الله عليه وسلم ، ولكنها مكافأة لمن أحسن الينا ولأننا عاجزون عن مكافأته على احسانه وجب علينا أن ندعو له فتكون صلاتنا عليه مكافأة باحسانه ، ولا نعمة أفضل من نعمة الايمان التى جاءتنا على يديه صلى الله عليه وسلم ، واذا كان الحق سبحانه شرفه بالصلاة عليه مع ملائكته فماأخجلنا ان فرطنا فيها ، كأنه تعالى يقول لنا ان صليتم عليه كسبتم خيرا لأنفسكم لأنه غنى عن صلاتكم بصلاتى عليه وكفاه غنى بها .

وقد كان بعض السلف الصالح يتوددون اليه صلى الله عليه وسلم بقربات أخرى الى جانب الصلاة عليه ، لعلمهم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ويثيب عليها ، ومن ذلك مثلا ، ما رواه الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه فى كتاب قوت القلوب من أن الامام على بن الموفق رضى الله عنه حج حجات عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه صلى الله عليه وسلم يقول له يا ابن الموفق حججت عنى ؟ قال قلت نعم يا رسول الله ؟ قال ولبيت عنى ؟ قال قلت نعم يارسول الله ؟ قال له صلى

الله عليه وسلم : هذه يد لك عندى أكافئك بها يوم القيامة ، آخذ بيدك وأدخلك الجنة ، والخلائق فى كرب الحساب . فيافوز أهل المودة ، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه آمين .

وفى مناسبة قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) يعجبنى ما يقوله السادة الصوفية فى المتشابهات ، فهم يقولون جاء فى كتاب الله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وجاء (بل يداه مبسوطتان) وجاء (والسماء بنيناها بأيد) ونحن نؤمن بها كلها على ما أراد الله منها — وهم لذلك لايؤولون المعانى كما أولها بعض العلماء من الخلف .

ولما كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا للأرواح المؤمنة فهو الأسوة الحسنة لأبنائه ممن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، ولا يصل المؤمن الى ربه الا من بابه ، بحسن التأسى به ، والعمل بأقواله وأفعاله وأحواله ، وصدق سيدى محمد البكرى الكبير رضى الله عنه اذ يقول :

وأنت باب الله أى امرىء أتاه من غيرك لا يدخل

والشيوخ العارفون بالله تعالى ، وقد بينا وصفهم فى المقالات السابقة نواب عنه صلى الله عليه وسلم فى الدعوة والارشاد والتهذيب الروحى ، وكل جيل مرزوق من فضل الله بأمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

ولأبوته صلى الله عليه وسلم ، أشفق على أمته شفقة الأب على أبنائه ، وحرص على ما ينفعهم وشق عليه مايؤلمهم ، فكان فى شأنهم الرءوف الرحيم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

وقد وقع لى مالم أكن أحب أن أبوح به ، لولا أنى قصدت بذلك وجه الله فى تثبيت أفئدة اخوانى المؤمنين ، أقول وقع لى ما أكد عندى ، انه وهو فى قبره الشريف حى يلحظنا ويبرنا ، ويشمل بره ، المجد منا والمقصر ، فقد كنت وأنا المقصر متشرفا بزيارته صلى الله عليه وسلم ، وحين

حان موعد السفر زرنا زيارة الوداع ، وبينما أنا قاصد الى مكتب شركة الطيران ، سمعت صوته الشريف يرن فى آذنى بهـذه العبـارة الرحيمة (شيعتكم السلامة) ولم أقرأ أو أسمع فى أية مناسبة مثلها ، فالشـائع بيننا فى الاستعمال رافقتكم السلامة ، فجاشـت نفسى متـأثرة بعاطفته الكبيرة صلى الله عليه وسلم ، وذرفت عيناى الدموع ، وما كادت السيارة التى تقلنا الى المطار تنعطف فى الشارع الذى نرى منه جبل أحـد حتى اشتد بكائى مع مغالبتى له ، وكان بكائى من رؤية جبل أحـد ، مدفوعا بتضحيات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى اقامة هـذا الدين القيم ، وقلت ورثناه سهلا ، فلم نقدره قدره ، ولم نعمل له عمل السلف الأوائل ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده بالنفس والمال .

وكنت أظن أن تلك العبارة الرحيمة انما هى توديع لزائـر تشرف بالرحاب النبوى الشريف الكريم ، واذا بالأمر يتعدى التوديع ، الى أفق آخر لاتحسه الا الروح النبوية المشرقة ، ذلك بأن الطائرة ماكادت ترتفع فى الجو ، حتى تخلخلت فى المطبات الهوائية بعنف لم أره فى رحـلاتى الجوية على كثرتها ، واذا بالقلوب تكاد تنخلع ، واذا بالقىء يشتد عنـد كثير من الركاب واذا بمساعد الطيار الأمريكى يخرج ليطمئن الناس ، ولما رآنى أتصبب عرقا قال لى بالانجليزية ابلع الهواء ، وظن أنى لم أفهمه ، فأخذ يبلع الهواء لأحاكيه ، ولكنى كنت مطمئنا على نفسى وعلى جميـع الركاب ، بالعبارة النبوية الرحيمة التى كان سماعها فى ذلك اليوم الأغر أحب الى مما طلعت عليه الشمس .

وابتهجت يومئذ من موقف سيدة مؤمنة انطلقت تقول والطيارة تعلو وتهبط فى عنف عنيف ، ودادا يارسـول الله ، ودادا يارسـول الله ودادا يا رسول الله ، وقصدت أن تتجنب عامدة كلمة وداع وهو ذوق يـدركه المحبون والمحبات فلله درها من مؤمنة ، بدل الله خوفها آمنا .

وعلى قدر التأسى به صلى الله عليه وسلم ، يقوى الارتباط به روحيا، فمن جد فى التأسى به ، جد به شوقه اليه ، واستمداده منه صلى الله عليه وسـلم .

وفى ذلك الاستمداد يقول امام المادحين الامام البوصيرى رضى الله عنه :

كل فضل فى العالمين فمن فضل ... النبى استعاره الفضلاء
أى نور وأى نور شهدنا ... يوم أبدت لنا القباب قباء
فترى الركب صائرين من الشوق ... الى طيبة لهم ضوضاء
وقرأنا السلام أكرم خلق ... الله من حيث يسمع الاقراء
وذهلنا عند اللقاء وكم ... أذهل صبا من الحبيب لقاء
ووجمنا من المهابة حتى ... لا كلام منا ولا ايماء
ورجعنا وللقلوب التفاتات ... اليه وللجسوم انثناء
يا رحيما بالمؤمنين اذا ما ... ذهلت عن أبنائها الرضعاء
ياشفيعا للمذنبين اذا ... أشفق من خوف ذنبه البرآء
قد تمسكت من ودادك بالحبل ... الذى استمسكت به الشفعاء
وانطوت فى الصدور حاجات نفس ... ما لها عن ندى يديك انطواء
جد لعاص وما سواى هو ... العاصى ولكن تنكرى استحياء

الى أن قال رضى الله عنه وفى قوله نصيحة غالية لنا :

وبحب النبى فابغ رضا الله ... ففى حبه الرضا والحباء
كيف يصدأ بالذنب قلب محب ... وله ذكرك الجميل جلاء
هذه علتى وأنت طبيبى ... ليس يخفى عليك فى القلب داء

ومن جد به شوقه لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمد من حبه صلى الله عليه وسلم لربه وقد فاق فيه صلى الله عليه وسلم جميع المحبين لله تعالى ، حتى لقد قال العارفون ان الله تعالى عجل له صلى الله عليه وسلم الرؤية ، بلا كيف ، ليلة المعراج ، لأنه تعالى رأى بعلمه أن القلب المحمدي هو أشد القلوب شوقا الى الله فكان ماقال تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) أما سائر المؤمنين فانهم يتمتعون بالرؤية بلا كيفية عند التجلى لهم فى الجنة مصداقا لقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وتتشوف المحبة الولهانة العارفة بالله السيدة رابعة العدوية الى تلك الرؤية فتقول :

ليس قصدى من الجنان نعيما   غير أنى أحبها لأراكا

ولذلك التجلى الأقدس يشير سيدى الشيخ رضى الله عنه « وان يجعل فرحنا به خير ما نلقاه به يوم القيامة » ويقول فيه بعض العارفين شعرا :

ولله أفراح المحبين عندما   يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة   فلا الضيم يغشاها ولا هى تسأم
فيا نظرة أهدت الى الوجه نضرة   غدا كل وجه بالجمال مبسم
فحى على جنات عدن فانها   منازلك الأولى وفيها المخيم
وحى على يوم المزيد الذى به   زيارة رب العرش فاليوم موسم

أما قول سيدى الشيخ « انه سميع الدعاء » فيفيد حسن الظن بالله تعالى وهو سبحانه عند ظن عبده به ، فان ظن خيرا وجد خيرا ، وان ظن شرا وجد شرا – ألست تراه تعالى يقول للكافرين والعياذ بالله (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

ويقول العارفون ان كل دعوة عن حسن ظن بالله تعالى مستجابة قطعا لكن على الوجه الذى يريده الله ويرى بعلمه فيه الخير للداعى ، فقد يجيبه الى طلبه ، وقد يصرفه عنه لحكمة يعلمها ويبدله خيرا منه ، وقد يثيبه الله تعالى بدعوته يوم القيامه ، لأن الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة كما جاء فى الحديث الصحيح :

ولله در سيدى العارف ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه اذ يقول :

ففى افتقارى وتسآلى ومديدى   أقوى دليل على أن تقضى الأربا
لو لم تردنى لما أرجو وآمله   من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

ويكشف أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل عن حسن ظنه بالله وعن موالاة الله له فى الدنيا والآخرة فيقول رضى الله عنه :

ولنا من نور حضرته   أمل فى يوم رؤيته
قد رجونا فيض رحمته   وتلاحقنا بساحته

فلقينـــــا أطيب الأمـــل

ادخـــرنا ذكـــره عـــددا   واتخـــذنا وده مـــددا
ومـــددنا للعطـــاء يـــدا   فأفاضـــت باليقين يـــدا

خالقى فالـــكل فى نهـــل

رائـــدى فى حبـــه ســـهرى   وبهـــذا تـــم لى ظفـــرى
يا فـــؤادى كن على حـــذر   من حســـاب الله واعتبـــر

بالذى قـــد مـــر من دول

طـــول ليـــلى فى محبتكم   أتحـــلى مـــن جـــلالتكم
قـــد غرقنـــا فى مودتـــكم   واتنظمنـــا فى حمـــايتكم

فى جـــلال صيب هطـــل

يا حبيبى أنـــت محتســـبى   وتوجهنـــا بذلتنـــا
أنت يـــارب الســـما أربى   أنت ياخـــلاق منتســـبى

أنـــت لى يـــاذا الجـــلال ولى

قـــد تعـــاهدنا بمهجتنـــا   وتجملنـــا برقتنـــا
وتأهبنـــا بخشـــيتنا   وتوجهنـــا بذلتنـــا

وعن الأعتـــاب لم نمـــل

ولنـــا مـــن ربنـــا كـــرم   وعلينـــا تســـكب النعـــم
نحن بالإيمـــان نغتنـــم   وبوجـــه الله نعتصـــم

ولنـــا الاخلاص فى العمـــل

راحتى فى الحـــب وجهتكـــم   مطلبى فى العمـــر رؤيتـــكم
مقصـــدى فى المـــوت رحمتكم   قـــد دعتنى اليـــوم خشـــيتكم

لكمـــو والقـــلب وجـــل

لم تغب عنى مشـــاهدكم   طـــالما روحى تعـــاهدكم
وتـــزكينى مقاصـــدكم   وتجلينـــى مـــواردكم

فـــأرى من ضـــوئها أملى

أما نور مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى سأل الله شيخنا أن يمدنا به ، فهو نور الهدى الذى يمد به كل مؤمن من روحه الوضاءة صلى الله عليه وسلم ، لأنه السراج المنير الذى يهتدى به السالك الى ربه عز وجل (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) ويقول فيه تلميذه المبارك العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه .

دع زمانا مضى وعد بى لأرض ... شغفتنى بنورها المتلالى
بين بيداء روعت ووهاد ... وذئاب تختال فى اقبال
ونجوم مثل الحباب على الكاس ... تسامت أو كالحلى واللالى
قيل ماذا تريد من هذه الأرض ... اتبغى البقاء فى جمع مال
قلت والله غير أحمد مالى ... بعد رب العباد من آمال
ياحبيبى رضاك دنيا ودين ... نهما باتباعكم صحا لى
نفحتنى بنوركم نعمة الخير ... وقد طابت منكمو آمالى
ياجميلا ما مثله من جميل ... كان للبدر منك فضل الجمال
أنت للكون مبدأ وانتهاء ... أنت من ساقه الى الاجلال
اول النور فى الحياة وان جئت ... على بعثة ختام الأوالى
انما الكون منك كالصدف ... استوطنته درة تسود الغوالى
أنت سر الحياة بل سيد الكون ... أجرنى مما أرى من وبال
انما أنت مصدر النور من ربى ... ومعنى الرضا وباب الوصال
مدح خير الورى أحب لنفسى ... من أنيسى وصاحبى وعيالى
بل ومنى ومن جميع البرايا ... لحماه الحياة أزجى رحالى

وقد سئل رضى الله عنه أن يرتجل على البيت الآتى فجاء الهامه بالعجب العاجب ، الذى ألهب القلوب بالشوق لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك البيت هو :

المصطفى ما زال يعلو قدره ... حتى غدا فى الكون مسكا عاطرا

فكان مما ألهمه الله على الفور :

المصطفى مازال يعلو قدره فسما الزمان أوائلا وأواخرا
طهر فؤادك من شوائب غيه حتى تقابله فؤادا طاهرا
ياسيدي ولقد غدوت مناجيا عمري وبت مع الجلال مسامرا
كم من صغير جاء حيك تائبا أضحى يسود من الرجال أكابرا
لم أنس أيام الطفولة حيثما كنت المؤمل لي وكنت الظافرا
فاذا نهلت نهلت من نور الهدى واذا سكرت سكرت علما زاخرا
واذا غفوت غفوت صبا مغرما واذا أفقت رأيته لي ناظرا
أنا ان اكن جسما بعيدا انما روحي من النجوى تفيض سرائرا
لم انس حبك ما حييت وان أمت أجد الغرام على مد منابرا
أنا هائم ومن المحبة هائج كالريح قد أزجي السحاب الماطرا
فأصبفي الاحساس من مهج الورى حكما تقلبها القلوب مزاهرا
أنا كل شيء في الحياة تركته ووقفت نفسي للنبي مثابرا
والوقف لا يشرى وليس يباع في حال يدوم الى القيامة حاضرا
أنا باسمكم والى اسمكم ولو سمكم في رسمكم قلبي على الشعرى سرى

ولم يتمالك السامعون أعصابهم حين سمعوا هذا البيت الأخير فهبوا واقفين وهتفوا هتاف الاعجاب ونظرت الى وجه الشيخ فوجدته استدار كوجه القمر ، وكأنه كسى نورا من الأنوار النبوية التي وصفها سيدنا حسان ابن ثابت الانصاري رضي الله عنه (وهو شاعر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في قوله :

لما نظرت الى أنواره سطعت وضعت من خيفتي كفي على بصري
خوفا على بصري من حسن صورته فلست أنظره الا على قدر
روح من النور في جسم من القمر كحلية نسجت في الانجم الزهر

اللهم اجعلنا يا مولانا ممن أحببتهم وأحبوك وجعلت علامة حبهم لك اتباع رسولك الأمين صلى الله عليه وسلم في قولك الكريم (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم).

فضل السادة آل البيت الكرام والتبرك بهم

— ٩ —

« أما عن تخيركم الاقامة فى حى السيدة زينب ، فانها نعمت الخيرة ، ونعمت الجيرة ، وهل تكون جيرة أحق من تلك الجيرة ، جيرة أهل البيت ولك حق الجوار : الرحمة والبركة واستدرار الخير من الرحمن الرحيم ، الذى يكرم آل البيت ، ويكرم من يجاورهم ومن جاور السعيد يسعد ، فنعم ما فعلت » .

هذه لفتة كريمة من شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه يربينى فيها ، على محبة سادتى آل البيت والتبرك بهم ، ويعلمنى أن التبرك بهم ليس من الاشراك بالله كما يفهم بعض المغالين بل هو استدرار الخير من الرحمن الرحيم ، الذى أكرم آل البيت ، بأن جعلهم فى الدنيا فروع الشجرة المحمدية النامية ، ذات الظل الظليل ، والثمر الناضج الأصيل وفى الآخرة ورثة الجنة والسلسبيل ، فمن استظل بهم تمتع بعطاء الله لهم فهم القوم لا يشقى جليسهم ، وكيف يشقى بهم جليسهم وهم أمان لأهل الأرض يهدون من الضلال ، ويعصمون من الفتن ، وانعامهم على جيرانهم ، من انعام الله عليهم وقد قال تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله » ، والمنعم واحد سبحانه ، لكنه تعالى جعل الانعام بأسبابه، فمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سببا فى اسلام زيد ، وفى زواجه من السيدة زينب القرشية ، وفى عتقه من الرق ، فلا تنافى بين انعام مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين التوحيد ، بل هو التوحيد بعينه لأن العلم بأن الأسباب لا تغنى وحدها عن المسبب ، هو عين التوحيد ، فان علم الانسان منا بأن والديه هما سبب وجوده فى هذه الدنيا ليس معناه أنهما هما الخالقان ، بل الله وحده سبحانه هو الخالق ، وقد جاءت الشبهة

للمغـــالين من ظنهم أن المؤمنين يخلطون بين الأســـباب ومسبباتها خلط الشرك ، وليس هذا صحيحا ، بل الصحيح أنهم بحب الله ورسوله أحبوا آل البيت ، وباكرام الله لهم أكرموهم ، وببركات الله التى تجرى عليهم من ربهم ، تبركوا بهم ، الوحدانية لله وحده ، والعطاء عطاؤه ، والبركة منه والوسائل بينه وبين عباده قامت بتدبيره تعالى وارادته ، فخاطب عباده على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله ، وفرض صلاة الجنازة ، ليشفع البعض فى البعض ، وجعل الملائكة مستغفرين للذين آمنوا ، ليكون استغفارهم وسيلة لمغفرته تعالى ،وأمر الخضر عليه السلام أن يقيم الجدار ، ليحفظ الصالح الذى مات فى ذريته الضعاف ، ولا شك أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولى بأن يحفظه الله فى ذريته بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى من ذلك الرجل الصالح ، وكيف لا يسعد آل البيت به صلى الله عليه وسلم وقد صرف الله العذاب عن أعدائه بوجوده بينهم فقال تعالى « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ولا يخفى أن آل البيت جمعوا الى شرف النسب ، شرف العمل ، فصاروا أئمة الهدى فى كل جيل ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وانما حملنى على التمهيد المتقدم ما عمد اليه بعض المغالين من تكفير زائرى السادة آل البيت أو الداعين ربهم فى رحابهم ، أو المتبركين بهم ، وفى الزائرين علماء أجلاء وصالحون أتقياء ، وأئمة يقتدى بهم ، وينتفع بصحبتهم .

وواجب على المســـلمين أن يحموا عقيـــدة التوحيد من أى زيغ أو شطط ، وكل مسلم بحمد الله يشهد فى كل تشهد ، بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عبد الله ورسوله ، فاذا كانوا لم يشركوه صلى الله عليه وسلم مع الله ، فكيف يقال أنهم أشركوا أولياء الله مع الله ، حاشا وكلا، فذلك ليس من الحقيقة فى شىء ، واذا كنا نسمع من الجاهلين كلمات موهمة فلنعلمهم آداب الزيارة ولا نكفرهم ، والله مطلع على النيـــات ولا يأخذ عباده بظواهر الألفاظ — ألست تراه تعالى يقول « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » .

وتعال معى أيها القارىء الكريم ، أسمعك كلمات طيبات طاهرات ، شدا بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه اذيقول في سادتى آل البيت من درره وقد سئل أن يرتجل على البيت الآتى :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا   وانهم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

فقال الهاما على الفور من عطاء الله تعالى :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا   بهم نلت الخير دنياى والأخرى
لقد غرسونى من زهـور رياضهم   فطابت حيـاتى من مكارمهم زهرا
اذا قيل لى تهواهمو قلت ملكهـم   ووقف يمـين لا يبـاع ولا يشرى
ولو أن جـود العـالمين أقيسـه   على جودهم يوما لما مثـل العشرا
تسـاموا على كل الأنام فضـائلا   وقد بين القرآن أوصـافهم طهـرا
جـداول من بحـر النبى محمـد   فمـا مثلها تلقى جداول أو بحـرا
لقـد شهدت روحى حماهم ومتعت   بأنوارهم أنعم بهـا منة كبـرى
اذا عشـيت عينى فطى جـوانحى   عيـون ترينى سر أنوارهم جهـرا
وكم عاذل لى قـال كيف تحبهم وكيف لهم تسـعى وقد غيبوا قبرا
وعينـا من القرآن آية هـل أتى   صفا سعيهم لله واستوجب الشكرا
فان كـان ذنبى أن قلبى يحبهـم   فان ذنوبى لن تلم بهـا حصـرا
وعنـدى يقين أن لى باتبـاعهم   حيـاة محب باسمهم كسب الأجرا
وما أحسن الدنيا على صدق ودهم   وما أحسن الأخرى لتابعهم ذخـرا
وها أنا مشـتاق اليهم وسـائر   على حبهم أنفقت سـعيى والعمـرا
اذا اتصلت روحى بهم فى مسـيرها   تفـوز باكـرام وتسـعد بالبشرى
أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى   ولى لذة فى مدحهم تثلج الصدرا
اذا نظـرونى زال من قلبى الأسى   وان منحـونى عشت أغترف الخيرا
على بابهم أسمو سمو أولى النهى   فان هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

واقرأ أيها الأخ الكريم حسن تعليله فى ارتياد ديارهم لأنهـا ديار التجلى على أصـفياء عباده ، فيكسب المحب زيادة فى يقينه من عند أهل التجلى — فيقول رضى الله عنه من كلام طويل :

دعونى أمجـد آل بيت محمـد فانهمو نـورى وأصـل تعبـدى
همو سندى الأسمى همو مدد العلى همو قوة التقوى همو شمس موردى
دعونى فى حب الحسين وجـده أشـاهد من عليـائهم كل مشهد
أتعذلنى فى الحب والحب نعمـة اذا ذاقها المشتاق لم يتبـاعد
اذا كان حبى سبط أحمـد بدعة فانى بتلك البدعة العمر مقتـدى
ولست بنـاء عن هواهم لأننى عرفت بهم ربى فهم أصـل معهدى
وقد طال بى وجدى ولذ لى الجوى فقلبى قلب العاشـق المتـوقد
فيامانحى روح اليقين ومـوردى ديار التجلى أنت لى خير مرشـد
تجلت لى الأفراح وهى شـواهد ودانت لى الأرواح والكل قد هدى

وفى الوقت ذاته يرشد الى التعلق بالله وتوحيده سبحانه فيقول :

أخى لا تغـرنك الحياة وزيفها فمـا هى حظ الناسك المتزهـد
ودونـك أيـام أمـامك غيـرها فان زال عنك الأمس فانظر الى الغد
وحاضرك اقـرنه بماضيك عبـرة ونفسك عودها الحساب لتهتـدى
سريرتك احفظها لربك وحـده فان نقاء القلب أصـل التعبـد
واقبل على مولاك يقبل بفضـله عليـك ووجه نحوه القلب تحمد

وأنت ترى من ارشاده أن حب آل البيت لا ينافى توحيد الله وأن حب آل البيت والاهتداء بمسلكهم لله ، والتشبه بهم فى ايثار الله تعالى على ما سواه ، من وسائل تنقية السريرة لله سبحانه ، وتعليل ذلك ، انهم رضوان الله عليهم اتبعوا جدهم المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتأسوا به عن صـدق طوية ، وعلو همة ، فتخلقوا بأخلاقه ، وتحـلوا بأحواله ، واستناروا بنـوره ، وليس وراء نور النبوة نور يستضـاء به على وجه الأرض ، فالمقتدى بهم انما يقتدى بنواب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله فهو اقتداء به صلى الله عليه وسلم .

وقد قال تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » وقد ورد فى الحديث الشريف (أحبوا الله

لما يغذوكم من نعمة وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى)
ويعجبنى ما يقوله سيدى محيى الدين بن عربى :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة   على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فما اختار خير الخلق منا جزاءه   على هديه الا المودة فى القربى

وهو يشير الى قوله تعالى « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » .

واقرأ يا أخى ، ومتع نفسك ، بما وصفهم به الامام على كرم الله وجهه حين قال فى سادتنا آل البيت بحق : « هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم ،وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الاسلام ، وولائج الاعتصام بهم عاد الحق الى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل » .

اللهم انا نحب سادتنا آل البيت بحبك لهم ، وعلامة حبك أنك اخترتهم على علم ، وأذهبت عنهم الرجس فخافوك وطهرتهم تطهيرا فأحبوك ، سبحانك لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، وقد أردتهم فيما اخترت لهم ، وأنت الفعال لما تريد ، فانك القائل حقا وصدقا « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ونسألك يا الهى أن تقبل توبتنا وتغسل حوبتنا ، وأن تحشرنا فى زمرتهم تحت لواء سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، فيشملنا قولك الكريم .

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شىء قدير » .

اتخاذ الأسباب لا ينافى التفويض لله تعالى

— ١٠ —

أما هذه المسألة التى أخبرتمونى بها فلها ظروفها ، والله هو المدبر ، فليس لنا من الأمر من شىء ، انما هى آمال ولو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع ، واختيار الله لنا خير مما نختاره ، انما هى أسباب يدفع الله فى قلوبنا طلب اتخاذها لينفذ أمره .

على المرء أن يسعى الى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المطالب

وجهنى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه فى العبارة المتقدمة الى مبادىء أساسية فى التصوف هى :

١ — التفويض لله والرضا بالمقدور واتخاذ الأسباب المشروعة مع التفويض لله فى النتائج .

أما عن التفويض لله فهو من علامات تقوى المؤمن واذا بلغ المؤمن مقام اليقين بالله أيقن أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه ، وقد علمنا القرآن الكريم فيما علمنا « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » لذلك وجب التفويض للعليم الخبير الذى يضع الأمور مواضعها لعلمه بما كان وما يكون ، والغائب عنا بالحجاب ظاهر له سبحانه وتعالى ، اذ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقد يجيبنا الله الى ما نسعى له ، وقد يفوته علينا ويأتينا بغيره ، ويجب على المؤمن الرضا فى الحالتين مع الصبر علي ما فات فى الحالة الثانية .

أما الرضا بالمقدور فهو عند السادة الصوفية من مقامات اليقين ، حتى انهم قالوا اذا خيرك الله فى شىء فاياك أن تختار ، وفر من اختيارك

الى اختياره فانك جاهل بالعواقب،والصبر على ما فات من علامات الرضا بالمقدور ، كما قالوا الرضا بالمقدور نعم الوسيلة الى درجات المعرفة .

ويروى السادة الصوفية فى هذا المجال أن سيدنا داود عليه السلام نصح ابنه سيدنا سليمان عليه السلام فقال له « يا بنى انما يستدل على تقوى الرجل بثلاث ، حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات » .

أما الأسباب عند السادة الصوفية فيرون اتخاذها ولا يرونها متنافية مع التفويض ، ومن أقوالهم فى التكسب والتوكل : الكسب سنة الرسول وهو عبادة ، والتوكل حال الرسول وهو عبودية ،فهمايتلازمان ولايتنافيان وقد قال صلى الله عليه وسلم للأعرابى حين سأله أيعقل ناقتــه أو يتركها ويتوكل على الله ؟ « اعقلها وتوكل » .

وغاية الأمر عندهم أنهم يوجهون المؤمن الى الاعتماد على الله تعالى فى الرزق ، فلا يرون الأسباب الا وسيلة من وسائل عطائه سبحانه ، وليست هى الرازقة ، والسلاح يعد لقتال الأعداء بأمر الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولا يتنافى ذلك مع اعتقاد أن النصر من عند الله .

وهم يفوضون كذلك فى نوع الأسباب ويرون أن الله تعالى هو المدبر والموجه فيها والدافع اليها ليتم الأمر على ما أراد ومن ثم لا يحسدون أحدا على ما آتاه الله من فضله ففى الحسدسخط بالحال على المقدور ، واعتراض على تقدير العزيز العليم وان لم يتحرك اللسان بالمقال .

وقد وقع فى ذلك المقام حوار طريف بين الامام أبو القاسم الجنيد وتلاميذه حين قالوا له أين نطلب الرزق ؟ فقال : ان علمتم موضعه فاطلبوه قالوا : نسأل الله فيعطينا ، قال : ان علمتم أنه ينساكم فذكروه . قالوا : ندخل البيت ونتوكل على الله ، قال : التجربة مع الله شك خطر . قالوا : ما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وهو لا يقصد بترك الحيلة ترك الأسباب انما يقصد به ترك آلام التفكير الطويل الحزين الذى ينتاب أكثر الناس قلقا على أرزاقهم وأرزاق

ذراريهم ، ومن أروع ما قرأت لهم من الحكم قــولهم : كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا غير مدبر ، مرزوقا من حيث لا تحتسب ، أى انهم يقولون كيف يتكدر خاطرك من هم الرزق ، وقد رزقك وأنت جنين فى بطن أمك دون عناء فى تفكير أو تدبير ، فكيف يتخلى عنك بعد أن كبرت ، وكيف يتخلى عنك ولا رازق سواه ، وقد ضمن الرزق لعباده لئلا يشغلهم الرزق عن الرازق .

واذا تكلم السادة الصوفية عن الزهد فانهم لا يقصدون به العزوف عن الطيبات التى أحلها الله تعالى ، انما يقصدون بالزهد معانى رفيعة تدل على صفاء مواجيدهم ، فهم يقولون : الزهد هو الرضا بالموجود والصبر على المفقود عملا بقوله تعالى « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

فكسب العيش محمود عندهم ، لكنهم يحذرون من الافتتان بسعة الرزق لأن الافتتان به غفلة عن الآخرة ، ولا يصح للعاقل أن يجتهد فى كسب الفانى ولا يجتهد فى كسب الباقى ويقول العارف بالله سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه « اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة فيك » .

وفى هذا المقــام أرانى مضطرا لأن أســجل رســالة للمربى الكبير وأستاذ الأستاذين السيد العميد محمد حمدى ، أول عمداء كلية التجارة وفخر التجاريين ، وقد تشرفت بالتخرج على يديه ، وان كانت قد تعرضت بالثناء على بحسن ظنه فى ، لكنهاتضمنت معانى جليلة فى مضمار التصوف والزهد .

وقد جاءتنى رسالته تلك بعد أن تفضل بالاطلاع على بعض محاضرات لى فى التصوف ، ولست أزكى الرسالة فى بلاغتها ، لأنهمد الله فى عمره وبارك له فى عمله كفانى أمر التزكية بما عهد فيه من رسوخ فى العلم ورقى فى أسلوب الكتابة والخطابة ، باللغة العربية والأجنبية .

وها هي ذي رسالته :

مصر الجديدة في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٦٥ ..

عزيزي الحسن الكامل التقي النقي بوركت تالله انى لسعيد سعيد في الدنيا والآخرة لأنك بهذا الصفاء الرباني ، صفاء السيرة والسريرة ، كذلك وبهذا العزوف عن كروب الدنيا الدنية ، والاقبال على فيحات الآخرة الرضية ، قد وصلت الى السماك الأعلى عند غاية المنتهى .

فيا عجبا كيف بدأت وثابرت حتى وصلت الى أن تمي بقلب طاهر ونفس مطهـرة ، كل ما تحاضرنا به منَ الآيات البينـات ، والروحانيات السـمات ، فأنى لك هذا الملتقى ، وكيف يمـكن أن تصل بى مما علمت رشدا ، وأن تدخلنى مدخل صدق فى هذا النور الالهى الذى تتعشقه والذى لا آكاد أدركه من محاضراتك ملفلفا فى كـلام وأقوال وأحاديث وآيات لا أستطيع أن شق اليه طريقى على بصيرة .

لقد أصبحت أتمنى لو أراك رأى العين ، لأجتلى من محياك ذياك النور الذى تحكيه ، أو أجد القبس الذى يهدينى سواء السبيل ، لأنى وأنا فى هـذه السـن المتأخـرة والمتطلعـة ، وقد نيفت على الثمـانين — وبلغتها — لا يمكن لى أن أخلى نفسى من هموم الدنيا وأوضارها ، لكى أفرغ وأنصب وأرغب ، الى ربى الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

كيف أخلع وشـاح الدنيا ، وأتسربل بسرابيل التقوى والصـلاح ، متجردا الى الله وحده .

سمع الناس براهب تضرب الأمثال بورعه وزهده ، فتاقت نفس الى رؤياه ، فسعى جاهدا الى لقياه ، فلما وصل الى موطنه ، وجده يقطن قصرا فخما ، تحفه حديقة فيحاء غناء فلما شق طريقه فى الدار بين أثاث ورى ، وجده يقبع فى زاوية منكرة على كرسيه ، فى ردائه الخشن ، منتعلا حذاءه النحيف فهبط الرجل باهتا لا ينبس ببنت شفة ، حتى ابتسم له الراهب قائلا :

لا تعجب يا بنى ، فليس الزهد فى العدم ، وانما الزهد أن تجرد نفسك مما تملك ، أو صحيح هذا ؟ أهو ممكن ؟ جمعنا الله فى أسعد الأوقات .

انتهت الرسالة الكريمة ، وقد ضمنت ردى على تلك الرسالة الكريمة ماقالت السادة الصوفية فى الزهد فى مذاق آخر : « ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك » ودللوا على صحته بموقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد ملك المشارق والمغارب وكانوا فى زمانه يبحثون عمن يستحق الزكاة فلا يجدونه ، حيث عم الرخاء ، ومع ذلك زهد فى عيشته ، ورضى منها البساطة حتى لقد روى أن الامام الحسن البصرى وفد ضيفا عليه فأخرج له خبزا واداما يسيرا وقال له : كل يا حسن فانا فى زمن لا يتسع الحلال فيه لأكثر من هذا .

وينهى السادة الصوفية عن العجز والبطالة ، لأنهم يتمسكون بآداب الشرع الشريف ، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وقد كان للسادة الصحابة وهم سادة الأتقياء ، تجارة أشير اليها فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة فى مثل قوله تعالى « علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرأوا ما تيسر منه » فصار التجار قرناء للمقاتلين فى سبيل الله .

ومن طريف ما قرأته فى استبصار السادة الصوفية ، أن أحد ملوك الفرس سأل أحدهم : لماذا يرزق الأحمق ويحرم العاقل ، فأجاب الصوفى : دل الصانع بذلك على نفسه — ويقصد أن الرزق عن تقدير من الله العزيز الحكيم وليست الأسباب هى الجالبة له ، وانما هى تعرض لعطاء الله الذى تعبدهم بها فى سبيل الله ، وعلينا أن ننبذ الأدعياء الذين يتزيون بزى الصوفية كذبا ، لنوجههم الى ضرورة التكسب من الأبواب [illegible] ما يأكل المرء من كسب يده ، والسعى على العيش عبادة من [illegible]

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبـا ولا فضة — كما كان يقول : كنت أرى الشاب فيعجبنى منظره فاذا قيل لى لا حرفة له سقط من عينى .

والقول الفصل فى موقف السادة الصوفية من الأسباب والتوكل ما يقوله سيدى ابن عطاء الله صاحب الحكم : انه لابد لك من الأسباب وجودا ولابد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها بحـكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحديته .

والتفويض والتوكل لا ينـافيان حسن التدبير فيمـا كسب المؤمن من رزق ، فان الله تعالى أرشد فى كتابه الكريم ، ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشد فى سنته ، الى حسن التصرف فى الأموال فجعل الله النفقة حسنة بين سيئتين ، كما عبر أمير المؤمنين الورع عمر بن عبد العزيز مشيرا الى قوله تعالى فى وصف عباد الرحمن « والذين اذا أنفقـوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، فنهى الله عن سيئة السرف كما نهى عن سيئة التقتير وجعل الاعتدال فضيلة بين الافراط والتفريط ، وكذلك قال حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » أى لا يتعرض لآلام الفقر من كان معتدلا فى نفقاته .

على أن السادة الصوفية لا يفهمون السرف والتقتير على الوجه الذى نعرفه ، فعندهم أن من أكثر النفقة فى مرضاة الله لا يعد مسرفا ، ومن أنفق أقل المال فى معصيته تعالى يعد مسرفا ، وتعليلهم فى فهمهم هذا تعليل وجيه ، اذ يقولون أن جمع المال ليس غاية فى ذاته بل هو وسيلة للنفع فما أنفق منه فى وجوه البر ، بقى لصاحبه عند الله ، ألست تراه تعالى يقول « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » أما النفقة فى المعصـية فتنطوى على كفران نعمة الله ، فقد أعطى عبده المال ليطيعه فى انفاقه ، ويكون بذلك شاكرا لأنعم الله ، فاذا أنفقه فى معصيته فقد بدل نعمة الله كفرا وقد قال تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد » فالشكر عندهم ، كما يقول امامهم أبو القاسم الجنيد ، هو ألا تعصى الله بنعمه .

وكما انهم ينهون عن انفاق المال فى معصية الله فانهم لا يقرون الغبن فى شراء ما يلزمهم ، والغبن فى نظرهم من السفه اذ يترتب عليه وضع المال فى غير موضعه ، وتروى فى هذه المناسبة رواية طريفة ، فقد قالوا ان الصحابى الجليل الورع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يهب لبيت المال ما يعجبه من ماله من جياد أو ابل — ولكنه كان يساوم فى السلعة اذا اشتراها ، فتعجب الناس لأمره وقالوا له ، نراك سخيا بمالك اذا كان لبيت المال ، ونراك تساوم فى دراهم عند الشراء ، فقال فى براعة وفطنة ، ذاك مالى جدت به ، وهذا عقلى بخلت به .

ولا يتبرم فقراء الصوفية من ضيق الرزق بل يرونه عطاء من الله ويقولون فى هذا المضمار : اذا منعك لم يمنعك من بخل ، وانما يمنعك رحمة ، فمنع الله عطاء ولكن لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق .

والسادة الصوفية يطمئنون بالله فى كسب أرزاقهم ، وينفقونها فى مرضاته سبحانه ، ويرضون بما أقامهم فيه من بسطة العيش أو ضيقه ، فاذا وسع عليهم شكروا بكثرة العطاء ، واذا ضيق عليهم صبروا على البلاء .

ومن الهام أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل فى أمر الرزق قوله رضى الله عنه :

كفل الله للبرية رزقا ... وتولاهم ثم أسبغ سترا
حينما الدود أسكن الصخر بيتا ... أنبت الله فى الصخور الزهرا
تصبح الطير فى الهواء جياعا ... يشبع الله بعد ذاك الطيرا

وينهى رضى الله عنه عن سؤال الناس فيقول :

لا تمد اليدين للناس يوما ... مدها للعباد بالشرك أحرى
وسؤال العباد شرك خفى ... قد حفظنا حين ذقنا السرا
واذا ما اتجهت لله فردا ... نلت يا صاحبى من الله خيرا
حسب الناس مذ رأونى أناجى ... فى جلال الرحمن أقرض شعرا
منشدا أبتغى من الناس شيئا ... أو أخص المديح زيدا وعمرا
قلت كفوا فلست أقصد الا ... وجه ربى وقد وهبت العمرا

فاذا عشت ستر ربى غطائى ... واذا مت لست أعدم قبرا
ان تكن نشوة الضلوع بخمر ... قد جعلنا هداه للروح خمرا
انه ذكرنا وقد سكرنا بروح ... فسكارى ولم نذق بعد سكرا

وأنت تراه في الأبيات المتقدمة ، كاسبا عيشه فى عفة ، عازفا عن سؤال الناس ، ويرى فى سؤالهم شركا خفيا ، ثم هو مع كسب عيشه الدنيوى كاسب عيشه الأخروى، ومأنوس بربه فيهما ، فحيا جسده بكسب دنياه ، وحيت روحه بكسب الباقيات الصالحات التى يقدمها لأخراه ، وكانت له بكسبها نشوة فى الضلوع تشبه نشوة السكر ، ولكن سكره لم يكن من خمر أهل الدنيا ، بل من خمر أهل الآخرة الذى يقول فيه طيب الله ثراه :

ان كان سكر الناس من عنب ... ومن بلح فانى فى المحبة أسكر

ويقول أيضا :

سكرنا لا بخمر يد ولكن ... بعلم الله مولانا سقينا

ويقول مذكرا بنفع المال فى أمر الآخرة ومحذرا الغافلين به عن الله تعالى :

ألم يك فى الدنيا الذى قد جمعته ... علام اذن سب الحياة تزاول
وما السب الا للذى زيف الهدى ... ومنه على الدنيا ترامت رذائل
فيا رائد الدنيا وصولا لربه ... لتسعد فى الأخرى مرادك كامل
ولا تمدح الدنيا اذا عز عيشها ... فمادحها للعز فى الناس غافل
و لاتجعل الدنيا مرادك وحدها ... فمن لم يجزها بالهدى فهو جاهل
فان لم تكن بالذكر والفكر ساهرا ... وللدين والايمان قلبك ناهل
وان لم تكن من أهل هذا ولم تكن ... مع الله فى سر وجهر تواصل
فسيرك فى الدنيا فجور وعلة ... وعيشك فى الدنيا مجون وباطل

وما أروع قوله رضى الله عنه :

ومهرق وجهه للناس مهما رأى الاحسان ما عز انتسابا
تمسك بالاله تسد حياة وتحمد من أياديه الثوابا
فان قالوا اتخذ لك أى جاه فخذ تقواه جاهك والمآبا
وان قالوا اتخذ لك أى كأس فخذ من كأس عزته الشرابا

وقوله رضى الله عنه :

قالوا اتخذ لك جاها قلت واعجبى أغير ربى ايمان وتوحيد
أطوف بالحى صبا فى مكارمه يا رب صب رواه البر والجود
وانما أنا فان فى محبته لكننى فى كتاب الحب موجود
سارع الى الله معتزا برحمته فالكل عبد ورب الكل معبود

ألا رحم الله أسلافنا الصالحين ، ومشايخنا المرشدين ، الذين سعدنا بارشادهم وان قصرت خطانا عن خطاهم ، ولئن اقتفينا آثارهم ، والتزمنا طريقهم وصلنا الى ما وصلوا اليه من ايثاره تعالى على ماسواه ، فان فعلنا، دخلنا معهم فى حماه تحت قوله تعالى « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » فخلص جهادنا فى سيرنا الى الله فاهتدينا بهداه مصداقا لقوله الكريم « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

الحـــج والـــزيـــارة

— ١١ —

« ولك حجة من بعد عدد معلوم ، وقد يكون بعيـــدا وتراه قريبا ، والبعيد قريب والله مجيب » •

لا أستطيع أن أصف فرحي بهذه العبارة التى جاءتنى فى أول رسالة تلقيتها من شيخي العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، فقد كان فرحا مضـــاعفا ، فقـــد فرحت أولا بعطفه على فى ارســـال الرسالة بادئا بالفضل ، وقبل أن أكتب اليه ، فرحت ثانيـــا بالبشرى التى كانت نفسى تتحدث بها وأنا فى شرخ الشباب ، حين كنت أتطلع للسفر الى الحجاز للتشرف بالوقوف على قبر حبيبنا المصطفى — صلى الله عليه وسلم — والتسليم عليه ، وكنت أتصور أن سعادتى لا تتم ، وأن أمورى لا تتيسر الا بتلك الوقفة ، لكنى كنت ناشئا لا أملك مالا كافيا من كسب يدى ، يمكننى من تأدية فريضة الحج على نفقتى ، وكان والدى — رحمه الله — على قيد الحياة ، ولم أكن أود أن أحج على نفقته ، فكان الحج من كسب يدى بعيدا فى خيالى ، على الرغم من شوقى الشديد ، فماذا يجدى مرتبى الناشىء وكان خمسة عشر جنيها لا تزيد ، وماذا أستطيع أن أدخره منه بعد نفقاتى الضرورية ، وكان أبى — رضوان الله عليه — يعاونني فى المعيشة لقلة المرتب الذى كنت أتقاضاه يومئذ .

وما كدت أقرأ البشرى التى زفها الى الشيخ طيب الله ثراه . حتى قرب البعيد ، وسهل فى نفسى العسير وقلت لله رجال يرون بالبصائر ما لا نراه بالأبصار .

وسافرت في أجازة عيد الفطر الى القرية ، لأقضي أيامها بين والدى وأهـلى ، وبدا لى أن أحاضر قومى فى المسجد ، وكان شيخى أمرنى بالتدريس لهم ، فشرح الله صدرى أن أكلمهم فى الحج ، الذى تبدأ أشهره من شـوال ، وخرج كلامى ممزوجا بالشـوق الخفى عندى ، وغلبنى الحماس ، فتأثر القوم ، وما كدت أنهى كلامى ، حتى أقبلوا على مهنئين بالحج ، فقلت لهم وما أدراكم أني سأحج ، قالوا حماسك فى المحاضرة دلنا على عزمك فقلت فى نفسى :

يا ليتنى والأمانى ربمـا صـدقت   أحظى بمعتنق منـــه وملتـــزم

ثم ناجيت ربى ، مناجاة خفية ، يا رب أنت الكريم المنان ، وقد جعلت ضيافتك عند البيت الحرام ، فاجعل ضيافتك لى من مصر ، ويسر لى نفقات الحج والزيارة من كسبى ، وأنت تعلم سرى وعلانيتى ، لاتخفى عليك من أمرى خافية ، ان كان بى شوق للسفر فأنت مصدره وان كان عبدك فقيرا فأنت ساتره ، والعباد يقترضون ليكرموا الأضياف ، ولست أنت محتاجا لأحد ، وخزائنك مملوءة لا ينقصها العطاء ، فدبر الأمر ويسر السفر ، وعلى الله قصد السبيل . وكان ان عزمت على تقديم الطلب معتمدا على فضـله تعالى ، وواثقا به في توكلى ، وصارحت بعض أهلى وأحبابى بما عزمت عليه ، فرغبوا فى صحبتى ، وقدموا طلباتهم معى ، ولكنى لم أكشف لهم حقيقة حالى ، ولا السر الذى بينى وبين ربى .

وكان والدى — رحمه الله — قد سافر الى القاهرة ، فقلت ان اذن سيدى الوالد بسفرى فهى علامة التيسير ، وما كاد رحمه الله يعلم ، وهو بالقاهرة من عمى ، أنى قدمت طلبا للحج ، حتى بادر بالكتابة الى مهنئا بالحج ، وداعيا لى بالتوفيق ، فسرنى ذلك كل السرور .

ثم عدت بعد الأجازة لعملى بالقاهرة ، فأخبرت زميلا لى بعزمى على الحج ، وقلت له سأغيب شهرين ، وسأكتب لك توكيلا لتقبض عنى مرتبى ، وان شئت أخذت منك الآن مرتب الشهرين ، وقبضت أنت المبلغ لنفسك أداء لحقك ، قال سيان عندى ، وقدم لى ثلاثين جنيها على الفور ، وقبضت

شهرا ثالثا فى صباح اليوم الثانى ، فصار معى خمسة وأربعون جنيها ، وخيل الى عند ذلك أنى حزت ملك سليمان عليه السلام ، حيث تحقق أملى ، ودبر الله تعالى ويسر لى نفقات الرحلة .

وسافر معى الى السويس المغفور له والدى وأعمامى ، وقدموا لى جريا على التقاليد ، معاوناتهم المالية ، فامتلأت جيوبى ، واذا كانت نفقات الحج والزيارة لا تزيد عن ثلاثين جنيها ، فقد بقى من مالى الخاص ما يكفى نفقاتى الضرورية ، وما جاءنى من اعافات جعلته للهدايا والصدقات.

ولا يفوتنى أن أذكر ، انى كنت اطلعت بجريدة الأهــرام فى كلمة « حديث الصيام » على أبيات لشاعر قديم صدر بها مقاله المرحوم الشيخ التفتازانى ، فحركت أشواقى وأشجانى ، ولعبت بعقلى وروحى ، حتى كأنها سحر ساحر ، ومن المفيد أن أذكر تلك الأبيات وهى :

قف بنا يا سعد ننزل ها هنا — فأثيلات النقــا موعــدنا
ان لمــع البـرق من خيف منى — جـدد الوجـد وهـاج الحـزنا
كلمــا طرز أثــواب الـدجى — وشـيه أحـرم عينى الوسـنا
وديــار حــول بطحــا مكة — يأمــن الخــائف فيهــا ما جنــى
من لعينى أن ترى كعبتهــا — أو تمس الركــن منهَــا الأيمنــا
آل ذاك البيت انى جـــاركم — لم يــكن جاركمــو ممتهنــا
زاركم صحبى وعنكم عاقنى زمنى — كــم ذا ألــوم الزمنـــا
آنــا منــكم واليــكم وبــكم — فاذكــروا عهــدا قديمــا بيننــا

وأقلعت بنا الباخرة من السويس الى جدة ، وعند رابغ سمعنا صفيرها ، ايذانا بالاحرام من الميقات ، فاغتسلنا ، وخلعنا المخيط ولبسنا المحيط ، وعقدنا النية وكان من حالنا ما جاء فى رسالة لأستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، كان قد بعث بها لتلميذه الصالح المبارك حبيب قلوبنا وأرواحنا السيد/ سالم عمر جمعة زاده الله فضلا ، قال الشيخ لتلميذه فى الرسالة فيما قال له :

« .. وفى اصطلاح هؤلاء القوم قصد الحق مجردين من الشواغل ، متطهرين من العلل ، مثل من يحج ، فاذا نوى الحج ، خلع كل نية تكون غير نيته الحج الى الله ، والوقوف بين يديه ، خاليا من كل الشوائب .

فاذا نزع لباسه تجرد من كل شيء ، فاذا تطهر زالت عنه كل علة ، فاذا لبى سمع بقلبه جواب التلبية ، فتلذذ بالنداء ، فاذا دخل الحرم ترك كل محرم ، فاذا أشرف على مكة ، أشرف عليه حال من الحق ، وعلامته البكاء ، لأن الملائكة تحفه .

« فاذا دخل المسجد دخل فى قرب من الله سبحانه وتعالى ، فخشع وطاف ورمل هاربا من الدنيا ، ورجع وسكر ، فركع بعد أن صافح الحق بمصافحة الحجر ، كما ورد فى الأثر ، فظهر عليه الأثر ، ومن ظهر عليه الأثر نال الرضا ، واستشعر أنه تحت العجز عرف واعترف ، وترك أمره لله ، وصفا له الحال ، وافتقر من الدنيا مالا وعلما وعملا واغتنى بالمآل ، مآل الخادم عند مولاه ، يصيره كيف يشاء ، ويضعه فى مكانه كما شاء ، ويجعله من خدامه والله رءوف رحيم ، فمن عرف القوم وسار بسيرهم نجا ، وكان من شدة الخوف كثير الرجا » .

واستشعار العبودية الذى يوجهنا اليه سيدى الشيخ فى كلامه المتقدم ، يذكرنى بما وقع لى يوما عند الملتزم حيث تعلقت بالبيت لاجئا داعيا ، فتذكرت من الهام أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل قوله رضى الله عنه :

انى على أعتابكم — لم أرض غير الحب مشرب
حريتى رق لكم — وهى المقام وذاك أقرب
وأدلتى أنى ضعيف — والضعيف عليك يحسب
قالوا بأنك لم تكن — فيما تقرره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى — عبد على الأبواب أحسب

وكلامه رضى الله عنه فى ذلك المضمار معروف لأحبائه وما أبدع قوله :

اذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى ... اليه وما تثنى الذنوب عن الحب
فيارب ان زادت ذنوبى فاننى ... وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى
تركت الورى دونى وجئتك مفردا ... فلم يك غير الله فى السمع والقلب
وطهرت فى نجواك سر جوانحى ... فخلصتها من عالم البعد والحجب
رضاء الفتى بالله يشرح صدره ... فلن يتأذى بالحوادث والخطب
فما أنا فى نفسى أميل لغيره ... أراقب ربى فى الشهادة والغيب
صعاب الهوى كلفتها وحملتها ... وكنت أنا المعروف بالواجد الصب
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة ... فانك غفار الذنوب بلا ريب
وان كان لى مما فعلت جريمة ... فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى
وما لذتى الا التجائى لوجهكم ... فوجهكمو دون العوالم لى قطبى
سهام الهوى لم تثننى عن رحابكم ... ولو أننى منها على مركب صعب
وكيف أهاب الصعب أو أرهب السرى ... ومن نام لا يرقى الى مشهد القرب
وغفلة قلب المرء بعد وحسرة ... فما نال عقبى ربه غافل القلب
لقد ذل فى يوم القيامة غافل ... تأخر فى يوم الجهاد عن الركب
ودنياك أرض لو بذرت بها الهدى ... حمدت أوان الحصد سالمة الحب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا ... شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب
فكنا بفيض الله خير أئمة ... لنا نوره يهدى من الزيغ والعجب
ولما تدانينا ولاحت دياره ... وقد جذبتنا نحوها أيما جذب
هتفت بحبى دم لربك وحده ... وأخرج جميع الكائنات من القلب

وبعد أن قضينا مناسك الحج ، شددنا الرحال للمدينة المنورة ، حيث الحرم الشريف ، وقبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ووجدنا من نفوسنا فى السير اليها لهفة الشوق ، ومواجيد العشاق ، وما كدنا نحط الرحال ، حتى اغتسلنا ولبسنا أفخر ثيابنا ، وقصدنا الحرم ، فأدينا تحية المسجد وأدينا الزيارة التى تمت بها السعادة ، والحق انها كانت لحظة

خالدة ، تلك التى صدقت فيها أمنيتى ، لوقفتى السعيدة بين يديه صلى الله عليه وسلم : بعد أن كانت روحى تحوم حول الحمى من بعيد كما يقول المرحوم الشاعر الكبير اسماعيل صبرى :

روحى على بعض دور الحى حائمة ... كظامىء الطير اذ يهفو على الماء

ما أسعدها من لحظة ، قال فيها على لسانى ، وفى زيارة لاحقة ، صديقى الأديب اللامع الأستاذ محمد جاد الرب أكرمه الله :

لقد عدنا وكان العود أحمد ... سلاما يا مقرب يا مؤيد
سعيد من يحبك من بعيد ... ومن يسعى لبابك كان أسعد
فجد بالوصل للمشتاق فضلا ... فأنت من السحاب الجود أجود
وصل عليه يا ربى وسلم ... ووفق كل مشتاق ليشهد

أما صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان فقال لى ، مهنئا فى عودة من زيارة أخرى :

بالله كيف شهدت أنوار الحمى ... تشفى بمرآها المحب المغرما
ودخلت من باب السلام على الذى ... صلى عليه ذو الجلال وسلما
وسعدت يا حسن الرضا برحابه ... فبلغت تكريما وعدت مكرما
ووقفت بين الصاحبين تخشعا ... وكأنما القمران فيض منهما
فى باب جبريل ومهبط وحيه ... يجد الدعاء الى الاجابة سلما
ورأيت جنات البقيع نواضرا ... تختال أجداثا وتشرق أعظما
أصغيت فى أحد الى شهدائه ... قد كاد حمزة فيه أن يتكلما
جمعتهم الفردوس تحت ظلالها ... بالسفح أقمارا تضىء وأنجما

وفى هذه المناسبة أمتع السادة القراء ، ببعض من كلام طويل ، جرى به الهام السيدة عائشة الباعونية الدمشقية ، رحمها الله ، وهى تتشوق لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكلام ينم عن جذب شديد .

سعد ان جئت ثنيـــــات اللوى ... حـــى عنى الحـــى من آل لـــؤى
وأجـــر ذكرى فاذا اصـــغوا لـــه ... صف لهم ما قد جرى من مقلتى
وبشرح الحال فانشر ما انطـــوى ... فى ســـــــقام قد طوانى أى طى
من لعينى أن تشـــاهد حســـــنه ... وأرى فـــــوق ثـــــراه شـــفتى
وأعفـــر فى ثـــــرى أعتـــــابه ... جنـــــة العشاق كلتـــــا وجنتى
يا رســـــول الله يا خـــير الورى ... ما لقلبى عن هيـــامى فيـــك لى
ليس يخـــلو منـــك يا كـــل المنى ... خاطرى والحـــال احـــدى حجتى
يا حيـــاة الروح يا رى الظمـــــا ... يا حبيب الله يا ســــــاقى الحمى
مسنى جـــدب وقد لظ الظمـــــا ... وكفى ما قد جـــرى من محجـــرى
فتـــداركنى وكن لى شـــــــافعا ... ببلوغ السـؤل من مرأى ورى
وبتحقيـــق الرجـــــا من فضله ... وبلوغ القصـــــــــد منه فى بنى
ووفـــــا مغفـــــرة شـــــاملة ... لذوى القـــربى ومن أسدى الى
قلت ما قلت ولـــو لا فيضـــكم ... مـــدنى فى مدحـــكم ما قلت شى
وعليـــك الله صـــلى متحفـــــا ... بســـلام يملأ الأرجـــا شـــذى
وعلى آل وصـــحب كلمـــــــا ... هيج الشـــوق بريق من كـــدى
وشـــدا الحادى لصب قد صـــبا ... هى هيا لمليـــــــــح الحـــى هى

وهكذا حقق الله لى البشرى ، التى زفها لى سيدى الشيخ ، رضى الله عنه ، وكنت أرى الحج بعيدا فرأيته قريبا كما قال فى الهامه ، الذى صدرت به المقال ، « وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

— ١٢ —

دخلت ذات يوم على العارف بالله شيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، قدس الله سره ، فوجدت بين يديه رقعتين ، كتبهما بيده المباركة ، احداهما عن النفس ، والأخرى عن الروح ، فلما قرأتهما ، عجبت من المنازل التى عددها — رضى الله عنه — للنفس والروح ، وفهمت غوامض المنازل من شرح خطه قلمه على كل رقعة فى ايجاز مفيد ، فرجوته — رضى الله عنه — أن يسمح لى بأخذ الرقعتين ، فتفضل وأذن ، وهما محفوظتان عندى مع رسائله الكريمة .

قال — رضى الله عنه — فى منازل النفس .

« النفس اذا سبحت عميت ، فان عميت غفلت ، فاذا غفلت شردت ، فان شردت بدأت ، فان بدأت دأبت ، فان دأبت نأت ، فان نأت شربت ، فان شربت سكرت ، فان سكرت طربت ، فان طربت طارت ، فان طارت سارت ، فان سارت فاحت ، فان فاحت ناحت ، فان ناحت شكت ، فان شكت أوبقت ، فان أوبقت باءت ، فان باءت شطحت ، فان شطحت نطحت ، فان نطحت جرحت ، فان جرحت أدمت ، فان أدمت قتلت ، فان قتلت أجرمت ، فان أجرمت طغت ،، فان طغت بغت ، فان بغت آثرت ، فان آثرت هزمت ، فان هزمت صاحت ، فان صاحت راحت ، فان راحت وقعت ، فان وقعت فطنت ، فان فطنت ندمت ، « فأما من طغى وآثر الحيـاة الدنيا فان الجحيم هى المأوى » .

أما تفسيره — رضى الله عنه — فقد قال فيه : النفس اذا سبحت فى الدنيا فقد عميت عن الآخرة ، فان عميت غفلت عن ذكر الله ، فان غفلت شردت عن الحق ، فان شردت بدأت فى الشر ، وطلب الدنيا ، فان بدأت

دأبت زادت فى الطلب ، فان دأبت نأت عن الخير ، فان نأت شربت شراب الهالكين ، فان شربت سكرت بحب الدنيا ، فان سكرت طربت باللهو ، فان طربت طارت الى المهاوى ، فان طارت صارت الى حيث لا يعلم مصيرها، فان سارت فاحت أعمالها ، فان فاحت ناحت من الخسران ، فان ناحت شكت مما حل بها ، فان شكت أوبقت غيرها ، فان أوبقت باءت بالخسران ، فان باءت شطحت أى تخبطت ، فان تخبطت نطحت لعدم اهتدائها ، فان جرحت أدمت النفوس ، فان أدمت قتلت غيرها ، فان قتلت أجرمت ، فان أجرمت طغت ، فان طغت بغت ، وان بغت آثرت الحياة الدنيا ، فان آثرت بعدت عنها العاقبة ، فان هزمت صاحت من خسران العاقبة ، فان صاحت راحت تلقى حتفها ، فان راحت وقعت فى الحساب ، فان وقعت فطنت النفس الى ظلمها ، فان فطنت ندمت حيث لا ينفع الندم .

واقرأ يا أخى بعد ذلك تحليل أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل — رضى الله عنه — لمسلك النفس فى ركونها الى زخرف الدنيا وغفلتها فيها ، وكان بعض الحاضرين قد طلب اليه أن يرتجل من الهامه الفورى على قول القائل :

عجبا لها تهوى الـذى تهوى به ... دون الذى تعـلو به فى ذاتهـا

فأجاب — رضى الله عنه — فورا من عطاء الله والهامه :

عجبا لها تهوى الذى تهـوى به ... كم عالم قد زل من نزعاتهـا
تنأى عن الاصلاح طول حياتهـا ... وتواصـل الاقبال فى شهواتها
تدعى لتأدية الصـلاة وانمـا ... شـغلت بغير الله حين صـلاتها
وقفت على الدينار حسن بلائهـا ... فأمالهـا عن هديهـا وهداتهـا
قد رحبت بالسـيئات مريضـة ... وتضـج ان دعيت الى حسناتها
والنفس أعدى صـاحب تأسى به ... قد أدخلتنا النار من رغباتهـا
ان أنت تنصحها تضل طريقهـا ... واذا تركت غرقت فى حسراتهـا
جهلت طريق الخير وادعت الهدى ... كم تكثر الدعـوى على قرباتها
ضحكت على جهالها فتوهمـوا ... أن العـلا والفوز فى نزواتهـا
ظنـوا بنفسهمو الكمال وانمـا ... تتوافق الجهـلاء فى غاياتهـا

فنحا مسيلمة النبوة وانتهى | فرعون للتأليه من عثراتها
والنفس ما برحت تضل وما بها | نور يزيل الظلم من ظلماتها
فازجر لنفسك فى الأمور لعلها | قد ترزق الأنوار فى سبحاتها
ترضى تسفلها لكل نقيصة | دون الذى تعلو به فى ذاتها

وينبه — رضى الله عنه — الى غفلة المسلمين فى زماننا ، ومسايرتهم لهوى نفوسهم فى كسر حدود الله ، ونهش أعراض اخوانهم بالغيبة المضرة التى نهى الله عنها ، فيقول الهاما وارتجالا لوقته :

رفعة النفس بالهداية لكن | قل من بالتقى الى الله عائد
اننا لو نصاب يوما بشىء | حز فى صدورنا المصاب الواحد
واذا كانت الاصابة فى الدين | فما ضرنا زوال المعابد
للرزايا نخاف اما المعاصى | فلها دائما أقمنا الموائد
عابد المال فى الرجال كثير | وقليل من كان لله عابد
غيبة الناس خير ما فى النوادى | أصبحت بينها أعز الفرائد
انشأوا النادى المدعم للعلم | فأمسى وما به غير سامد
يشرب الكأس أو يساجل فى | النرد وبالدس والوشاية قائد
واذا ما قلت اتركوا الناس قالوا | ليس فى الفسق غيبة لا تعاند
فسقوا غيرهم لكى يستحلوا | عرض من خالفوا وبئس العوائد
ان سوق العصيان أروج شىء | حيث سوق الأخلاق والعلم كاسد

ثم ينصح — رضى الله عنه — المؤمن الصوفى فيقول فى ارشاد بارع :

أيها الآخذ الطريق اذا ما | سرت صوب الطريق فادأب وجالد
لا تخلها من السهولة بالقدر | الذى أنت فيه سار ووارد
كن على الحق ما حييت فان | مت تناءت بالموت عنك الشدائد

ويعظ المؤمن الصوفى مرة أخرى فيقول — رضى الله عنه :

أخى لا تغرنك الحياة وزيفها | فما هى حظ الناسك المتزهد
ودونك أيام أمامك غيرها | فان زال عنك الأمس فانظر الى الغد

وحاضرك اقرنه بماضيك عبرة ونفسك عودها الحساب لتهتدى
سريرتك احفظها لربك وحده فان نقاء القلب أصل التعبد
وأقبل على مولاك يقبل بفضله عليك ووجه نحوه القلب تحمد

ثم يبين لنا — رضى الله عنه — ان محبة الله ، وذكره تعالى ، والانابة اليه ، هى الأدوية الناجعة من أمراض النفوس ، فيقول من الهامه :

لذة الحب فى لقاء الحبيب والتلاقى للسقم خير طبيب
واذا حلت المحبة قلبنا سترت كل ما به من عيوب
أى شيء فى الحياة أحلى وأسمى من تلاقى الحبيب بالمحبوب
ان أكن مخطئا فربى غفور أو أكن بالضعيف فهو مجيبى
طالما أنت فى السريرة يا رباه لم أخش من وجود الرقيب
أفتدى سدة الحبيب بروحى قد بدا بالفداء كشف الغيوب
لم أخف غيره وان كان قلبى طاول الطود فى تلاقى الخطوب
ان قلبى دون البرية سرى لست أفشى سرى لأى قريب
ومن الحب لى أجل ثياب دق فى وصفه عن التقليب
أدب الذكر مهجتى وميولى أدب الذكر أفضل التأديب
أنت يا روحى ان رجعت الى الله ففى حصنه المنيع توبى
وارجعى باسمه اليه وعيشى فى حماه وبالمحبة ذوبى
نحن قوم لنا الطريق حياة قد كتبنا فى روضها المرغوب
وشربنا من حوضها فطربنا وغسلنا بمائها كل حوب
فاحفظونى من العباد فانى قد رأيت العباد أهل ذنوب
يشرب الناس من عصير ولكن قوة العلم والهدى مشروبى

وقد سئل — رضى الله عنه — أن يرتجل على وزن البيت الآتى :

ستباشر الغبراء خدك وسيضحك الباقون بعدك

فجاء الهامه بالعظات البالغات ومنها :

« ستباشر الغبراء خدك » والى الذبول سقيت وردك
مهما بلغت من العلا لا تملكن العمر سعدك

المـــــوت حـــق واجب ... فاجعــله بين النـــاس عهـدك
واســلك سـبيل الأقــدمين ... وخــــــل ذكـــر الله وردك
يا قلب انــك ان تــــــرد ... بـــاب الالـــه فلن يـــردك
أنا قد خلــوت عن الــورى ... وجعلت حبى فيــك وحــدك
وأخــذت ذكـــرك غــايتى ... وتبعت بالايمـــان جنـدك
وســهرت ليــلى بالهــدى ... ورفعت بين النـاس حبـــك
ومشيت أنصــــح فى المـلا ... وأعــلم الأصــحاب قصــدك
يــا قلب مالك غــــــيره ... بعــد الممات يعيــد ذكــرك
أقبــــل عليــــه فانــــه ... كرما وفضــلا لــن يصــدك
ودع الحيــــــاة اذا دعت ... وانظـــر لمــا خلدت بعـدك
مهمـــــا أقمت بهـــا فلـن ... تلقى عــلى الأيـــام خلـدك
ســتزول عنــك بصــــفوها ... وسيضــحك الباقون بعدك

ويشبه صوفية الفرس الأقدمون نفس الانسان بالذئب ، فان تركها صاحبها فى هواها استأسدت فقتلته ، كما يستأسد الذئب الذى يغفل مربيه عن شره ، فيتعرض لضره ، وفى ذلك يقول سعد الشيرازى ، فيما ترجمــه عنه من الفارسية الى العربية ، صــديقى العلامة الشيخ الصاوى شعــلان :

سمعت بأن امرأ صــاد ذئبـــا ... فأولاه عطفـا وأصــفاه حبـــا
فلما نمـــا الذئب واستأســـدا ... بأنيـــــابه مزق الســـيدا
وقيل لذاك الجــريح المصــاب ... حليف الردى من يربى الذئابا
ونفسك ذئب فحــاذر هــواها ... فان المنــايا سرت فى منـــاها

ويقول امامنا على — كرم الله وجهه — : « ما أنا ونفسى الا كراعى غنم مع غنمه كلما ضمها من جانب شردت من جانب » .

ويقول السادة الصوفية فى نصائحهم : ولتحذر النفس فانها مهلكة مهلكة ، وملكة مملكة ، غادرة غير عاذرة ، شاردة للحتوف ، مبادرةساعية فى تلف الروح ، داعية الى سد باب الفتوح ، فانهج مناهج أهل المجاهدة ، لتدرج مدارج أهل المشاهدة ، وصاحب بصدق التوجه الروح ، فان معها الراحة ، وجانب هذه الدابة الجموح فانها تسلب الصفا من الراحة .

ويقول سيدى العارف بالله مصطفى البكرى — رضى الله عنه :

شمر ذيول التعامى عنك تشميرا ... وعمــــز القلب بالأذكار تعميرا
واحذر لقرية نفس منك تقربهـــا ... فتلك دمرها المحبـــوب تدميرا
واقرب الى أهل بيت زال رجسهمو ... والحب طهرهم من ذاك تطهـــيرا
قوم لقد عرفــوا بالقرب أنفسهم ... فصار ناظـــرهم بالله أكســيرا
اذا رأوا ذكــر المــولى برؤيتهم ... اذ نورهم يورث الأحشاء تنويرا

اللهم انا نعوذ بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، فخذ بأيدينا اليك ، ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ، ولا أقل منها ، فانك قلت وقولك الحق « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

— ١٣ —

تناول مقالى السابق كلام شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى فى منازل النفس ، والى القراء الاعزاء ما قاله رضى الله عنه فى منازل الروح حتى تصل الى رضوان الله تعالى :

الروح اذا سبحت نظرت ، فان نظرت ذكرت ، فاذا ذكرت بدأت ، فاذا بدأت دأبت ، فان دأبت عرفت ، فان عرفت شربت ، فان شربت شكرت ، فان شكرت سكرت ، فان سكرت طربت ، فان طربت طارت ، فان طارت سارت ، فان سارت باحت ، فان باحت فاحت ، فان فاحت ناحت فان ناحت راحت فان راحت فاءت ، فان فاءت باءت ، فان باءت تابت ، فان تابت طابت ، فان طابت غابت ، فان غابت فطنت ، فان فطنت عادت ، فان عادت طلبت ، فان طلبت درست ، فان درست علمت ، فان علمت وقفت ، فان وقفت شخصت ، فان شخصت خافت ، فان خافت اطمأنت ، فان اطمأنت لامت ، فان لامت رجعت ، فان رجعت رضيت ، فان رضيت فازت ، فان فازت دخلت ، فان دخلت درجت ، فان درجت عبدت ، فان عبدت استقرت ، والجنة هى المأوى ، (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وقد فسر بنفسه رضي الله عنه كلامه فقال : الروح اذا سبحت أي تفكرت نظرت من قول الله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات) فان نظرت ذكرت الصانع ، فاذا ذكرت أسماءه بدأت فى ذكرها ، فاذا بدأت دأبت على الذكر ، فان دأبت عرفت حلاوة الذكر ، فان عرفت شربت شراب الذاكرين ، فان شربت شكرت مولاها على الهداية ، فان شكرت سكرت من لذة الذكر ، فان سكرت طربت من لذة الاحوال ، فان طربت طارت وجدانا ، فان طارت سارت فى السبيل السوى ، فان سارت باحت بما

يمتريها ، فان باحت فاحت من رائحتها ، فان فاحت ناحت على ما فرط عنها ، فان ناحت راحت تتخبط ، فان راحت فاءت لا تدرى ، فان فاءت باءت الى أمر الله ، فان باءت تابت بنعمة الله ، فان تابت طابت من الذنوب ، فان طابت غابت فى سبيل الاستقامة ، فان غابت فطنت لا تميل لغير الله ، فان فطنت عادت لمعرفة الصواب ، فان عادت طلبت من الله المعونة ، فان طلبت درست العلم ، فان درست علمت حتى تصدر عن حق ، فان علمت وقفت على الحدود ، فان وقفت شخصت الى الله بحق ، فان شخصت خافت منه سبحانه وتعالى ، فان خافت اطمأنت « يا أيتها النفس المطمئنة » فان اطمأنت لامت نفسها على الماضى وخافت الرجوع اليه ، فان لامت رجعت الى ربها بثبات وصدق ، فان رجعت رضيت بربها ، فان رضيت فازت مرضية ، فان فازت دخلت فى عباد الله ، فان دخلت درجت فى العباد ، فان درجت عبدت عبادة حقة ، فان عبدت استقرت الروح فى الجنة والجنة هى المأوى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وخوف الله عند السادة الصوفية مقام جليل من مقامات العارفين ، وهم يستندون فى الاشادة بمقام الخوف الى قوله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) أى أشدكم له خشية كما أنه تعالى نسب العلم بالله لأهل الخشية فقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) ويروى السادة الصوفية أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل فى معنى قوله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هم الذين يعصون ويخافون المعصية ؟ فقال لا بل الرجل يصوم ويتصدق ، ويخاف الا يقبل منه .

وهم يقولون ان المؤمن لا يكون خائفا حتى ينهى نفسه عن هواها ، ويستندون الى قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) ويروون قوله صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله ، أو قطرة دم اريقت فى سبيل الله) .

وقد قيل للامام الحسن البصرى (أفضل التابعين) رضى الله عنه : يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام من أصحابك ، يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال : انك والله لأن تصحب قوما يخوفونك حتى تدرك الامن خير لك من أن تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف .

والسادة الصوفية مع خوفهم من مقام ربهم ، لا يسقطون الرجاء فيه سبحانه ، بل هم يقابلون الخوف بالرجاء حتى لا يقنطوا من رحمة الله، وفى مقام الرجاء هم يفرحون مستندين الى قول الله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور) وهم يروون أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل من أصحابه ، وهو يجود بنفسه فقال كيف تجدك قال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى فقال صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجاه وأمنه مما خافه » .

وجاء فى وصف امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه للمؤمن التقى : يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ، ويصبح فرحا ، حذرا لما حذر من الغفلة ، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة .

تراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، خاشعا قلبه ، قانعة نفسه ، سهلا أمره ، حريزا دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه .

الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، ان كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين ، وان كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين .

يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره .

فى الزلازل وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب .

نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه .

فانظر رعاك الله ، صورة المؤمن التقى النقى ، كما أبرزها أئمة السلف والخلف ، وليقس كل منا نفسه بمقياسها ، ليرى مدى تخلفنا عن تلك الصورة المحمودة فى الأولى والآخرة ، فنعنى باصلاح نفوسنا فيما بقى من أعمارنا والله ولى التوفيق .

ويتعرض أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه، لبعض تلك المنازل فيقول فى الهامه المشرق :

تفنن غيرى فى الملاهى وشرها ... ولكن بحب الله نلت فنونى
وانى اذا ما الناس بالمال حصنوا ... جعلت هدى الرحمن كل حصونى
وان سجنوا فى النفس والمال والهوى ... ففى مشهد الايمان أصل سجونى
تسح جفونى خشية ومهابة ... اذا أهل ودى بالرضا نظرونى
أسير أسير الحب فى كل موقف ... وما بسوى الاحسان قد أسرونى
وقالوا لى اصبر قلت هل فيه منعة ... فقالوا نعم قلت اشهدوا وخذونى
ولم أدر طعم الحب من بدء نشأتى ... ولكنهم بالذكر قد شغفونى
أطوف بوجدانى على كل عاشق ... فألقى احتراما ان هم أشهدونى
فيا مانحى حسن المحبة باسمه ... غسلت فؤادى من جميع فتونى
لقاؤك ايمانى وذكرك حجتى ... وحبك روحى واليقين وتينى
بحزم علمت الحب بالعلم خضته ... ففى شدتى ألقى نداك ولينى

ويقول رضى الله عنه شارحا حاله مع ربه سبحانه وتعالى :

حب من أهوى بلحمى ودمى ... أملى فى الوصل يشفى ألمى
ليتنى أفنى على أعتابه ... وأرانى فيه ضمن الخدم
ان دمعى كاد أن يغرقنى ... بينما قلبى ثوى فى ضرم
لعب الحب بروحى دوره ... ألهب الحس وأزكى شيمى
انما رحمته مغرقتى ... وبهذا كان معنى عدمى
ان أكن أفقد عينى فما ... كان قلبى فى هدى الله عمى
انما ينظر قلبى عن هدى ... أعين القلب منار الحكم
ان قلبى يا دجى فى وله ... ذائع الاشجان بل لم ينم
ليس فى الحب منام لفتى ... ذاق أقسى وجده فى كرم

انما الوجد حنين قاتل ومذاق الوجد فوق الكلم
وأحاديث الهوى تطربنى فالهوى روحى وعقلى ودمى

ويقول رضى الله عنه فى فضل التقوى ومحبة الله تعالى :

الحب فيه حارت العقلاء هو قوة للمرتجى وضياء
وله على الأرواح أكبر عصمة وهو الامان وللنفوس وقاء
فاذا عشقت الله عشقا صادقا كن بعد ذلك صاح كيف تشاء
الحب ان ملك النفوس أعزها والعاشقون بربهم علماء
فاذا اتقينا الله جل جلاله قضيت حوائجنا وسال الماء
ان المريد اذا صفت اخلاقه لم يبق فيه من الصفاء رياء
واذا هو اتخذ المهيمن جاهه فمقامه بين الرجال سماء
والأصل فى الدنيا المحبة والهدى لولا الهدى لم تخلق الاشياء

وفى التعلق بالله تعالى واستدرار فضله سبحانه ، وهو فضل لايتناهى يقول رضى الله عنه :

ان ذات الحبيب قد غمرتنى ودرست الغرام من معناها
عزتى عزة الكواكب لكن زدت بالعقل والهدى من علاها
فوق نجم السماء وطدت رأسى وتلاشيت عندها من سناها
ان أمنيتى فنائى بحبى وهو نعم البقاء فى معناها
لا أبالى بالكون فى أى أمر انما الكون كان من مقتضاها
كل روح تفرغت لرضاه سعدت بالقبول من مسعاها
وشراب الرجال كان من الماء ولكن شرابنا من سناها
ان روحا خافت من الله حقا واستغاثت به رأته رجاها
قبلتى فى الصلاة ساعة وقت كم مصل بعد الصلاة تلاهى
انما قبلتى جميع حياتى هى ذات الاله لن أنساها
مسائى مع اليقين نهار ونهارى سعادة برضاها

هذا ، وليعلم السادة القراء ، أن روح المؤمن لا تتزكى فى جنب الله، وتترقى فى مراقى اليقين ، الا بالتربية الصحيحة ، على يد عارف بالله ،

يصفى النفس من كدوراتها البشرية ، التى تعكر صفوها النورانى ، ولهذا فرض الله على فريق من العلماء الربانيين الدعــوة الى الله تعالى فى قــوله الكريم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ، وكما ان صحبة الاشرار تورث الشر فان صحبة الاخيار تورث الخير ، فقد روى الامام البخارى فى صــحيحه قوله صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح كصاحب المسك ، اما ان يحذيك أو تبتاع منه أو تجد ريحا طيبة » يحذيك أى يعطيك ،وتبتاع منه أى تشترى ، وحقا ما يقوله بعض الحكماء :

والروح كالريح ان مــرت على عطــر

طابت وتخبث ان مــرت عــلى الجيف

وقد تتواجد الأرواح من أثر مذاقاتها النورانية فتقهر الأجساد على حركات لا ارادية ، فيتمايل الجسد ، أو تبــكى العين ، أو يئن المؤمن ، أو يتأوه ، فيعيب الناس على المتواجدين مثل هذه الظواهر ، وهم محذورون فيها ، ومتهدرون عليها من غير تكلف ولا تعمل بل هو من خضوع الاجساد لسلطان الارواح اذا قويت •

والمطلع على كتب السنة ، يرى انه وقع من بعض السادة الصــحابة التواجد ، ولم ينكره عليهم صلى الله عليه وسلم ، واليكم مثــلا ما رواه الامام أحمد فى مسنده عن الامام على كرم الله وجهــه قا ل: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم أنا وجعفر وزيد ، فقال صلى الله عليه وســلم لزيد ، أنت مولاى فحجل (أى خطا على رجل واحدة) فقــال لجعفر ، اشبهت خلقى وخلقى ، فحجل ، ثم قال لى ، انت منى ، فحجلت •

والقرآن الكريم أثبت وقــوع المواجيد فى مثل قوله تعالى (وخر موسى صعقا) وقوله تعالى (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عــرفوا من

من الحق) وقوله تعالى (خروا سجدا وبكيا) وقوله تعالى (فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) .

على أن التواجد يكون غالبا مع أهل البدايات ، فاذا كمل المؤمن فى تربيته ثبت وصارت له قوة على احتمال المنازلات ، وقد قيل للامام أبى القاسم الجنيد : مالك لا تتواجد بينما يتواجد أصحابك فقال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

وينصحنا الامام أبو مدين التلمسانى رضى الله عنه الا نعيب التواجد لأن المتواجدين معذورون فيه ، ويقول فى تعليله :

فقل للذى ينهى عن الوجد أهله   اذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
اذا اهتزت الارواح شوقا الى اللقا   ترقصت الاشباح يا جاهل المعنى
اما تنظر الطير المقفص يا فتى   اذا ذكر الاوطان حن الى المغنى
يفرج بالتغريد ما بفؤاده   فتضطرب الاعضاء فى الحس والمعنى
ويرقص فى الاقفاص شوقا الى اللقا   ويطرب أرباب العقول اذا غنى
كذلك أرواح المحبين يا فتى   تهززها الاشواق للعالم الاسنى
أنلزمها بالصبر وهى مشوقة   وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
فيا حادى العشاق قم واحد قائما   ودندن لنا باسم الحبيب وروحنا
وصن سرنا فى سكرنا عن حسودنا   وان انكرت عيناك شيئا فسامحنا
فانا اذا طبنا وطابت قلوبنا   وخامرنا خمر الغرام تهتكنا
فلا تلم السكران فى حال سكره   فقد رفع التكليف فى سكرنا عنا
وسلم لنا فيما [illegible]   اذا غلبت اشواقنا ربما بحنا
[illegible]

أما سيدى العارف بالله الشيخ العز بن عبد السلام ، شيخ الاسلام في زمانه فيقول رضى الله عنه فى تعليل التواجد :

ما فى التواجد ان حققت من حرج ولا التمـايل ان اخلصت من باس
راح وآكؤسها الارواح فهى على قدرالكؤوس تريك الصفوفى الكاس
حاد يذكرك العهـد القـديم وان تقادم العهد ما المشتاق كالنـاسى
فليس عار اذا غنى له طــربا يئن بالبـاس لا يخشى من الناس

ويفسر بعض العـارفين ما جاء فى البيتين الاخيرين فيقـول : سبب ضطراب الانسان بالصوت الحسن ، ان الروح تتـذكر لذيذ خطاب يوم (ألست بربكم) حين أخـرجت من صلب آدم وخوطبت بذلك فتحن لما تتذكر من لذيذ الخطاب .

اللهم اجعلنا بفضلك من عبادك الصالحين الذين تختصهم برحمتك من بين عبادك المؤمنين وتنوه بقدرهم عندك فى قولك الـكريم (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) .

— ١٤ —

« يا حسن ، أنت حسن وحسن ، وقد روى بسند حسن ، عن الحسن البصرى ، عن الحسن السبط ، عن أبى الحسن علـى بن أبى طالب ، أن أحسن الحسن الخلق الحسن ، ويكفيك فى خلقك انك أحسن الحسن ، فكن مسرورا دائما ، وان لم تجده فاخلقه فى نفسك لتفوز » .

جاءتنى هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى نور الله ضريحه ، وقد داخلنى حرج كبير فى نشرها ، لأنها تضمنت حسن ظن شيخى فى شخصى الضعيف ، وقد كنت حين تلقيتها منه فى شرخ شبابى ، ولكنى قصدت بنشرها وجه الله فى الدعوة الى الخلق الكريم ، الذى يعمل السادة الصوفية الصادقون على بثه فى نفوس تلاميذهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وقد بلغ من عنايتهم بمكارم الأخلاق أنهم عرفوا التصوف فقالوا انه هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى .

وسندهم فى ذلك التعريف سند قوى ، لان الصوفى الصادق يتأسى بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كلمتها الجامعة : كان خلقه القرآن .

ومعلوم أن القرآن الكريم دعا الى كل خلق سنى ونهى عن كل خلق دنى ، وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مستوى خلقه الغاية التى أثنى عليها رب العزة فى قوله الكريم (وانك لعلى خلق عظيم) وفى صيغة الآية من التأكيد ما فيها ، ومن أصدق من الله قيلا .

ولا عجب أن يبلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكارم الاخلاق تلك الغاية لان الله تولى تربيته ، وهيأه ليكون أسوة حسنة للناس لذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ويقول « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . كما يقول صلوات الله عليه وعلى آله « انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » ويقول المغفور له العلامة رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب :

« اتفقت الأخلاق ، والعوائد ، والشرائع ، والأحكام ، على أن مكارم الأخلاق منحصرة فى قوله صلى الله عليه وسلم (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وأن هذا الحديث قاعدة عظيمة فى الدين ، لأن الرجل الصالح المستقيم الحال ، لا يقتصر على الكف عن فعل الشر ، بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف ، فمن لم يضع المعروف فى موضعه مع التمكن منه لا يعد صالحا فالاستقامة تنهى عن الشر ، والصلاح يأمر بالخير .

ثم أورد سيادته لبعض الحكماء قوله :

كل الامور تبيد عنك وتنقضى الا الثناء فانه لك باق
لو اننى خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الاخلاق

وأورد لآخر قوله :

ليس دنيا الا بدين وليس الدين الا مكارم الاخلاق
انما المكر والخديعة فى الناس هما من خصال أهل النفاق

وقد قال الامام زروق — رضى الله عنه — وهو من أئمة الصوفية :

« أصول الخير ثلاثة — التواضع — وحسن الخلق — والنصيحة »

فالتواضع تتبعه ثلاث : الانصاف من نفسك ، وترك الانتصاف لها ، وخدمة المؤمنين .

« وحسن الخلق تتبعه ثلاث : العدل فى الرضا والغضب ، والقصد [illegible]نسب ، والخشية فى السر والعلن » .

« والنصيحة تتبعها ثلاث : العمل الصالح ، ولعلم الصحيح ، واتباع الحق فى كل حال » .

وانك أيها القارىء العزيز ، لتجد فيما قاله سيدنا جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة ، أثر الاسلام فى تهذيب الاخلاق واضحا بينا ، فقد قال له فيما قال :

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف » .

« فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان » .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء » .

« ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة » .

« وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام (وعدد عليه أمور الاسلام) فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه ، على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

« فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك .

وهى صورة تريك النقيض ، حسن الخلق وسوء الخلق ، فليس من حسن الخلق أن يحسن المرء معاملة الناس ويغفل عن معاملة الله ، والله أولى

له وأقرب اليه ، وحسن صلته بالله يؤدى به الى حسن خلقه مع الناس ولا عكس .

وقد سألنى يوما ، الصديق الصالح كريم الخلق السيد /سالم جمعة ، عن العلة فيما نشاهده من حسن معاملة الأجانب ، وسوء معاملة أكثر المسلمين ، فتحيرت فى اجابته مدة طويلة ، حتى عثرت على العلة ، وأنا أطالع الأحاديث النبوية الصحاح فى كتاب تيسير الوصول ، فقد وقفت فيها على حديث يقول فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الشيطان أيس أن يعبد فى بلدكم هذا ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم وسيرضى به » ، ويؤخذ من ذلك الحديث الشريف أن الشيطان لا يستطيع التسلط على المسلمين فى عقيدة التوحيد ، ولكنه يتسلط عليهم فى أخلاقهم ، فيتخلقون باخلاقه السيئة من الحسد والغل والكبر ، والغش ، والنفاق ، والرياء ، واتباع الباطل ، ومجانبة الحق الخ .. فيسيئون للناس ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، وفاتهم أن الدين المعاملة ، أما غير المسلمين فقد رضى منهم الشيطان فساد العقيدة فتركهم وشأنهم فى معاملة الناس ، فأحسنوا المعاملة كسبا للدنيا ، وقد وصفهم الله تعالى فقال (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) .

وقد قال سيدى القطب الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى : يا على طهر ثيابك من الدنس ، تحظ بمدد الله فى كل نفس ، فقلت يارسول الله ، وما ثيابى ، فقال ، اعلم أن الله تعالى كساك حلة الايمان وحلة المعرفة ، وحلة التوحيد، وحلة المحبة ، قال ففهمت حينئذ قوله تعالى : وثيابك فطهر ، فمن عرف الله صغر لديه كل شىء ، ومن أحب لله هان عليه كل شىء ، ومن وحد الله لم يشرك به شيئا ، ومن آمن بالله أمن من كل شىء ومن أسلم لله قلما يعصيه ، ومن عصاه اعتذر اليه ، وان اعتذر اليه قبل عذره .

وقد قدم البصرة أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، فدخل جامعها ، فوجد القصاص يقصون ، فاخرجهم ، وكان يقول ، هذا بدعة ، هذا منكر،

حتى جاء الى الحسن البصرى فقال : يا فتى انى سـائلك عن شيء ، فان أجبت عنه أبقيتك ، والا أخرجتك كما أخرجت أصحابك ، وكان قد رأى عليه سمتا وهديا ، فقال سل عما شئت يا أمير المؤمنين فقال كرم الله وجهه، ما صلاح الدين ، وما فساده ، فقال الحسن ، صلاحه الورع ، وفسـاده الطمع ، قال اجلس ، فمثلك يصلح أن يتكلم مع الناس .

وأنت ترى من اجابة الامام الحسن البصرى أن الورع يورث صاحبه حسن الخلق مع الله ومع الناس ، وأن الطمع يجر صاحبه الى سـوء الخلق الذى نهى الله عنه .

والدين عقيدة ، وأحكام ، وتطبيق ، والتطبيق شكل وموضوع ،وقد يتم تطبيق العبادات شكلا بالعادة ، فلا يثمر فى قلب العابد ثمرة العبادة ، ومن هنا وجب أن تقوم التربية الروحية بين المسلمين ، ليأخذ المسـلم دينه علما وعملا وحالا ، من ورثة الاخلاق النبوية ، وهم الذين اصطلح عـلى تسميتهم السادة الصوفية ، وهم الذين نالوا علوم الدراسة ،وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة وقد قال فيهم امامنا على كرم الله وجهه : عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل .

واذا أردت أيها القارىء العزيز ، مزيدا من شرح حالهم ، فى تربيـة أتباعهم ، فاستمع الى ما قاله أمير المؤمنين على كرم الله وجهه عنـد تلاوته (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكـر الله) فقد قال فابدع كما هو شأنه فى كل ما قال :

ان الله سبحانه وتعالى ، جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعـد الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد به بعـد المعاندة ، وما برح لله — عزت آلاؤه — فى البرهة بعد البرهة ، وفى أزمان الفترات ، عبـاد ناجاهم (أى ألهمهم) ، وكلمهم فى ذات عقولهم ، فاستصحبوا بنور يقظة فى الاسماع والأبصار والأفئدة ، يذكرون بأيام الله ، ويخـوفون مقامه ، بمنزلة الأدلة فى الفلوات ، من أخذ القصد حمدوا اليه طـريقه ، وبشروه

بالنجاة ، ومن أخذ يمينا وشمالا ذموا اليه الطريق وحذروه من الهلكة ، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات ، وأدلة تلك الشبهات .

وان للذكر لأهلا ، أخذوه من الدنيا بدلا ، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه ، يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله ، فى أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه ، فكأنهم قطعوا الدنيا الى الآخرة وهم فيها ، فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ فى طول الاقامة فيه ، وحققت القيامة عليهم عداتها ، فكشفوا غطاء ذلك لاهل الدنيا ، حتى كانهم يرون مالا يرى الناس ، ويسمعون مالا يسمعون .

فلو مثلتهم لعقلك فى مقاومهم المحمودة ، ومجالسهم المشهودة ،وقد نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم فى كل صغيرة وكبيرة ، أمروا بها فقصروا عنها ، أو نهوا عنها ففرطوا فيها ، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم ، فضعفوا عن الاستقلال بها ، فنشجوا نشيجا ، وتجاوبوا نحيبا، يعجون الى ربهم من مقام ندم واعتراف ـ لرأيت أعلام هدى ، ومصابيح دجى ، قد حفت بهم الملائكة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وفتحت لهم أبواب السماء ، وأعدت لهم مقاعد الكرامات ، فى مقعد اطلع الله عليهم فيه،فرضى سعيهم ، وحمد مقامهم .

يتنسمون بدعائه روح التجاوز ، رهائن فاقة الى فضله ، وأسارى ذلة لعظمته ، جرح طول الأسى قلوبهم ، وطول البكاء عيونهم .

لكل باب رغبة الى الله منهم يد قارعة ، يسألون من لا تضيق لديه المنادح (المواضع الواسعة) ولا يخيب عليه الراغبون .

فحاسب نفسك لنفسك ، فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك .

وهذا الوصف ينخلع قلب القارىء له مرة واحدة ، فكيف بالملازم لأحد هؤلاء الأئمة يسمع منه ، ويأخذ عنه ، لا شك أنه يتحول من الظلمات الى النور ، فتخلص نفسه من السيئات والشرور ، ويتحلى بمكارم الأخلاق وقد تلحظه عناية ربه فيصير اماما من أئمة الهدى ، وما ذلك على الله بعزيز .

وحين كان أسلافنا متحلين بمكارم الأخلاق ، كان للاسلام بهم أكبر دعاية عملية ، فدخل الأعاجم فى الاسلام عن اعجاب به ، وبرز من هؤلاء الاعاجم أجلاء فى علوم الدين والتربية الروحية ، كما هو معلوم .

لذلك نحن فى حاجة لبث الاسلام الصحيح فى نفوس أهله ، قبل أن ندعو اليه غيرهم ، فان رأى غيرهم منا مسلكا مشرفا ، أغنانا الحال عن المقال ، وحال واحد فى ألف خير من كلام ألف فى واحد .

ونحن مأمورون من الله ان نكون شهداء لله ولو على أنفسنا ،ولاشبهة اننا انحرفنا فى زماننا هذا عن خلق المسلمين الأوائل ، فتعادينا ، وتحاسدنا وبخلنا ، وفرطنا فى واجباتنا الخاصة والعامة ، واعتدى بعضنا على بعض ، ففشت فينا الغيبة والنميمة ، ولو كانت عبادتنا حقة لاثرت فى قرارة نفوسنا وأصلحتها ، والعبادات ليست مقصودة لذاتها ، وانما هى وسيلة لتهذيب النفوس ، واصلاح القلوب ، وعلاج النقائص ، والدين منذ قام لم تتغير أحكامه ، انما تغيرت نفوسنا ، لاننا لم نأخذه بقوة وصدق ، بل أخذناه شكلا لا روحا ، وفاتنا أن الله غنى عنا وعن طاعتنا ، ولكن تعبدنا بالطاعات لصلاح المجتمع ، وليسعد الناس فيما بينهم على أساس الاخوة والتعاون ، فلا يقوم بينهم التنافر أو التخاذل فى أفرادهم أو طوائفهم .

وقد زرت الريف ، بعد غيبة طويلة عنه ، فأحزننى ما رأيت ، من الشقاق والخلاف والاختلاف ، بين الأخوة ، وأبناء العمومة والجيران ، ولم أعهد مثل هذا من قبل ، ولم أجد بعد البحث من علة ، الا أن أهل الاصلاح بين الناس قلوا فاشتدت الخصومات لأسباب تافهة ، وقدأسعدنى التقاطع والمخاصمة ، وقيام الخلافات يضعف التربية الروحية ، وقدأسعدنى أنى فى أيام معدودات أزلت الخلافات بالنصيحة الأمينة ، فاستجاب القوم لى عن فطرة سليمة ، وتصافى المتخاصمون ، وتزاور المتقاطعون ، فلو أن أهل الخير تتبعوا هذه الخلافات فى نشأتها ، وأرادوا اصلاحها من قلوب خالصة ، بعيدة عن الهوى والغرض ، لعاش القوم فى صفاء ووفاء وأخذ الخلف عن السلف حسن الخلق ، والخلاف شر ومفسدة فى المجتمع والصلح

خير ومرحمة ولهذا حض الله على الاصلاح بين الناس (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) .

وقد تعرض لآفاتنا الخلقية ، أستاذى العارف بالله ، الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه فى ارتجاله الهاما ، وكنت قد صحبت معى الى حفل صوفى ، ابن شقيقتى ، الشاب التقى ، الأستاذ عبد الحميد أحمد الملطاوى ، وكان عندئذ طالبا فى كلية التجارة ، وهو الآن مراقب عام الايرادات بالميزانية ، فسأل الشيخ أن يرتجل على قول القائل :

مررت على المروءة وهى تبكى ... فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى ... جميعا دون خلق الله ماتوا

وكان مما قاله الشيخ رضى الله عنه فى كلام طويل من الهامه الفورى :

مررت على المروءة وهى تبكى ... فقد قلت من الدنيا الهداة
اذا فقد المروءة أى قوم ... فليس لهم من الدنيا حياة
وان مروءة من غير دين ... ضلال لا تقول به الثقاة
تركنا حد مولانا وراء ... تنازعنا بذاك النازعات
وقلدنا سوانا عن ضلال ... وقد لعبت بأكثرنا الغواة
اذا وعظ الورى الوعاظ يوما ... فتسخر بالكلام الناشئات
وكم رمضان نحييه بلهو ... لياليه بإثم ساهرات
نخج البيت روادا ولكن ... قلوب بعد ذاك مخربات
وكم ذا ندعى نعطى زكاة ... وليس لنا مع المولى زكاة
نبيع ونشترى لكن حراما ... وأبواب الحلال معطلات
وكم يفشو الربا فينا جهارا ... وتعجبنا الفتاوى الفاسدات
محاكمنا قد امتلأت نساء ... وهل ترضى بكثرتها القضاة
وأخلاق تمزق كل يوم ... ثياب بالضلال مرقعات
وكم داع الى التقوى افتخارا ... وليس له من التقوى صلات
طباع الناس أمست كالأفاعى ... فألينها ملامس لاذعات
وأهل المال فى جهل تساموا ... وأهل العلم ليس لهم حياة
اذا زمن فقدنا الدين فيه ... فأيام السعادة ذاهبات

وقد عجب الاستاذ عبد الحميد والسامعون عن تدفق الشيخ ارتجالا، فقلت لهم لا تعجبوا فانه من عطاء الله لأوليائه ، وقد قال تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) .

ويعلل السيد محمد اقبال فيلسوف الباكستان العظيم ، رحمه الله ، تغيير أحوال المسلمين ، وضعف قوتهم الروحية ، باشتغالهم بالملاهى التى انتشرت بينهم فوقفوا أكثر أوقاتهم عليها ، وتلهوا بها عن التفكر فى أمور الآخرة ، فيقول فيما ترجمه عنه الى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان ، جزاه الله خيرا :

هى المدنيـــة الحمقـــاء ألقت
بهم بين المـــذاهب حائرينـــا
لقد صنعت لهم صنم الملاهى
لتحجب عنـهم الحـرم الأمينـــا

والسيد اقبال لا يعارض المدنية النافعة انما يعارض المدنية الضـارة التى تنسى الناس آخرتهم ، التى خلقوا لها ، وسيردون اليهـا فينبئهم الله بما عملوا .

ويعلل السيد اقبال عدم استجابة الله لدعوات المسلمين فى زماننـا ، بانهم غير صادقين بقلوبهم وأرواحهم مع الله ، ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم ، لأنه تعالى انما يتقبل من المتقين ، فيقول طيب الله ثراه على لسـان الحق جل شأنه :

عطـايانا سـحائب مرســلات
ولـكن ما وجـــدنا الســائلينا
ولو صـدقوا وما فى الأرض نهر
لأجـــرينا السـماء لهم عيــونا

ولا عذر اليوم ، لمتخلف عن ربه ، فان العلم يدخل علينا مساكننا من وراء الجدر ، والوعظ مستمر فى آذاننا ليل نهار ، وما علينا الا أن نفتح له قلوبنـا التى صدئت بكسب السيئات ، وباب التوبة مفتوح الى يوم

القيامة ، فلنتب عما مضى ، ولنبدأ حياة جديدة فى صلتنا بربنا ، ليغفر لنا خطايانا ، ويبدل سيئاتنا حسنات ، فانه تعالى القائل (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) واذا أراد الانسان أن يعرف قدره عند ربه فلينظر الى مقام ربه عنده ، فان خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى كما وعد الله تعالى ، وان طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ونعوذ بالله منها .

وانى أدعو بما كان يدعو به شيخنا الأكبر القطب سيدى الشيخ محمد أبو خليل ساكن ضريحه بالزقازيق رضى الله عنه :

اللهم بجاه نبيك المصطفى ، وحبيبك المجتبى ، ووليك المرتضى ، وأمينك على وحى السما ، سيدنا ومولانا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نسألك أن تغفر ذنوبنا ، وتستر عيوبنا ، وتكتب لنا عندك براءة وعتقا من النار ، وأمنا من العذاب ، وجوازا على الصراط ، وطريقا الى الجنة وعاقبة الى الخير ، اللهم توفنا يا الهى بكرمك مسلمين مؤمنين موحدين وألحقنا بالصالحين ، آمين .

وقد دخل فرقد ومحمد بن واسع على رجل يعودانه ، فجرى ذكر العنف والرفق ، فروى فرقد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قيل له : على من حرمت النار يارسول الله ، قال « على الهين اللين السهل القريب » فلم يجد محمد بن واسع بياضا يكتب ذلك فيه ، فكتب على ساقه

وأخيرا وليس آخرا لا تنس ان الله تعالى وصف حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال مانحا له الشرف كله (وانك لعلى خلق عظيم) .

— ١٥ —

.. « ولكن ربك رب الكون الذى خلقه ودبره ، وقام بأسبابه من غير سبب ولا الزام ، فاذا فزت وقرت عيناك ، فاشكر الله ، والصبر أولى ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فانك انما تنتظر نفاذ القضاء ، وماقضاه لك خير كبير ، ورزق كثير ، ونعمة وافية ، وقلب راض .. والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

وهكذا يوجهنى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — الى ما يقول به السادة الصوفية ، من أن المؤمن لا يحصل له حقيقة الايمان بربه الا بامرين : الامتثال لامره ، والاستسلام لقهره .

والامتثال لامره سبحانه ، يقتضى من المؤمن اداء ماتعبده الله به ،وفى اداء العبادات يلقى المؤمن بعض المشقات التى تستعصيها النفس فى البداية، حتى اذا استقرت عليها ، تعودتها واستحلتها فى مذاقها ، فساعدت حلاوة المذاق على استباق الخيرات فاستنارت البصيرة ، وأدركت بنورهاماحجب عن عوام المؤمنين .

وتلك الأنوار التى تضىء بصائر الخواص ، تعينهم على احتمال ما يتعرضون له من المكاره التى قدر الله تعالى أن تصيبهم ، لحكمة يعلمها سبحانه ، وتكون خافية عن عباده .

وفى هذا يقول القطب سيدى ابن عطاء الله السكندرى — رضى الله عنه — : « انما يعينهم على حمل الاقدار ورود الأنوار ، وذلك أن الأنوار اذا وردت كشفت للعبد عن قرب الحق سبحانه وتعالى منه ، وان هذه الاحكام لم تكن الا عنه ، فكان علمه بان الاحكام من سيده سلوة له ، وسبب لوجود صبره ، ألم تسمع لما قال الله سبحانه وتعالى لنبيه — صلى الله عليه وسلم — :

« واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » .. أى ليس هو حكم غيره فيشق عليك ، بل هو حكم سيدك القائم باحسانه اليك ، ولنا فى هذا المعنى :

وخفف عنى ما ألاقى من العنا
بانك انت المبتلى والمقدر
وما لامرىء عما قضى الله معدل
وليس له منه الذى يتخير

ثم قال سيدى ابن عطاء الله : « ومثال ذلك لو ان انسانا فى بيت مظلم ، فضرب بشىء ، ولا يدرى من الضارب له ، فلما أدخل عليه مصباح، نظر فاذا هو شيخه أو أبوه أو أميره فان علمه بذلك مما يوجب صبره على ما هنالك .. »

وقد وقع لى مرة أنى كنت مرشحا للدرجة الرابعة ، فلم أظفربالترقية اليها ، فضاق صدرى بفواتها ، ورأيت أن أزور سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — نور الله ضريحه — وكان على قيد الحياة ، لاخفف برؤيته الالم عن نفسى ، فركبت الترام قاصدا لقاءه فاشتد ضيق صدرى فى الطريق وما كدت أصل الى منتصف الطريق ، حتى وعظنى واعظ الله فى قلبى ، واذا بهاتف يهتف بى : ده ده انت هاتعمل زى اللى بيقول فيهم ربنا « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » .

فتنبهت من غفلتى وبانت لى زلتى ، فاستغفرت ربى وسألته التوبة ، فذهب الحرج عن صدرى ولما وصلت الى سيدى الشيخ سلمت عليه وقصصت عليه ما جرى فابتسم — رضى الله عنه — وقال لى : « خواطر القرآن عظيمة جدا » أى الزم ما وعظك به ربك فى كتابه الكريم .

وقد قال همام ، وكان رجلا عابدا ، لمولانا الامام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — يا أمير المؤمنين صف المتقين حتى أنظر اليهم فتثاقل الامام عن اجابتــه ، ولــكن ألح عليــه .. فقال له فيما قال — كرم الله وجهه — :

« نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء ، ولولا الأجل الذى كتب لهم ، لم تستقر أرواحهم فى أجســادهم طرفة عين شوقا الى الثواب وخوفا من العقاب » .

« عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها ، فهم معــذبون ، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة ، وأجســادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم ، ارادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.

« فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وعلما فى حلم ، وقصدا فى غنى ، وخشوعا فى عبادة وتجملا فى فاقة وصبرا فى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا عن طمع » .

وقد زرت سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — فى مرضه الأخير ، فدلنى مظهره على شدة مرضه فاشــتد ألمى ، وأحس الشيخ بنور بصيرته ، انى متألم لما يجــد ، فأراد أن يسرى عنى .. وأن يعلمنى الرضا بالمقدور فى كل حال ، فقال — رضى الله عنه — فى صوت خافت من الاعياء ، له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ، والملك يشمل الخير والشر ، اشارة منه سبحانه ، الى انه يجب أن يحمد فى الخير والشر على السواء .

وهذا الذى وجهنى اليه شيخى بمذاقه العالى ، ييسر لنا فهم ما قال به امامنا على — كرم الله وجهه — نزلت أنفسهم منهم فى البــلاء كالتى نزلت فى الرخاء .

وقد حدثنى أحد أصدقائى الصالحين ، ان شيخنا الأكبر وصاحب طريقتنا قطب عصره ، سيدى الحاج محمد أبو خليل ، الحسينى نسبا ، وساكن ضريحه الأنور بالزقازيق « انتقل الى رضوان الله فى يونية ١٩٢٠» أصابه مرض فى ساقيه ، فتألم المريدون لمرضه ، فقال لهم مسليا ومعلما : ان ساقى حملتانى ثمانين عاما ، ولم تشكوا منى مرة ، فكيف أشكو اذا مرضتا أياما قصيرة .

وتذكرنى فلسفة شيخنا الاكبر هذه بفلسفة صوفى من الاقدمين ،عاد تلميذا له كان مريضا فقال التلميذ لشيخه شاكيا : انى ملازم فراشى منذ مائة وعشرين يوما ، مستطيلا بذلك مدة المرض ، فقال له شيخه معلما : أحصيت أيام البلاء فهل أحصيت أيام الرخاء .

أقول وما أكثر من يحصى منا على ربه أيام المرض ، وينسى لربه أعوام الصحة ، واذا أعطي المؤمن العدل من نفسه ، فيجب أن يشكر لربه فى الرخاء وأن يصبر لحكمه فى البلاء .

وفى قول سيدى الشيخ عبد السلام : ولكن ربك رب الكون الذى خلقه ودبره ، وقام باسبابه من غير سبب ولا الزام ، تعليم باللجوء اليه سبحانه — فى كل أمورنا لأننا عبيد احسانه ، أوجدنا فضلا من العدم، ورزقنا كرما من غير حول منا ولا قوة ، وجاد علينا من جوده ، فحبب الينا الايمان وزينه فى قلوبنا وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان .. واذا نحن تعرضنا للبلاء فى هذه الحياة الدنيا ، فانما ذلك لخيرناواسعادنا، وقد قال تعالى « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .ونحن لاندرك حلاوة العافية الا ان ذقنا مرارة البلاء .

واذا جاءنا البلاء تضرعنا اليه — سبحانه — بالدعاء ، مفتقرين اليه، ومظهرين العبودية بين يديه ، ومقرين بضعفنا له ، ومعترفين بسلطانه علينا .. ونراه سبحانه عند البلاء أقرب الينا من كل قريب ، وأحب الينا من كل حبيب ، وأيجع فى كشف ضرنا من كل طبيب ، فاذاكشف الضر عنا شكرناه تعالى فى السراء التى أعقبت الضراء .. فبان بالضدين فضله ، وبرز

بالنقيضين لطفه ، فقوى يقين العبد فيه واعتماده عليه ، واتجاهه اليه ، وهى درجات لا ينالها المؤمن بالعبادات الخالية من المذاق ، فسبحان اللطيف الخبير الرءوف الرحيم .

تعرف سبحانه الى عباده بالرحمة فى قوله الكريم « بسم الله الرحمن الرحيم » لئلا ييأس مذنب من مغفرته ، ولا مبتل من شفائه ولا فقير من سعته ، ولا جاهل من تعليمه ، ولا مكروب من تفريجه، وعلمنا — سبحانه — أن ندعوه ليستجيب ، والدعاء مخ العبادة كما جاء فى الحديث الصحيح .

ويفرق سيدى ابن عطاء الله ، بين عوام المؤمنين وخواصهم فى صلتهم بربهم فيقول : « لا يزال اضطرار الولى لربه ، لتحققه بفقره ولا يكون مع غير الله قراره ، لاستيحاشه مما سواه ، فهو مستأنس بقربه ، طلق اللسان بذكره ، بخلاف العامة فان اضطرارهم بمثيرات الاسباب فاذازالت زال اضطرارهم وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم .. »

قد سمع سيدى ذو النون المصرى — رضى الله عنه — برجل صالح فى جبل المقطم فذهب اليه زائرا ، وأقام معه بعض الوقت ، فلما أراد الانصراف سأل ذلك الصالح دعوة فقال الصالح : آنسك الله بقربه ، فقال سيدى ذو النون : زدنى ، قال : من آنسه الله بقربه أعطاه أربعا بغير أربع: علما بغير طلب ، وغنى بغير مال ، وعزا بغير عشيرة ، وأنسا بغير جماعة .

ومقام الرضا بقضاء الله ، مقام شريف ، وهو من مقامات اليقين الكبرى ، ودون الوصول اليه ، جهاد كبير ، وصبر جميل ، وذكر كثير وسهر طويل ، ولا تبدو آيات الله مكشوفة ، الا لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويصفهم فى الهامه المشرق ، أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فيقول — رضى الله عنه — :

هم الجواهر طبعا لا يغيرهم   مر الزمان وهم من أهله الدرر
ان يشبعوا حمدوا أو أفقرواصبروا   أو يحزنوا كتموا أو يوهبوا شكروا
لهم سمات مع الأملاك سائرة   وفوق هام سماء المجد قد نظروا
ملائك الله ترعاهم وتتبعهم   والفضل يحضر فيهم أينما حضروا

من أمهم كان فضل الله غامره وحيث منزلهم يستنزل المطر
أزكى القلوب وأسماها وأشرفها من بالهداية والايمان يأتزر
أن النفوس اذا زادت محبتها في ربها واستنار القلب والبصر
صارت ملائك تصفو من كدورتها حتى ترى كل شيء ما به كدر
والعاشقون لهم في الحب ان صبروا روض من العز لم يذبل له ثمر
مياهه الذكر والتقوى ينابعه والعلم والدين والآيات والصبر
خل المعارف للعشاق تقطفها ان كنت منهم فسر واسهر كما سهروا

وأنت ترى مما تقدم ، ان السادة الصوفية يتعلقون بالله وحده ، ويركنون اليه في جميع أمورهم ، مع التفويض اليه سبحانه فيما يختار لهم ، والرضا بالمقدور في كل حال وهم لذلك يرفعون همتهم عن الخلق ، ولذلك قال سيدى القطب الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلي — رضى الله عنه — انى أيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس من نفع غيرى لنفسى ، ورجوت الله لغيرى ، فكيف لا أرجوه لنفسى •

وكذلك قال — رضى الله عنه — : نظرت الى الخلق ، فوجدتهم على قسمين : أعداء وأحباء فنظرت الى الاعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكونى بشوكة لم يرد الله بها ، فقطعت نظرى عنهم ، ثم تعلقت بالأحباء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشيء لم يرد الله به فقطعت اياسى منهم ، وتعلقت بالله تعالى ، فقيل لى انك لن تصل الى حقيقة هذا الأمر حتى لا تشك فينا ، وتيأس من غيرنا ، ان يعطيك غير ما قسمناه لك •

وقال مرة أخرى لما سئل — رضى الله عنه — عن الكيمياء ، فقال : أخرج الطمع من قلبك ، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسمه لك ، وليس يدل على شعار العبد ، كثرة عمله ، ولا مداومته على ورده ، وانما يدل على نوره غناه بربه ، وانحباسه اليه بقلبه وتحرره من رق الطمع ، وتحليه بحلية الورع وبذلك تحسن الأعمال ، وتزكو الاحوال ، قال تعالى:

« انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

فحسن الأعمال انما هو بالفهم عن الله تعالى والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله .. والاكتفاء به ، والاعتماد عليه ، ورفع الحوائج اليه، والدوام بين يديه . وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى .

وقد قال لنا شيخنا العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — انه وقع له ضيق مالى يوما ، فمد يده الى ورقة أخرجها من جيبه . وكتب فيها : من كان رزقه على الله فلا يحزن ، وطوى الورقة ، وما هو الا وقت قصير ، حتى جاءه شخص وسلم عليه ، وقدم لسيدى الشيخ مبلغا كان دينا عليه للشيخ ، ولم يكن فى بال الشيخ واعتذر المدين من تأخره فى الاداء ، وهكذا فرج الله ضيق الشيخ من مال كان له عند بعض الناس فجاء به المدين عند احتياج الشيخ اليه ، ولم يسأل الناس شيئا .

اللهم ارزقنا من حبك ، ما يتناسب مع احسانك الينا ، فان نعمك علينا لا تعد ولا تحصى ، فوجب أن يكون حبنا لك شديد القوى ، بعيد المدى ، فلا ينتهى أفقه الا بالسكون مع المحبوب الاعلى .. واجعلنا يا الهى من الشاكرين عند الرخاء والصابرين عند البلاء ، فتشهد قلوبنا العطاء فى البلاء، كما تشهده فى الرخاء ، والطف بنا فيما يجرى به القضاء فيكون اللطف مظهرا لرحمتك فانك رحيم ودود على الدوام وقد قلت جل شأنك «ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » .

— ١٦ —

« فان أنا أبصرت فلا أبصر الا من ضوء روحك الطاهرة الطيبة التى ينعكس نورها على قلبى الكثيف ، فيرى قلبك النقى السليم ، فيحمد الله سبحانه وتعالى على ذلك الاخلاص ، الذى يدين به قلبى . فيدعو الله أن يديم عليكم نعمته ، وأن يرزقكم الحسنى وزيادة ، وأن يجعلنا جميعا من عباده المخلصين الذين لا يرون سواه » .

وبأسلوبه الحكيم هذا ، كان شيخى العارف بالله ، سيدىعبدالسلام الحلوانى — رضى الله عنه — يربينى فى جنب الله ، فهو يمتدح الصفات التى رجا أن أكون متصفا بها ، ومحافظا عليها ، ويعلمنى فى قالب التشجيع السعى اليها . ويرشدنى بحاله وماله الى التواضع لله ، والافتقار اليه سبحانه ، مهما بلغ المؤمن فى طاعته ، ويود شيخى أن يكملنى فلا أرى لنفسى عملا،بلأرى المنة لله تعالى وحده (ومابكم من نعمة فمنالله) وعندئذ لا أزكى نفسى ، أو أفاخر غيرى « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وانما يتحدث المؤمن بنعمة الله عليه « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » ، وما أبدع ما يقولسيدىالعارف بالله ابن عطاء الله السكندرى: اذا أراد أن يظهر فضله عليك ، خلق فيك ونسب اليك » .

ثم ان شيخى طيب الله ثراه ، ينسب لنفسه كثافة القلب ، مع ما بلغه من ولاية بفضل الله عليه . وذلك بشهادة شيخه القطب الاكبر . سلطان وقته . ومجدد قرنه .. سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل ، ساكن ضريحه الأنور بالزقازيق ، فانه كان اذا قدم عليه سيدى عبد السلام ، يرحب به فى شوق واعزاز ، ويقول له على مسمع المريدين ، أهلا بالولى الكامل ، كما يقول له : والله العظيم والله العظيم ، أنت قطب .. أنتقطب.

والتواضع لله تعالى ، من شـأن كملة الرجال ، فان شـيخنا الأكبر القطب سـيدى أبو خليل — رضى الله عنه — ورث تلاميذه العظام ذلك التواضع ، وكان أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولـكن أتاه الله ولاية كبرى وعلمه ما لم يكن يعلم من علم الوراثة الوهبى .. الذى فتح الله بابه بتعليم أبى البشر آدم — عليه السلام — وجعله به معلما للملائكة الأطهار ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

وما لى أذهب الى سـيدنا آدم — عليه السـلام — ونبينا الاكرم — صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه — أقرب الينا عهدا وهو الأمى ، الذى بعث فى الأميين ، وغرف العلماء من بحر علمه .. ما ارتوت منه الأجيال المتعاقبة ، ولا زالوا يرتوون ، وما خفى عنهم من علمه ، اضعاف ما ظهر لهم ، وسبحان الله الفعال لما يشاء ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول مخاطبا له — صلى الله عليه وآله — :

• يا أيهـا الأمى حسـبك رتبـة
في العـلم ان دانت بك العلمـاء

كما يقول سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى — رضى الله عنه —) :

تلك المعارف والعـوارف فيهمـو
من بحر منتك العميمة سيب يم

وتواضع مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أشهر من أن يذكر ، وقد قال صديقى العلامة الشيخ الصاوى شـعلان ، فى ذكـرى مولده — عليه الصلاة والسلام — وهو يشير الى تواضعه ، ركب البراق وساير الملائكة ، وعرج به الى السموات العلا وما فوقها ومع ذلك جلس على الحصير وكلم الفقير .

والأولياء ، وهم خواص المؤمنين ، يتأسون به — صلوات الله وسلامه عليه — فى أقواله وأفعاله وأحواله ، لذلك يكونون فى افتقار دائم الى الله تعالى فى كل حال ، وهذا ما يجعلهم فى ترق متزايد من عطاء الله الذى لا ينفد ، أما عوام المؤمنين فلا يظهرون الافتقـار اليه سبحانه الا عنـد

الاضطرار فاذا انفرج كـــربهم ، غفلوا عن افتقارهم بزوال الضرورة التى ألجأتهم اليه جل جلاله .

والسادة الصوفية يتهمون أنفسهم على الدوام ، ويرونها مقصرة فى جنب الله ، مهما علوا فى سلوكهم اليه تعالى ، لان كل مقام أعلى يصـــلون اليه يرون به المقام الادنى الذى تركوه فيجاهدون أنفسهم جهادا مريرا .. ويحاسبونها محاسبة الشريك لشريكه ، فان سولت لهم أنفسهم أن لهم عملا صالحا ، رأوا ذلك ذنبا يستغفرون الله منه ، لذلك قالوا فى حكمهم :شتان بين تائب يتوب من الزلات وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتـــوب من رؤية الحسنات .

وهم فى جهادهم المرير يذلون أنفســـهم لله ، ويترفعـــون عن غيره ، والذلة لله من صفات العبودية ، والعزة من صفات الربوبية ، فمن تجلى عليه الحق — سبحانه — برضاه اتصف بالعزة ، كما قال تعالى « ولله العـــزة ولرسوله وللمؤمنين » .

لذلك يقول بعض العارفين :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى ســـهل
اذا رضى المحبوب صح لك الوصـــل
تذلل له تحظى برؤيا جمـــــاله
تقـــدم والا فالغـــــرام له أهـــل

واذا لم يشهد العارف ربه بعين يقينه ، استنجد بالله من ذل الحجاب ، لذلك قال بعضهم فى مناجاته : الهى مهما عذبتنى بشىء فلا تعـــذبنى بذل الحجاب .

ولا يستطيع المؤمن أن يشـــهد ربه بعين يقينه ، الا بعد مجاهـــدات كبيرة ، يقطع بها العقبات التى تعوقه فى صلته بربه . ويعبر عنها الســـادة الصوفية بالعلائق والعـــوائق ، لان النفس البشرية تميل الى الشـــهوات بطبيعتها وهى أمارة بالسوء بجبلتها ، وهى مأمـــورة شرعا بالـــكف عن الشهوات ، وفى ذلك ابتلاؤها واختبارها ، ويتميز المؤمنـــون بعضهم من

بعض على قدر الهمة فى جهاد النفس بالكف عن الشهوات والجد فى الطاعات ، حتى تصفو من كدوراتها ، وتتطهر من رعوناتها ، فتزول عنها ظلمة الشهوات وتتحلى بأنوار الطاعات فتذوق من مقامات اليقين ، ما شاء الله لها أن تذوق ، وتنزع بمذاقها هذا الى عالم الملكوت الذى منه هبطت بسر الهى وقدرة علية •

وشاء الله — جلت حكمته — أن ينتفع القلب من فعل الجوارح ،كما تنتفع الجوارح من أنوار القلب ، ويعلل الامام الغزالى ذلك بسر العلاقة التى بين عالم الشهادة وعالم الملكوت • فان ظاهر البدن من عالم الشهادة والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته وانما هبوطه الى عالم الشهادة كالغريب ، وكما تنحدر من معارف القلب أنوار وآثار الى الجوارح فكذلك قد يرتفع من أفعال الجوارح أنوار الى القلب •

ولدقة خفايا اليقين ، ولقوة النفس البشرية فى امرتها لابد من الاستعانة فى التربية الروحية بشيخ عارف بالله ممن سلكوا سبيل التصوف حتى نضجوا ، وصاروا أهلا للارشاد فاذا وجد المريد شيخا مقيدا بالشريعة ومؤيدا بالحقيقة ، تتلمذ عليه واستعان به فى مقاومة حظوظه وهواه،وكسب الأنوار الروحية وهى مهمة شاقة على الشيخ ، ولكنه ميسر لما خلق له •

فاذا كان الشيخ ناضجا وعارفا من العارفين بالله ولم ينتفع المريد بصحبته فليس ذلك بقادح فى الشيخ انما يقدح فى استعداد المريد ، أما المريد المطيع والمجد فى ظاهره وباطنه •• فانه يتقدم فى دينه لا محالة لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

وقد قال مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : سلمان منا آل البيت ، وسلمان — رضى الله عنه — كان فارسيا ولكن حسن صحبته، وقوة حجته وشدة ورعه كانت سببا فى نواله هذا الشرف الذى خلده فى الدنيا والآخرة ، وقد كان أبو جهل من صميم قريش لكنه على قربه من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينتفع بشىء فى الدين وذلك نتيجة لسوء مسلكه ، وشدة عناده وقسوة معاداته وقوة حسده ، ونعوذ بالله من أخلاق الشياطين •

ويعين المريد فى الانتفاع من شيخه ، حسن استعداده فى التلقى والاتباع ، وحسن ظنه فى شيخه واعتقاده الراسخ فى كماله ، ولئن لم يكن الشيخ معصوما عصمة الأنبياء ، فهو محفوظ بعناية الله التى يحفظ بها أولياءه ويقول تعالى فى عنايته بهم :

« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » .

ولغة التواضع التى كتب لى بها سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ليست متكلفة ، فقد كان التواضع سجية فيه ، ومع تواضعه كساه الله تعالى وقارا ملحوظا كان يحس به من عرفه ومن لم يعرفه ، وذلك لقوة روحه فى صلتها بالله عز وجل ، حتى لقد شرفنى مرة بزيارته فى الوزارة وبعد انصرافه ، جاءنى رئيسى وكنت معه فى غرفة واحدة ، فقال لى من زائرك هذا الذى ودعته . قلت له : وما سبب سؤالك : قال : أحسست له باحترام ورأيت له وقارا غريبا فأحببت أن أسأل عنه ، فأخبرته بخبره ، وقلت له انه كان يتابع مسألة له بالوزارة فهو لا يفرط فى أمر دينه أو دنياه كما قيل :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغل

وقد كتبت فى سيرته كتيبا اسمه « المربى » طبع بمطبعة الحلبى فى سنة ١٩٤٧ ، وكان الشيخ رحمه الله قد انتقل الى جوار ربه راضيا مرضيا فى سنة ١٩٤٤ ، وقد تعرضت لتواضعه المقرون بوقاره فقلت ما نصه :

« وأذكر يا سيدى ، انك كنت تنكر ذاتك ، وتحاول أن تخفيها فلا يزيدها الله بذلك الا رفعة وظهورا . ورحمة منه بعباده . لأن الاتصال بمثلك ، رزق يسوقه الله للمؤمنين ، فكم هدى بك الى الرشد وكم زاد بك اليقين . ثم تمثلت بقول أبى الطيب :

ان كنت تكبر أن تختال فى بشر
فان قدرك فى الاقدار يختال
كأن نفسك لا ترضاك صاحبها
الا وأنت على المفضال مفضال

أما ما كنت فيه من فضل ، فقد أشرت الى بعضه ، ولا أدعى أنى وصلت الى عده . وحسبى أن يكون ما قلت ، كاشارة الاصبع الى النجم فى سماه ، فيهتدى بك من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا .

وأقسم لقد اجتمعت بكثير من ذوى الصلاح والفضل ، فما رأيت فيهم أحدا يوازيك أو يدانيك ، وأقسم ما وجدت صفة محمودة فى القرآن الكريم الا وجدتها بارزة فيك ، فالعلم والحلم والصبر والكرم والاقدام والشمم والتسامح والوفاء والتواضع والصفاء والتعفف والسخاء ، كل هذه كانت من صفاتك الغراء الى جانب ما حباك الله به من ايمان فذ بالله تعالى وثقة تامة فيه ، واعتماد كلى عليه ، واتجاه دائم اليه .

فلا تعجب اذن أيها القارىء الكريم ، مع صفاته تلك . أن يكتب لى الكلمات التى صدر بها المقال ، ولئن ظهر لك كماله من مقاله ، فقدكان كماله فى حاله أظهر لمن أخذ طريق القوم عنه ، واسترشد به السلوك الى الله تعالى ، وعاشره فى صدق وطاعة ..

وقد تعرض لمناقب شيخنا الاكبر القطب سيدى محمد أبو خليل ، ساكن ضريحه الانور بالزقازيق ، ولمناقب خليفته الذى كان أثيرا عنده سيدى العارف الشيخ عبد السلام الحلوانى ، أستاذى الملهم سيدى الشيخ على عقل الذى أنجبته الطريقة الخليلية وتربى فيها على يد العارف بالله سيدى عبد السلام فقال ارتجالا فيهما من كلام طويل :

أراد ربك يحيى القوم فانبعثت ... آياته بعد اخفاء توالينا
أتى مجددهم يحيى الطريق ومن ... أعطاه مولاه علما ثابتا فينا
أبو خليل أعز الله سيرته ... محمد من لوجه الله داعينا
شهم أشم قوى الجأش ذو همم ... مصرف سيد بالحق ينجينا
أعطاه مولاه نورا لا حدود له ... فبين العلم والايمان والدينا
فكان بالفيض والالهام آتينا ... للسالكين وكم أحيا مريدينا
وكان سلطان أهل الذكر أجمعهم ... أولاده بقيام الليل راضونا
وكم له خلفاء قال قائلهم ... الى هنا تنتهى روح المجدينا

أجلهم منزلا أعلاهم ثقة أرضاهم خلقا أزكاهم دينا
أحلاهم منطقا أقواهم همما أوفاهم كرما لا يقبل الهونا
مؤدب ما رأينا في مجالسه الا الكمال وسهل اذ يناجينا
عبد السلام وزكى الله تربته بالطيب والمسك وازدانت رياحينا
أخلاقه في حدود الدين قد رسمت وكان في سنة المختار مأمونا
وكان ينطق عن علم وعن حكم يزجى لنا لؤلؤا بالفيض موزونا
يكفيه فضلا بان الله سخره للناس يحييهمو دينا ويحيينا

وما دمنا قد تعرضنا للعلاقة بين الشيخ وتلميذه ، فاني أقدم للسادة القراء الاعزاء ، بعض ما أتحفنا به من بركاته القطب العارف بالله سيدى عمر جعفر الشبراوى صاحب الطريقة الشبراوية المباركة — رضى الله عنه — في شرحه على ورد الستار ، فقد قال قدس الله سره ما خلاصته :

سئل الشيخ زروق عما قاله من أن التربية بالاصطلاح انقطعت ولم يبق الا التربية بالهمة والحال ، فأجاب رضى الله عنه ، بأن المقصود من التربية تصفية الذات وتطهيرها من رعونتها حتى تتحمل الأسرار وليس ذلك الا بازالة الظلام منها وقطع علاقة الباطل عن وجهتها ..

وقطع الباطل عنها ، تارة يكون بصفائها فى أصل خلقتها بأن يطهرها الله بلا واسطة ، وهذه حالة القرون الثلاثة الفاضلة الذين هم خير القرون « يقصد الصحابة والتابعين وتابعى التابعين رضوان الله عليهم أجمعين » . فقد كان الناس فى هذه القرون متعلقين بالحق تعالى اذا ناموا ناموا عليه ، واذا استيقظوا استيقظوا عليه ، واذا تحركوا تحركوا به حتى ان من فتح الله بصيرته ونظر الى بواطنهم ، وجد عقولهم متعلقة بالله تعالى وبرسوله ، باحثة عن مرضاتهما ، فلهذا كثر فيهم الخير ، وسطع فى ذواتهم نور الحق تعالى ، وظهر فيهم من العلم وبلوغ درجة الاجتهاد مالا يكيف ولا يطاق ، مع قلة الزمن فكانت التربية فى هذه القرون غير محتاج اليها ، وانما يلقى الشيخ مريده فيكلمه فى أذنه فيقع الفتح للمريد بمجرد ذلك لطهارة ذواتهم وصفاء عقولهم وتشوقها الى طريق الرشاد .

أما بعد القرون الفاضلة حيث فسدت النيات والطويات وصارت العقول متعلقة بالدنيا باحثة عن الوصول الى نيل الشهوات فصار الشيخ

صاحب البصيرة يلقى مريده فيعرفه وينظر اليه فيجد عقله متعلقا بالشهوات الباطلة ، ويجد ذاته تتبع العقل فى ذلك .. فتلهو مع اللاهين وتسهو مع الساهين الغافلين وتميل مع المبطلين وتتحرك الجوارح فى ذلك حركة غير محمودة فيأمر الشيخ مريده بالخلوة وبالذكر وبتقليل الأكل ، ليتخلص مما هو فيه ، فتطيق ذاته حمل الاسرار .

ثم بقى الامر على هذه الحالة مدة ، الى أن اختلط الحق بالباطل ، والنور بالظلام فصار أهل الباطل يربون من يأتيهم بادخال الخلوة ، وتلقين الاسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق ، وقد يضيفون الى ذلك عزائم واستخدامات تقتضى المكر والاستدراج فأشار الشيخ زروق على الناس بالرجوع عن مثل تلك التربية التى كثر فيها المبطلون . وباتباع الكتاب والسنة .

ويعقب سيدى القطب الشيخ عمر الشبراوى فيقول — رضى الله عنه — انما نهى الشيخ زروق عن تلك التربية لانه كان ناصحا لله ولرسوله ولم يقصد الانقطاع عن التربية الحقيقية رأسا ، فان نور المصطفى — صلى الله عليه وسلم — باق وخيره شامل وبركاته عامة ، الى يوم القيامة .

وأما الشيخ الذى يلقى اليه بالقياد فهو العارف بأحوال النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى صار على قدمه وسقيت ذاته من نوره — صلى الله عليه وسلم — وأمده الله بحقيقة الايمان وصفاء العرفان وهؤلاء العارفون موجودون فى البلاد الاسلامية .

فاطلب شيخك من بين أهل السنة والجماعة ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ثم أورد سيدى الشيخ عمر قصيدة للعارف بالله سيدى أبى العباس البكرى فى شروط الشيخ ومنها :

وللشيخ آيات اذا لم تكن له فما هو الا فى ليالى الهوى يسرى
اذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر
فاقرب احوال العليل الى الردى اذا لم يكن منه الطبيب على خبر
وآياته ألا يميل الى هوى فدنياه فى طى وأخراه فى نشر

هذا ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر — رضى الله عنه — من لم يأخذ الطريق من الرجال فهو ينتقل من محال الى محال • كما يقول : الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك منازل القربات ، الشيخ من أخذ منك وكشف عنك ، الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت ، وجال بروحك فى عالم الملكوت ، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ من مالك •

ويشبه العارف بالله المعاصر ، السيد محمود أبو الفيض المنوفى — مد الله فى عمره وبارك فى جهاده — أثر روح الشيخ فى روح المريد كالعدسة ذات البؤرة فانها تتلقى حرارة الشمس ، وتركزها فى البؤرة ، فاذا سلطت على ورقة أحرقتها ، وكذلك الشيخ يمحو بنوره ظلمات الغفلة من قلب المريد ، فيصحو القلب ويتلقى موارد الاحسان •

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام — رضى الله عنه — فى ختام عبارته • وأن يجعلنا من عباده المخلصين الذين لا يرون سواه ، فقد وصفهم ابنه وخليفته المبارك السيد أحمد عبد المنعم الحلوانى — مد الله فى عمره ومدده — فقال فى مقدمة كتابه « السمو الروحى فى الأدب الصوفى » (وله غيره كتب كثيرة آخرها كتاب نور الحى القيوم فى التوحيد)مانصه:

« هو الذى نور باطن المؤمنين بهديه •• وشعشع أرواحهم بحبه ، وسربلهم بسربال جلاله ، وأسكرهم من خمر جماله ، وأفاض عليهم من فيض أنسه ، وأطعمهم من لذيذ وصاله ، فغابت نفوسهم عن المحسوسات ، واستظلت بعرش الغيب ، فظلت فى سر المكنونات ، فلم يأنسوا الا بنوره سبحانه وتعالى ، ولم يروا حركة ولا سكونا فى الاكوان كلها ، دقت أوجلت ظهرت أو خفيت • الا من تأثير ارادته ، فوهبوا أنفسهم وأنفاسهم لنور معرفته ، ورأوا سر قيوميته ساريا فى جسد الأكوان ، فنظروا الى نورها فغابوا عن الحس ، الى حقيقة المشاهدة وفناء القرب ، أولئك الذين اصطفاهم الله لحضرته ، واصطنعهم لذاته ، وسيرهم فى الخلق على عينه ، سير المحبة والعناية والاختصاص ، وحفظ قلوبهم عن الأغيار وهياكل أرواحهم من الأشرار ، وكان منهم ملء السمع والبصر » •

ويقول فى وصفهم سيدى أبو بكر الكلاباذى (من أعلام القرن الرابع الهجرى) :

« سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة .. وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأنارت أعلامهم فهموا عن الله ، وساروا الى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الارض سماويون ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار .. غيب حضار ، ملوك تحت أطمار ، أتراع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ،وأسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صفوية صوفية ، نورية صفية .. ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخباياه عند صفيه . هم فى حياته أهل صنعته . وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثانى ، والسابق التالى بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله .

والوصف المتقدم ، يقرب لنا فهم الأبيات الآتية المنسوبة الى أمير المؤمنين الامام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — وهى :

رأيت ربى بعين قلبى فقلت لا شك أنت أنت
أنت الذى حزت كل أين بحيث لا أين ثم أنت
فليس للأين منك أين فيعرف الأين أين أنت
وليس للكيف منك كيف فيعرف الكيف كيف أنت
أحطت علما بكل شىء فكل شىء أراه أنت
وفى فنائى فنى فنائى وفى فنائى رأيت أنت

اللهم ارزقنا محبتك ، واجعلها شعارنا ودثارنا ، وخذنا اليك من أنفسنا ، لنكون من عبادك الذين لم يروا سواك ، فشرفتهم بالانتساب اليك، فى قولك الكريم :

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) . آمين .

أثر اتصال المريد بشيخه

— ١٧ —

« هذا وان اشكرك على تفضلك بالتحرير ، فقد يقال شكر فاعتبر غير ما هو واجب ، اذ واجبنا اعتبار السؤال من واجبات الأسرة ، وانت منا ونحن منك ، فلا شكر على واجب ، وانما غايتنا الاطمئنان عليك ، وعليك السؤال عنا » .

جاءتني هذه العبارة من شيخي العارف بالله سيدى الشيخ عبدالسلام الحلوانى ، قدس الله سره ، ومن كمال خلقه ، نسب الى الفضل فى الكتابة اليه ، وهو يعلمنى فى عبارته هذه مبادىء عالية وغالية .

من ذلك تواضع الشيخ لتلميذه ، واذا رأى التلميذ تواضع شيخه معه ، حرص التلميذ على تواضعه مع الناس عامة ، ومع زملائه خاصة ، فاذا ورثه الله قدم الارشاد فى طريق الله ، عرف كيف يتواضع ليعلم غيره التواضع وفى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه » .

ومن ذلك شكر الناس عند الاقتضاء ، ويقول صلوات الله عليه وآله : من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذهب سيدى الشيخ الى شكر تلميذه على التحرير له ، وان كان ذلك واجبا على التلميذ ، باعتباره فرعا فى أسرة الشيخ الروحية ، ولو أن الناس قالوا فى أمثالهم : لا شكر على واجب . وهذا ما يعلمنا به — رضى الله عنه — أن نكون مع آداب الشريعة الغراء ، ولا نكون مع غيرها ، لانه ليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، كما يقول الامام الغزالى — رضى الله عنه — وقد علمنا الله تعالى فقال « أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » .

ومن ذلك أن يعطف الشيخ على تلميذه ، عطف الأب الرحيم على ابنه الصغير ، فيجعله بعضه ، بحيث لو أصاب التلميذ شىء تألم الشيخ له ، واذا

جاءه ما يسر كان فى ذلك سرور للشيخ ، ووجب على التلميذ أن يطوى ضلوعه على محبة الشيخ ويبادله فى الله حبا بحب ، واحساسا باحساس ، وعندئذ يكون التلميذ من الشيخ والشيخ من التلميذ ، وهو امتزاج يذوقه المتصوفون المتحابون فى الله تعالى وقد قال سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنه — لتلميذه سيدى المرسى أبو العباس — رضى الله عنه — : ما صحبتك الا لتكون أنت أنا وأنا أنت .

وقد وصف الله تعالى حبيبنا المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فقال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » والشيخ العارف بالله يتأسى بمولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قولا وفعلا وحالا ، فيكسب الرأفة والرحمة التى تحلى بهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما يأخذعنه — صلى الله عليه وسلم — الشفقة والحرص على المؤمنين ، وقد تحلى أصحابه — صلى الله عليه وسلم — بالتراحم فيمابينهم ، اقتداء به — صلوات الله وسلامه عليه وآله — فوصفهم الله تعالى بقوله : « رحماء بينهم » .

ويدلك على شدة الامتزاج والتراحم ما قاله أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه — فى رثائه للخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — فقد قال يصور لوعة الأسى التى أصابته بفقده :

ذهب الذين أحبهم
فعليك يا دنيا السلام

انى رضيع وصالهم
والطفل يؤلمه الفطام

فانظر — رعاك الله — كيف يصور سيدنا عمر ، نفسه بطفل رضيع فقد أمه فحرم الرضاعة ، وهى غذاؤه .

وصدق مولانا الامام أبو عبد الله الحسين حين قال : الناس ثلاثة : رجل كالغذاء لا يستغنى عنه أبدا ، ورجل كالدواء يحتاج اليه حينا بعد حين ، ورجل كالداء لا يحتاج اليه أبدا .

ويحدث سيدنا عمر عن مكانة سيدنا أبي بكر من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول : كنت أدخل عليهما فيتكلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالرمز معه فلا أفهم ما يدور من الكلام ، وكأني زنجي بينهما .

ولا تعجب من أن تكون لسيدنا أبي بكر تلك المكانة ، فانه آثر الله ورسوله بمحبته ، وبماله وبجهاده ، وصحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في السفر والحضر ، وكان صاحبه في الغار ، وفي الهجرة وفي الحرب ، وقد شرفه مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال فيه : « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخي وصاحبي » كما قال فيه حين عاد صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ، قبيل وفاته — صلى الله عليه وسلم — « أيها الناس ، ان أبا بكر لم يسؤني قط فاعرفوا له ذلك .. الحديث » كما أنه حين اشتد عليه المرض أنابه عنه في الصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وقد بادل سيدنا أبو بكر ، مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حبا بحب ، حتى أنه كان يبكي عندما يدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى داره ويقول : واشوقاه اليك يا رسول الله .

وكان من أثر هذا الحب الخالص ، أن سيدنا أبا بكر مرض لمرض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما شفي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شفي من سروره برؤيته سيدنا أبو بكر ، وقال في ذلك :

مرض الحبيب فعدته
فمرضت من أسفي عليه
شفي الحبيب وعادني
فشفيت من نظري اليه

وقد انقطع أحد أتباع سيدي المرسي أبي العباس عن الاجتماع به فقال له : لم تنقطع عني ، قال ياسيدي استغنيت بك ، فقال — رضي الله عنه — معلما لنا : ما استغنى أحد بأحد ، وما استغنى سيدنا أبوبكر برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم ينقطع عنه يوما واحدا .

ويقول السادة الصوفية بحق أن من جالس جانس ، فان جلست مع المحزون حزنت ، وان جلست مع المسرور سررت •• وان جلست مع اللاهين سرت اليك الغفلة ، وان جلست مع المتقين سرت اليك اليقظة ، كما يقولون :

والروح كالريح ان مرت على عطر
طابت وتخبث ان مرت على الجيف

والرسائل التى يتبادلها المريد مع شيخه ان لم يكن معه فى بلد واحد، يتلاقى فيها روحيا مع شيخه فيبثه شوقه ويوقفه على حاله وأخباره ، وفى رد الشيخ تثقيف وارشاد وتوجيه ، وقد كنت أفرح برسالة شيخى فرحا لا حد له ، ومن شغفى بكتابته ، كنت أحفظ الرسالة أو أكاد من قراءتها مرة احدة ، وكنت أكرر قراءتها الفينة بعد الفينة ، وأتدبر ألفاظها وأتفكر فى غوامض خطابها ، وكان ــ رضى الله عنه ــ يكتب بلغة سهلة ممتنعة ، لا تكلف فيها ، وكان خطه جميلا ، لا تشبع العين من رؤيته ، وكان يعلمنى أكبر قسط فى أقل سطور ، ولا أذكر أن رسالة له تجاوزت صحيفة واحدة من الحجم الصغير ، وخير الكلام ما قل ودل ، وبلاغ السلام بعض التلاقى كما قال الشريف الرضى فى شعره ــ رضى الله عنه ــ •

ولقد كتب بعض السلف الصالح الى تلميذ له كان يجنح الى الاشتغال بدنياه عن أخراه فكان فيما كتبه له : أخبرنى عن هذا الذى تكدح فيه ، وتحرص عليه من أمر الدنيا ، هل بلغت فيه ما تريد ، وأدركت ما تتمنى ، فقال لا والله ، فقال الشيخ : أرأيتك هذا الذى أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد ، فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنها وصرفت عنها ، فما أراك تضرب الا فى حديد بارد •

ويقول السادة الصوفية فى تفسير قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » : ان تسويف الأعمال الصالحة من نسيان النفس لأن المرء لا يدرى متى يفجؤه أجله ، لذلك تراهم يبادرون بالاعمال ، ويستبقون الخيرات •

بقى ما يقوله سيدى الشيخ « وانما غايتنا الاطمئنان عليك ، وعليك السؤال عنا : والاطمئنان هنا يقصد به الاطمئنان على دينى ودنياى ، ولا يقف اطمئنانه على دنياى وحدها، فان رابطتى به هى فى أصلها رابطة الدين، لانى سلمته نفسى ليربيها فى جنب الله ، بما آتاه الله من فضله من قوة اليقين ، ونور البصيرة ، والمرء ضعيف بنفسه فى مقاومة وساوس الشيطان ، وحظوظ النفس ، والشيخ معوان له على نفسه وشيطانه .. أما أمر الدنيا فيأتى فى المرتبة الثانية ، ودنيا المريد لا تكون حلوة مباركة الا اذا استعملها فى مرضاته تعالى ليشكر نعمة الله ويتعرض للمزيد من فضله .

لذلك يقول سيدى وأستاذى الشيخ على عقل فى أهمية اتخاذ الشيخ المربى وضرورته للمؤمن فى اجتياز عقبات النفس والشيطان :

اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى
يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه
سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

ويرى السادة الصوفية ، أن التصوف فرض عين على المؤمن ، ويعلل الامام الغزالى تلك الفرضية العينية بأنه اذا ديست حرمة الوطن صار الجهاد فرض عين على كل مؤمن ، والشيطان عدو مبين ، ويجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، ويدوس حرمة النفس، فوجب أن يدافع كيده، ولا يقوى الانسان وحده على رد كيده ، فيجب أن يستعين فى مغالبته بأهل التقوى واليقين ، لانهم أصحاب رقائق ودقائق وحقائق تذاق فى البواطن ولا تعبر عنها الألفاظ ، والروح سر من أسرار الله وأحوالها من الاسرار الروحية .

والناظر فى كتاب الله تعالى يرى حرص السلف الصالح على تربية أبنائهم على الدين الصحيح ، فقد خلد الله تعالى ما وعظ به لقمان — عليه السلام — ابنه « يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة

أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير • يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الأمور • ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور • واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير » •

وهى وصية كما تراها حملت الدين الخالص من أطرافه فقد دل الوالد ابنه على ما تصلح به نفسه من المراقبة الدائمة لله تعالى ، وكان لقمان — عليه السلام — من أهل الحكمة •

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد » •

والحكمة هى العلم النافع ، ولا علم أظهر من علم القلوب بالله• وزاده — عليه السلام — أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومن وعظ نفسه صلح لوعظ غيره ، لذلك أمره أبوه بالمعروف ونهاه عن المنكر ، وكمله بالآداب الظاهرة والباطنة ليجعل منه مربيا لغيره فتتوارث دعوة الحق بين الناس •

وقول الله تعالى الذى سبق النصيحة المتقدمة جاء فيه : « واتبع سبيل من أناب الى ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » ، فالاقتداء بأهل الانابة لازم ومحتم فى التربية الدينية العالية ، لأن من أناب الى الله هداه الله فصار هاديا لغيره :

« الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » •

لا بل ان القرآن الكريم نقل الينا موقفا لسيدنا يعقوب — عليه السلام — حين حرص على عقيدة التوحيد عند ابنائه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة فى هذه الدنيا فقال تعالى : « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لنبيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون » •

وهذا ما يعلم الآباء الحرص على رعاية عقيدة أبنائهم ، فانهم أمانةبين أيديهم ورعية لهم وكل راع مسئول عن رعيته « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر : فى لزوم الشيخ : من لم يأخذ الطريق من الرجال ، فهو ينتقل من محال الى محال ، ويقول : الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك منازل القربات.. ويقول : الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت وجال بروحك فى عالم الملكوت ، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ من مالك .

وأما قول سيدى الشيخ : وعليك السؤال عنا ، فان المريد الصادق يجب عليه أن يؤدى لشيخه حقه ، ولئن كان أبوه يربى جسده ، فان شيخه يربى روحه ، والروح جوهر ، والجسد كالصدف ، وتربية الوجدان أصعب كثيرا من تربية الابدان . وقد علمنا الله أن نعطى الوالدين حقهما وأن نواليهما بالرعاية والأدب العالى والدعاء ، وأن نخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وهذا ما يوجهنا الى احترام شيوخنا وتوقيرهم والدعاء لهم ، والسؤال عنهم . ولا شك أن رضاهم من رضا الله سبحانه ، ويا فوز من أحسن صحبتهم وأحسن الأخذ عنهم ، وكان سيدى المرسى أبو العباس اذا ذكر شيخه سيدى أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنهما — يقول :

لى سادة من عزهم
أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلى
فى حبهم عز وجاه

ولقد كتب بديع الزمان لتلميذ قصر فى زيارته والسؤال عنه يعاتبه فكان فيما كتبه : « ولو لم تزرنا الا لترينا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك ، لكان فعلا صائبا ، وفى القياس واجبا ، وقد يزور الطبيب المريض بعد خروجه من دائه واستغنائه عن دوائه .. الخ » .

وجاء في عظة للامام الحسن البصرى التى كان يعلم بها تلاميـــذه ، وينوه فيها بصحبة الصالحين الأخيار (ويعده أهل المعرفة أفضل التابعين) :

« يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك ، فانها عن قليل قبرك ، واعلم أنك فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، رحم الله أمرأ نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، فقد أبصر أقــوام ولم يقصروا ، ثم هلــكوا فلم يدركوا ما طلبوا ، ولا رجعوا الى ما فارقوا .

« خذوا صــفوة الدنيــا ، ودعوا كدرها ، ودعــوا ما يريبكم الى مالا يريبكم ، ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة.. لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم الا قرة عين لــكل مسلم ، وجــلاء الصدور .. ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم ، أشــفق منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا مما أحل الله لهم من الدنيــا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها .

« ما لى أسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ، ذهب الناس وبقى النسناس، لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح ، أعــدوا الجواب فانكم مسؤولون ، ان المؤمن ما لا يأخذ دينه عن رأيه ، ولكن عن ربه .. الخ . »

أما امامنا على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ فقد استحث المؤمنين فى الطاعة فقال وما أبدع ما قال :

« وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة ، لجديرة بقصر المدة ،وان غائبا يحدوه الجديدان ، الليل والنهــار ، لحرى بسرعة الأوبة ، وان قادما يقدم بالفوز أو الشقوة ، لمستحق لأفضل العدة .

الى أن قال ــ كرم الله وجهه ــ :

« فيالها حسرة على ذى غفلة ، أن يكون عمره عليه حجة ، وأن تؤديه أيامه الى الشقوة ، نسأل الله سبحانه ، أن يجعلنا واياكم ممن لاتبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله غاية ، ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة .

واذا كان الأولون قد نبهوا المجتمع على النحو المتقدم ، فما أحوج مجتمع المسلمين فى المشارق والمغارب اليوم ، لأن يطرح حجب الغفلة عن القلوب الصادئة ، التى جرفتها زخارف الدنيا عن الصراط المستقيم وصرفتها أدوات الملاهى عن الاشتغال بأمر الآخرة ، حتى كأن النــاس نسوا ربهم فأنساهم أنفسهم ، ولست أنكر أن العلم كثير ، والتذكير قائم ، ولـكن أين من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فالعلم ليس غاية فى ذاته ، وانما هو وسيلة للعمل ، والعمل وسيلة لتربية القلوب فى جنب الله لأن الله — جلت حكمته — شاء أن ينتفع القلب من فعل الجوارح ، كما تنتفع الجوارح من أنوار القلب .

ويعلل الامام الغزالى ذلك فيقول : وذلك لسر العلاقة التى بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، فان ظاهر البدن من عالم الشهادة ، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته وانما هبوطه الى عالم الشهادة كالغريب ، وكما تنحدر من معارف القلب أنوار وآثار الى الجوارح ، فكذلك قد يرتفع من أفعال الجوارح أنوار الى القلب .

اللهم اجز عنا سلفنا الصالح خيرا كثيرا ، واجز عنا شيوخنا خيرا كثيرا واجعلنا يا الهنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وقد قلت فيهم :

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

حب الله تعالى وحمده

— ١٨ —

« والحب لله أكبر كل أمر ، وهو الولى الحميد » .

بهذه العبارة ، قليلة الألفاظ ، كثيرة الدلالة ، علمنى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، ان حب الله وحمده ، هما المعراجان اللذان يعرج عليهما المؤمنون الى كمال العبودية ، فالحب يحمله على الطاعة واسترضاء حبيبه وتوقى غضبه ، والحمد يكشف له عن موارد الاحسان التى تغمره فضلا من ربه ، حتى يحس انه لا يستطيع أن يشكرها له سبحانه ، الا بعجزه عن شكرها ، فان من عجز عن عدها واحصائها ، لايبلغ شكرها الا بذلك العجز ، وانما يكون التحدث بالنعمة مظهرا من مظاهر الاعتراف بجريانها عليه من المنعم المتفضل سبحانه (وأما بنعمة ربك فحدث) .

على اننا لو قلنا ان المؤمن قد يعدد كثيرا من النعم الظاهرة له ، فانه فيما يعدد يقف عاجزا عن الشكر ، لعدم استطاعته مكافأة ربه ، مهما بلغت طاعته ، لأن ايمان المؤمن بربه مثلا وهو على رأس النعم ، قدره الله له فى سوابق الأزل ، ولم يكن المؤمن حينئذ شيئا مذكورا ، فكان العجز عن الشكر هو غاية الشكر ، لذلك جاء فى كتب التفسير انه حين قال تعالى (اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور) قال سيدنا داود عليه السلام : يارب كيف أشكرك والشكر نعمة منك تستوجب بدورها شكرا عليها (أى ان المعادلة فى الشكر لا تنتهى الى نهاية) ، فقال تعالى : ياداود الآن عرفتنى وشكرتنى .

وهذا أشبه بما يقوله سيدنا أبو بكر الصديق فى معرفته لله سبحانه وتعالى اذ يقول : سبحان من لم يجعل الدليل الى معرفته الا بالعجز عن معرفته ، لذلك يقول السادة الصوفية : لا يعرفه الا من تعرف اليه ، ولا

يوحده الا من توحد له ، أي أن معرفته تعالى وتوحيده لا يكونان الا بمطائه لعبده ، فيعرفه تعالى اذا أراد أن يعرفه العبد ، ويوحده العبد اذا أراد الله له أن يكون من أهل التوحيد ، وهذا ما يفسر قول السادة الصوفية : ليس الايمان ما يتزين به العبد من الاقوال والأفعال ولكنه جرى السعادة فى سوابق الأزل (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) كما يفسر قول السيدة رابعة العدوية حين سألها سائل : هل لو تبت يتوب الله على فقالت : بل لو تاب عليك لتبت .

أما ما فرق به العلماء بين الحمد والشكر بأن الحمد لله وحده ، والشكر يكون لله ، ولعباده الذين تجري على أيديهم نعم الله ، فيؤيده قول الله تعالى فى الحمد (الحمد لله رب العالمين) وقول الله تعالى فى الشكر (ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) .

ويقول سيدى المرسى أبو العباس رضى الله عنه ، قوله تعالى(الحمد لله رب العالمين) أى قولوا الحمد لله رب العالمين ، أى أن الحمد لله ، حمد رب العالمين نفسه بنفسه وهو حمد له ولا ينبغى أن يكون لغيره ، وعلى ذلك تكون أل للعهد ، وقال سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فى مقدمة كتابه السيرة الخليلية الذى وضعه فى مناقب شيخه العارف سيدى أبى خليل رضى الله عنه : يا مالك الحمد هب لى من لدنك علما يسع به ادراكى كيف يكون حمدك وشكرك ، فأحمدك وأثنى عليك كما ينبغى لجلال عظمتك .

وقد جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابعه فيها سلف الأمة الصالح ان تبدأ الخطبة بحمد الله تعالى والثناء عليه ، لذلك يقال للامة المحمدية « الحمادون » لكثرة حمدها لله تعالى ، وقد بين تعالى صفات كملة المؤمنين : فقال عز وجل (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) أى بالجنة التى بشر بها المقاتلين فى سبيل الله فى الآية التى سبقتها وهى قوله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون

ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) وقد قالوا فى سبب نزولها ان رجالا من الأنصار أنافوا على السبعين واجتمعوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة (فى منى) فقال عبد الله ابن رواحة للنبى صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم) قالوا فان فعلنا ذلك فمالنا ، قال الجنة قالوا ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل فنزلت (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم .. الآية) .

ويقول الامام القرطبى فى تفسيره : وهو عوض عظيم لايدانيه المعوض ولا يقاس به فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال ، فسمى هذا شراء ، وروى الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان فوق كل بر بر حتى يبذل العبد دمه فاذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك » وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ويقول سيدى عمر بن الفارض فى احدى غرامياته :

مالى سوى روحى وباذل نفسه
فى حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى
يا خيبة المسعى اذا لم تسعف

وبان من الآيتين السابقتين أن الجهاد نوعان ، جهاد الأعداء فى الحرب لاعلاء كلمة الله ، وجهاد النفس بالتوبة والعبادات ، لتتزكى فى جنب الله تعالى ، ولكل من الجهادين نتيجة واحدة هى كسب رضاء الله تعالى ودخول الجنة التى أعدها تعالى لأهل رضوانه .

واذا نظرنا الى العوض الذى أعده لأهل رضوانه ، نجده أكبر ولا شك من الجهاد المبذول فى ساحة الحروب أو فى جهـاد النفس ، ذلك بان حياة المؤمن محدودة فى هذه الدنيا بمدة أجله التى قدرها الله له ، وكيفما طالت فهى لا تتعدى عشرات السنين مما نعده ، لكن نعيم الجنات خالد أبد الآبدين ، ولا يقاس العمر النافد ، بالنعيم الخالد ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما .

فاذا زالت غشـاوة الحجاب عن القلوب ، ورأوا تلك الحقيقة ، هان عليهم ما يبذلون فى الجهادين ، جهاد السيف وجهاد النفس ، وحقا ما قاله السادة الصوفية : من عرف ما يطلب هان عليـه ما يبذل ، ويقـول الامام الغزالى رضى الله عنه : ان كنت تؤمن بالآخرة ولست تسـتعد لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة ، فانك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالا نهاية له بأيام معدودة .

والنفس والشيطان يعوقان سلوك المؤمن ، لأن النفس أمارة بالسـوء بطبعها ، والشيطان يعاونها بتزيين المعاصى وأسباب الغفلة (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متـاع الحياة الدنيـا والله عنـده حسن المآب) .

فاذا تلهى القلب بزينة الدنيا ، خاض غمرات الدنيا ، ونسى جنـات النعيم فلم يعد نفسه لدخولها مع المرضى عنهم ، وعلى ضده من أرادالآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فانه لا يبيع دينه بدنيـاه ، بل يجعل دنيـاه ممرا لأخراه ، كما وعظه الله .

ولو لا مشقات الجهـاد على النفس ، واختلاف الهمم فى طلب الله ، ما تفاضل المؤمنون وان تساووا فى العقائد ، وهذا يفسر لنا لماذا جعل الله المؤمنين على درجات ثلاث فى قوله الـكريم (ثم أورثنا الـكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضـل الكبير) وقد خاطب الله تعـالى عوام المؤمنين

فقال لهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) فى حين وصف الخواص فقال تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) كما قال فيهم « فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال • رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار • ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) •

وكذلك فرق الله بين القاعدين والمجاهدين فقال تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما • درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) •

وقد يشترك المؤمنون فى عمل واحد ، ويفضل الله بعضهم على بعض، لاختلاف ظروف العمل ، فمثلا تراه تعالى فضل الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل الله قبل فتح مكة على الذين أنفقوها بعد الفتح ، لأن شوكة المسلمين قبل الفتح كانت ضعيفة ثم قويت بعد الفتح وتمت للمسلمين الغلبة على أعدائهم الكافرين ، فتضحية الذين أنفقوا قبل الفتح كانت أعظم مشقة على النفس منها بعد الفتح ، وكذلك كان شأن القتال قبل الفتح أعظم درجة منه بعد الفتح ؛ ولذلك قال عز شأنه (وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) •

كذلك قد يكون العمل صالحا فى ظاهر أمره ، والنية فيه مشوبة بعلة تخفى على الناس ، ولا تخفى على الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، مثال ذلك ، مسجد الضرار الذى ندد الله بمن أقاموه بسوء نية فقال تعالى فى شأنه (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين

المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم لكاذبون) وقد نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوم فيه ، ومدح له مسجد قباء والمصلين فيه وأمره أن يصلى فيه فقال عز شأنه ، (لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) ولهذا أمر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يهدموا مسجد الضرار ويحرقوه فقال لهم : « انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه » فنفذوا ذلك الأمر على وجه السرعة .

لذلك يعنى السادة الصوفية بتصحيح النيات ، وتطهير الطويات ، فيقصدون بأعمالهم وجه الله تعالى ، لأنه تعالى قال (ألا لله الدين الخالص) وهم لذلك يخافون الله حتى فى الطاعات التى يأتونها ، خشية أن يداخل نفوسهم بها غرور أو عجب أو سوء ظن بغيرهم من أهل التقصير فى الطاعات وهم لا يدرون خاتمة المطاف ، فقد يتوب الله على العاصى ،فتحسن خاتمته،وقد تزل قدم المطيع فتسوءخاتمته ، ومن هنا يحذرون الاستدراج .

ويقول سيدى الامام المرسى أبو العباس رضى الله عنه : قد تلج المعصية فى الطاعة ، والطاعة فى المعصية ، فيتطبع العبد بالطاعة ، فيعجب بها ، ويعتمد عليها ، ويستصغر من لم يفعلها ، ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات ، ويذنب العبد الذنب فيلجأ الى الله فيه ، ويعتذر منه ، ويستصغر نفسه ، ويعظم من لم يفعله ، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات .

وقد سألت شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى يوما عما كنت أحسه من ظل ثقيل لبعض أهل الطاعة دون أن أعلم عنهم سوء وقلت له انى اتهم نفسى فى احساسى نحوهم بانطماس بصيرتى ، ولكنى أرانى أستخف غيرهم ، وان كانوا اقل منهم همة فى الطاعات فقال لى رضى الله عنه : ان احساسك صحيح ، وثقل الظل الذى تحس به انما يأتيك من أنهم فى قرارة نفوسهم يعجبون بأعمالهم ، ويمنون بها على الله ، وأيد كلامه رضى الله عنه ، بانه زار مرة واحدا من هؤلاء وكان مريضا ، فقال

لسيدى الشيخ ، معترضا على الله ، لماذا يمرض مثلى ، انى اقيم الصلاة في أوقاتها ، وأصلى صلاة الفجر حاضرة ، وأصوم ، وأتصدق ، وأخذ يعدد على الله أعماله في جهل وغرور •

أقول والقرآن الكريم حذرنا ان نقع فى هذا الخطأ فى مثل قوله تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شيء عليم • يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) .

ويقول السادة الصوفية فى هذا المقام : القلوب أوعية ، فاذا امتلأت من الحق ، أظهرت زيادة انوارها على الجوارح ، واذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح ، ويشهد لقولهم هذا قوله تعالى (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) وقد جاء فى تفسير الامام القرطبى رضى الله عنه حديث عن جابر يقول فيه مولانا رسول الله صلوات الله عليه وآله « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السمت الحسن ، وعن مجاهد أيضا هو الخشوع والتواضع ، قال منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعالى (سيماهم فى وجوههم) أهو أثر يكون بين عينى الرجل ، قال لا : ربما يكون بين عينى الرجل مثل ركبة العنز ، وهو أقسى قلبا من الحجارة ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع ، وقال ابن جريج : هو الوقار والبهاء •

فالمدار على القلوب كما رأيت ، لأن الله تعبد القلوب بالنيات ، وتعبد الجوارح بالأعمال ، وانما الاعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، ولهذا يقول سيدى الشيخ فى عبارته التى صدرت بها المقال : والحب لله أكبر كل أمر ، والحب كامن فى القلب لا يراه الا الله تعالى ، والمدعون كثير ، والصادقون قليل بل وأقل من القليل ، وما يعلمهم الا الله الذى قال فيهم منوها بشأنهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) .

وقد ربت صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية على كتف سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : هذا وذووه ، فدلنا صلى الله عليه وسلم على نوع المحب لله ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم ألحق سلمان بآل بيته فى قوله صلوات الله عليه « سلمان منا آل البيت » وجاء فى حديث شريف آخر : (ان الجنة تشتاق الى أربع ، عمار وعلى وسلمان وبلال) ومن الحكم التى نقلت عن سيدنا سلمان رضى الله عنه قوله : انما مثل المؤمن فى الدنيا ، كمثل مريض معه طبيبه الذى يعلم داءه ودواءه ، فاذا اشتهى ما يضره منعه ، وقال ان أكلته هلكت ، وكذلك المؤمن يشتهى أشياء كثيرة فيمنعه الله عز وجل منها حتى يموت فيدخل الجنة .

أما عن الولاية فيقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : اعلم رحمك الله تعالى باقباله عليك ، وجعل أنواره واصلة اليك انما هما ولايتان ، ولى يتولى الله ، وولى يتولاه الله ، قال تعالى فى الولاية الاولى (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) «وقال تعالى فى الولاية الثانية (وهو يتولى الصالحين) » وهى التى خرجت للعبد من خزائن المنن على بساط المحبة ، أما الولاية الاولى ، فولايتك لله تعالى خرجت من المجاهدات ، وولايتك لرسوله خرجت من متابعة سنته ، وولايتك للمؤمنين خرجت عن الاقتداء بالأئمة فافهم ذلك .

ويقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه ، وهو امام الصوفية محدثا عن نفسه : لما دخلت فى طريق المحبة الذى يسلكه القوم (يقصد السادة الصوفية) ذقت حالا ، فكنت لا أتعقل أن أحدا يعبد الله لطلب ثواب ، ولا لخوف عقاب قط ، وأقول أى فائدة لما جاءت به السنة من الأحاديث فى الترغيب فى العبادات والترهيب فى ارتكاب المحرمات ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى عالم غير هذا ، وقال لى لو لم تبين للخلق مراتب العبادات وما فيها من الثواب ، ومراتب المحرمات وما فيها من العقاب ، لقامت الحجة علينا فى الآخرة ، وقيل لنا هلا بينتم مراتب الأحكام وما فيها من الثواب والعقاب ، لكنا بادرنا اليها فى دار الدنيافقد

بينا ، فزال عنى ما كنت أجده ، وعلمت ما علمت فصلى الله وسلم عليه ما أحسنه من معلم وبالله التوفيق •

والمحبون يشهدون منة الله عليهم فيما يوفقون اليه من الطاعات ،كما يشهدون فضله تعالى فى قبولها ، والتجاوز عن عيوبها ، وهم يرون أن العبد انما يأتى بالطاعات على سبيل العبودية والخضوع لربه ، والله يتفضل بقبولها على ما بها من نقائص ، ويضعون فى فهمهم هذا نصب أعينهم قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره) ولو بلغوا أعلى درجات الأولياء ويبررون ذلك بأن مولا رسول الله صلى الله عليه وسلم قام الليل حتى تورمت قدماه ، وكانت أوقاته كلها فى عبادة ربه ومع ذلك قال صلوات الله عليه فى مناجاته « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك » وهذا من نظره صلى الله عليه وآله لجلال الله وهيبته•

ومحبة السادة الصوفية لربهم ، تقتضيهم جهادا مريرا فى تخلية قلوبهم من غير الله ، وتحليتها بذكر الله ، وهم يقولون : لا ينال غايةرضاه من فى قلبه سواه ، وهو مقام لا يذوقه الا الخواص ، ونحن نستبعدهلأننا من العوام لا من الخواص • فلا تعجب اذن أن يحكى الشبلى عن نفسه قائلا : قال لى استاذى انظر ياولدى ان خطر ببالك من الجمعة الى الجمعة غير الله تعالى ، فلا تعد تأتنا ، فانه لا يرجى منك أن تكون تلميذا •

ويقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى تعقيبا على قول الشبلى في كتابه الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية ، فاذا كان هذا حال تلميذهم ، فكيف حال شيخهم ، فتأمل حالهذا التلميذ ، وحال أكثرالمشايخ الآن تعرف الفرق بين طالبى الآخرة وطالبى الدنيا •

والكلام فى المحبة والمحبين يطول ، والكتاب يقرأ من عنوانه ، ولا مطمع لنا أن نبلغ ما بلغوا مع قصورنا وتقصيرنا ، ولقد اجتمعت مرة بأحد

علماء دمشق ، وكان مفتيا لاحـدى الولايات ، وكان معروفا فى قـومه بصلاحه وتقواه ، وجرى الحديث فى المحبة والمحبين ، فقال رحمه لله كلنا فى زماننا يدعى المحبة ، وليس له من وسائلها قليل أو كثير وتمثل :

كيف الوصـول الى سـعاد ودونها
قنن الجبـال ودونهن حتـوف

الرجـل حافيـة ومالى مـركب
والكف صـفر والطـريق مخـوف

فقلت فى نفسى يكفى من وقوفنا على حال المحبين من أسلافنا ، أن نعرف مدى تخلفنا ، وشعورنا بالنقص بداية السعى للكمال •

وأختتم مقالى هذا بأبيات لأستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل :

شراب الحب يعـرف بالمذاق
وما كل السـقاة له بسـاقى

وليس أخـو غـرام من مناه
لقاء الغيد أو كأس دهـاق

وليس بعـاشق من لا تـراه
من الشـهوات طهـر والنفاق

اذا ما عشت لا أنسى الهى
به اسمو من الأخرى المراقى

أحب الله عن أدب وصـدق
ولا أرضى سوى التقوى خلاقى

يعز عـلى ترك الحب عندى
ولو بلغت بى الروح التراقى

تركت جميـع خلق الله دونى
شغلت عن الخلائق باشتياقى

ألا يا سـاقى العشـاق مهـلا
تعال املأ كئووسك من حقاقى

غرامى قـد مزجت به رجـائى
على خوف فمن خوفى مذاقى

وروحى ادركت معنى التجلى
فمنه ارى اصطباحى واغتباقى

ومن عرف المحبـة عن يقين
حرام ان يميـل الى فـراق

أطوف عــلى الرحاب بكل ذل ... مــريدا واليقين به انســياقى
وكيف أحب غيــر الله يومــا ... وليس سواه فى الأكوان باق

والأبيات المتقدمة أراها من أعلا ما قرأته فى الأدب الصوفى ، ويباهى بها عصرنا الحاضر عصر الصوفية ، الزاهر فى القــرون الأولى ، وكم كان لشيخنا الملهم من فيوضات وفتــوحات ، تقلتنــا من عالم الملك الى عالم الملكوت •

الا رحم الله شيوخنا ، ورضى عنهم ، فقد رأينا فيهم ، مع تأخر زماننا، صورة صادقة للمحبين الأوائل ، الذين قال فى شأنهم رب العزة جل شأنه (الا ان أولياء الله لا خــوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون • لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) •

— ١٩ —

أهلا وسهلا بكتابك القيم ، الذى أزال وحشة البعد ، خصوصا وانى لم أحظ هذا الاسبوع بلقائكم ، وقد أصبح القلب يحن الى اللقاء دائما لتتمتع الأرواح بلقاء الأشباح ، وان كانت مجتمعة ، فلله درك ، ولله كتابك هذا ، واسأل الله أن يمنحك التقوى الثابتة وسعادة الدارين •

بهذه الكلمات الرقيقة ، وجهنى شيخى العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى أهمية اجتماع المريدين بشيخهم ، الذى يربيهم فى جنب الله لتتمتع الأرواح بلقاء الأشباح ، وان كانت مجتمعة فى عقيدة التوحيد ، وفى محبة الله تعالى •

ويؤيد القرآن الكريم ، كما تؤيد السنة المطهرة ، ذلك التوجيه ، فقد سافر سيدنا موسى عليه السلام ، وهو كليم الله ، وصاحب التوراة ، سفرا لقى فيه نصبا ، ليلتقى بالخضر عليه السلام ، حينما أعلمه الله أنه رجل أتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما ، وحينما التقى به استأذنه فى اتباعه على أن يعلمه مما علمه الله رشدا ، فكاشفه بانه لا يستطيع صبرا على أمور يأتيها وتكون محل اعتراض من موسى عليه السلام ، والتمس له العذر فى الاعتراض عليها (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) فأجابه فى أدب وقال له (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) فاشترط عليه الخضر الا يعقب على فعله حتى يتبين جلية الأمر (قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) •

وبقية القصة معروفة كما جاءت فى سورة الكهف الكريمة ، فكان الاعتراض ، ثم الاعتذار من سيدنا موسى عليه السلام ، وكان التبرير من سيدنا الخضر عليه السلام ، وانتهت التبريرات بقول الخضر عليه السلام (وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) .

والحق ، انها قصة رائعة ، تدل على شرف اصحاب القلوب المتصلة بالله تعالى ، الذين يتلقون من عطائه ، علومهم اللدنية ، التى تفضل سبحانه فأعطاها أول ما أعطى من البشر ، أباهم آدم عليه السلام حين علمه الاسماء كلها ، وكان قبلها لا يعلم شيئا منها ، ثم زاده شرفا فجعله معلما للملائكة ، حين جهلوا ما علمه آدم عليه السلام ، فسبحان ربنا من عليم خبير ، كما تدل القصة على شرف علم التصوف ، وهو علم الفيض ، الذى تمتلىء به وبأسراره قلوب أصفياء الله ، الذين يختارهم بعلمه ، ويصطفيهم لنفسه ، ويعلمهم من كلماته التى لا تنفد ، اظهارا للسعادة التى جرت لهم فى سوابق الأزل ، ليكونوا دعاة الى الله ، بالحال وبالمقال ، فمن شاء الله هدايته على أيديهم دلهم عليهم ، ليأخذوا عنهم ما شاء الله أن يأخذوا ، فهم الأدلة المرشدون فى متاهات الغفلة ، وظلمات النسيان ، يرشدون التائه الى طريق الهدى ، ويذكرون الناس بيوم لا ريب فيه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

كما أن القصة تعلمنا ، كيف يكون التواضع لعباد الرحمن ، فقد ضرب لنا سيدنا موسى وهو من المرسلين أولى العزم ، المثل فى هذا التواضع ، وبين كيف يحرص المؤمن على تقوية صلته بالله ، وكيف ينزل المتعلم من معلمه ، وكيف يجاهد فى سبيل العثور عليه ليسمع منه ، ويأخذ عنه فيزداد خيرا فى دينه . وقد علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرص على نوال الزيادة فى الدين فقال صلى الله عليه وآله (اذا طلع على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى الى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم) .

وقد بين لنا سيدنا الخضر ، كيف يصبر المتعلم ، حتى تتكشف له أسرار امامه ، فيما لم يحط به خبرا ، وكيف يحسن ظنه بامامه ، فيما يبدو له غامضا من تصرفاته ، وكيف يؤول الى الخير تلك التصرفات ، مادام قد أحسن اختيار الامام وتأكد له أنه من أهل اليقين الصادقين .

وليس معنى ذلك ، أننا نقر تصرفات الخارجين على أحكام الشريعة وآدابها من أولئك المدعين ، المشعوذين ، بل اننا نشترط أول ما نشترط ،

أن يقاس الامام بميزان الكتاب والسنة والجماعة ، لأن التصوف الحق مقيد بالكتاب والسنة ، وانما قد يتكلم فى مذاقات أهل اليقين ، بما لا يتسع له ادراك الناشئين ، ويكون موجها لأهله من السامعين ، لأن السامعين لهؤلاء الأئمة مراتب ، لذلك نرى المشايخ ينهون أهل البدايات عن قراءة كتب التصوف ، لأنها فوق مستواهم وقد يسيئون فهمها أو ينكرونها ، فيكون سوء الفهم ، أو الانكار ، مضرا بالمريد فى سلوكه ، ومن الطبيعى ألا يكون غذاء الرجال الكبار مناسبا لمعدة الاطفال الصغار ، فلكل منهم ما يناسبه ويلائمه ، وكذلك غذاء الارواح يتناسب مع درجاتهم ومراتبهم فى السلوك .

وقد وجدنا بالتجربة العملية ، ان صحبة رجال الله ، تكسب الهمة فى طلبه سبحانه ، وتلهب القلوب بالشوق اليه جل جلاله ، وتربط الأرواح بعالم الملكوت الذى منه هبطت ، وتذيقها من الأسرار والرقائق والدقائق ما يجل عن الوصف ويدرك بالذوق ، ولا تعجب من ذلك فان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خير عباد الله من اذا رأيتهم ذكرت الله » ، ويقول كذلك صلوات الله عليه وآله « من بايع اماما أعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه ، فليطعه ان استطاع » .

وقد صدق الامام سهل بن عبد الله التسترى فى قوله « ان الدين الحى هو ما صبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية » ذلك بان السادة الصوفية لهم أسرارهم الروحية ، التى ينيرون بها الهدى للبصائر ، أكثر مما ينير الضوء للابصار .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه ، ان الانسان لا يصل بالحس الى شىء أرفع من المحسوسات المادية ، وقد يرتقى بعقله الى شىء مما يدركه الحس ، ولكنه لا يتجاوز نطاق المحسوسات .

أقول وقد فشل رجال الكلام فى أن يذيقوا القلوب حرارة الايمان ، وسعادة اليقين ، بينما نجح السادة الصوفية فى هذا المضمار ايما نجاح ، ويعلل الامام جلال الدين الرومى ذلك فيقول : ان المتكلمين والفقهاء ، انما يحومون حول رواق الوجود من غير أن يدخلوه لانهم لا يعرفون الحب ،

ويقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه ما طلبنا التصوف بالقيل والقال والمراء والجدال ، بل طلبناه بالجوع والسهر والافعال •

ويتعرض سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه لحب الصوفية لله تعالى ، وهو المعراج الذى يعرجون عليه الى المعرفة ومقام القرب فيقول : المحبة آخذة من قلب عبده كل شيء سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد فيزداد ، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ليكسى حلل التقريب على بساط القربة ، فيمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم •

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى الحب الالهى :

ذبت اشتياقا ووجدا فى محبتكم فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن ينشق صدرى لما خاننى جلدى
ما زال يرفعها طورا ويخفضها حتى وضعت يدى الاخرى تشد يدى

أما سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه فيقول :

حرام على من وحد الله ربه وأفرده ان يحتذى أحدا رفدا
ويا صاحبى قف بى مع الوجد وقفة أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الارض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وأما أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه : فيقول فى الهامه الفورى الذى نقلته عنه :

وقفت على نجوى الاله جوانحى لذلك قلبى منزل كله ذكر
وأخليت قلبى من مناجاة غيره فأصبح طودا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا واسكت هائما وأنطق اجلالا وما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

فاذا أنت ربطت بين الأولين والآخرين من السادة الصوفية ، وجدت الجامع بين الفريقين عاطفة فوارة بحب الله ، والتفانى فى التقرب اليه ،لنيل

رضاه ، ورضاه سبحانه غاية دونها مجاهدات ظاهرة وباطنة ، لاتكسبها الا بارشاد هؤلاء الكرام البررة ، الذين يقولون ، لا ينال غاية رضاه ، من فى قلبه سواه ، وقد بلغوا بذلك القمة ، فاذا أردت الهمة فى مرضاة ربك ، فخذها عنهم لأنهم اتصلوا به بعد أن قطعوا العلائق والعوائق فصار هو وحده مقصدهم سبحانه .

ويناجى سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ربه فيقول فى مناجاته :

« الهى ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك ، لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا ، الهى كيف يرجى سواك ، وأنت ما قطعت الاحسان ، أم كيف يطلب غيرك ، وأنت مابدلت عادة الامتنان .

« كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ، أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من غفواته » .

ولم يؤثر مثل هذا الكلام العالى الرقيق عن سيدى ابن عطاء الله قبل أن يتعرف الى أستاذه القطب العارف سيدى المرسى أبو العباس رضى الله عنه ، لا بل انه ــ كما حدث عن نفسه ــ كان فى أول أمره من المعترضين عليه ، وكان يرى ان مجالس العلماء أولى بالناس من مجالس الصوفية ، فلما اتصل بشيخه الجليل واستمع اليه ، أخذ عنه ، وانتفع منه ، وشاد بمآثره وفضائله ، ورأى بالتجربة أن السادة الصوفية نالوا ما عند العلماء من العلم فشاركوهم فى علمهم ،ولكن العلماء لم يشاركوا السادة الصوفية فى مذاقاتهم الباطنة ، التى يعطونها بعد التطبيق الروحى الجاد لما علموه من الأحكام ، وهيهات أن يثمر التطبيق الأخف مثل هذه الثمرات ، وأين تبلغ الرخص والتأويلات من العزائم والمجاهدات ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

ومشرب الحب الالهى انما أخذه السادة الصوفية عن أسلافنا الأولين، الذين ورثوه عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو القائل « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى»، ويقول : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره أن يرجع الى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من روحه التى بين جنبيه » .

واليك مناجاة سليله الشريف سيدى على زين العابدين بن الحسين بن علي رضى الله عنهم أجمعين :

« اللهم لك قلبى ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرى واعلانى ، فأمت قلبى عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وخلص سريرتى وعلانيتى من علائق الأهواء ، واكفنى بأمانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك ، وهب لى جسما روحانيا ، وقلبا سماويا ، وهمة متصلة بك ، ويقينا صادقا فى حبك»

وقد تغنى صوفية العجم ، كما تغنى صوفية العرب ، بالحب الالهى، فى نظمهم ونثرهم ، واليك مناجاة من المتصوف العبقرى جلال الدين الرومى ، تريك صورة من حبه فى ربه تعالى اذ يقول :

« يا من هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن ، يا من فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز ، يا من نحوه أولى وجهى فى حياتى ووجودى ، يا من هو أنسى وفرحتى وسرورى .

« لو أنى وهبت ملكا لا يبلى ، أو ان كنزا خفيا فتح لى يحوى كل ما فى الوجود ، لسجدت لك روحى ، ووضعت وجهى فى الثرى وصحت قائلا : ليس لى مراد غير حبك ، كل شىء يزول ويفنى ويذهب الى العدم ، ويبقى نور الحب خالدا سرمديا » .

فانظر رعاك الله ، كيف يملك حب الله قلوب السادة الصوفية وكيف تفيض بحب الله مشاعرهم ، وما خفى فى قلوبهم من مواجيد الحب أعظم ولا شك مما نطقت به الألسنة ، اذ يصعب التعبير عن المـذاقات اليقينية ، وصدق العارف النبهانى فى قوله :

لا تسـل وصف حبهم فهـو سر
بسـوى الذوق ماله افشـاء

وها هى كلماتهم تهز قلوبنا بعد قرون من قولها ، لأنها مغـروفة من معين القلوب الحية بالحب الخالد الذى لا يفنى مهما تقادم الزمن ، وكيف يفنى حب وقفوه لله تعالى ، وهـو الذى يبقى بعد فناء خلقه ، سبحانه من كبير متعال ، تنزل بحب فريق من عباده ، وشرفهم بحبه لهم ، وجعله سابقا على حبهم له ، فقال جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منـكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة عـلى المؤمنـين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافـون لومة لائم) ويحق لهم أن يقولوا ما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها :

اذا صح منك الود فالـكل هـين
وكل الذى فـوق التـراب تراب

وما قال سلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب
وان ملت يوما عنـه فارقت ملتى

ولو خطـرت لى فى سواك ارادة
على خاطـرى سـهوا قضيت بردتى

وهؤلاء المحبون المحبـوبون ، كما انجـذبوا بحبهم الصـادق لرب العالمين ، يجذبون غيرهم نحو هذا الحمى الأقدس ، فهم أشبه بالمغناطيس الذى يجذب اليه بخاصيته الحديد غير الممغنط ، وكل قرين بالمقارن يقتدى وما أبدع ما يقوله الامام النبهانى رضى الله عنه :

ان اكن مذنبا فهم أهــل عفــو ... وعلى الكون ان رضونى العفاء
أو يكن فى الفــؤاد داء قــديم ... فلــــديهم لــــكل داء دواء
أو اكن نازح الديار فمنهــم ... لحظات تدنو بها البعــــداء
أو اكن مثريا ولست بهــذا ... فمع الهجر ما يفيــد الثراء

ويقول بعض صوفية الفرس :

ومن عاشر النفس الزكية لم يزل
يزيد بها حسنا عــلى القرب والبعــد

فالسعيد حقا ، من رزقه الله اماما متبوعا على الهدى ، يأخذ بيده فى طريق الرشاد ، ويدله على الله دلالة الخواص المراعين أنفاسهم مع الله ،وقد كنت أجتمع بشــيخى رضى الله عنه فآنس فى جنب الله أنســا لا يكيف ، وكنت أنسى هموم الدنيا وأوضارها ، وانتقل الى فيحات الآخرة الرضية ، فيلين قلبى من قسوته ويصحو شعورى من غفوته ، فتسعد روحى بربها ، وتتشوف الى رضاه ، وتأنس بكلامه ونجواه ، فكأنى قطعت الدنيــا الى الآخرة فى لحظات يسيرات ، لكنها مباركات ، وما أبركها من أوقات كانت تجمع شملنا على الله ، وانا اليوم أعيش فى ذكرياتها ، فان جذبتنى الدنيــا الى الغفــلات ، هــربت منهــا الى الذكــريات ، وأعانتى بارىء الأرض والسموات فردنى الى التعلق بحظيرة قدسه ، فمحت أنوارها العلية،ظلمات النفس البشرية ، فرقت وارتقت ، وباعت الدنيا بالدين ، والغفلة باليقين ، وصدق سبحانه وتعالى اذ يقــول (ان الذين اتقــوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) .

وسبحان من جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، كما يقول امامنا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه : وسبحان من رد كيد الشياطين عن المؤمنين ، وجعله ضــعيفا أمام ارشــاد المرشدين ، الذين قيضهم للامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهدى بهم من الضلال ، وعصم بهم من الفسوق ، وجعلهم أعوان خير فى مغالبة اهــواء النفوس ، وأقامهم بين الناس مثلا عليا يحتذونهم ، وينسجون على منوالهم .

وصدق امامنا الأكبر على بن أبى طالب اذ يقول منوها بفضلهم : لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، اما ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم هم واين أولئك ، والله انهم الأقلون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا .

وهاك ما وصف به أخونا الصوفى المرحوم الاستاذ المتولى قاسم ، الذى كان مدرسا بالمدارس الثانوية ، شيخه وشيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى قدس الله سره ، وجزاه الله عنا كل خير :

« كان عذب الروح ، جميل اللقاء ، أنيس المجلس ، حلو الحديث ، قليل الكلام ، كثير الصمت ، فاذا تكلم بذ القائلين .

« وكان يربى الأرواح بألطف ما يكون من الرفق وحسن التدرج ، فلا يلتوى به القصد ، ولا يصعب عليه المرام .

« وتجلس اليه فيقبل عليك بوجهه وبروحه فتنجذب اليه ، وتأنس به ، وتستقى من هديه ، وتقتبس من نوره ، ويعز عليك فراقه فتود أن تبقى معه على الدوام ، ولكن جليسه يشعر له — مع عذوبة روحه — بمهابة تغشى النفوس ، وجلال يأخذ بمجامع القلوب .

« فكان رفع الله درجته ، يهدى الحائرين ، ويرشد الضالين ، بحديثه الذى استوفى حظه من اقناع العقول ، واستمالة القلوب ، وبنظرته المؤدبة ، ذات التأثير العجيب ، وبنور الاخلاص الذى يشع من جبينه ، وتكاد تلمسه فى نبرات صوته ، وبالقدوة الحسنة فى افعاله ، وبحسن السمت فى جميع أحواله .

« لا يغضب ، ولا يصخب ، ولا يضجر ، ولا يعتب ، بل هو بطل واسع الصدر كثير الاحتمال ، وأقوى ما كان ذلك فى مرض موته ، فقد

كان يحدث عواده ويؤنسهم ، حتى لقد ينسون أن مرض محدثهم تنوء به الجبال الراسيات ، ومن ذلك تدرك مبلغ ما انفق من ماله ومن أعصابه ، ومن ذات نفسه فى ذات الله ، مع حسن الصبر ، وجميل الاحتساب ، الى أن قال رحمة الله عليه :

« وقد أصابتنى نازلة شديدة ، غشينى بسببها يأس عنيف ، كاد يهلك نفسى ، ويزعزع ايمانى ، فكان من فضل الله على أن هدانى على يد هـذا السـيد الكامل ، فتناول نفسى برفق وصـبر عجيب ، وما زال بها حتى استقادت وزال نفارها ، واسـتقامت عـلى الطـريقة ، وأشرق عليها نور الحقيقة » .

وقد تربى شيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى فى طريق الحق على يد قطب عصره ومجدد قرنه سيدى القطب الكبير الحاج محمد أبو خليل ، رضى الله عنه ، وقد ألف فيه كتابه القيم « السيرة الخليلية » ، وقد جاء فى وصفه لشيخه :

« فى أوائل القرن الرابع عشر ، ظهر قطب هذا العصر ، الغوث العامل سلطان الذاكرين وتاج العارفين ، وقـدوة العاملين ، وحبل الواصـلين ، والشمس التى أشرقت على القلوب فانتعشت وبسط عليها شعاع الاخلاص فانبسطت ، وأمطـر عليها غيث الرحمة فربت ، وبذر فيها بذور المعـرفة فأنبتت وسـقاها من ماء ايمـانه فنمت ، ولاحظها بروح المناجاة فأينعت ، وتعهدها من عبث الشياطين وتعدى المفسدين ، فحفظت حتى أثمرت وعرفت مولاها وخالقها معـرفة حقيقية فابتهجت ، ودبت فيها روح الحياة الطيبـة فألهمت ، وأعطاها معطى النعم علمـا من لدنه خالصا من شـوائب الأغيار فطهرت من رجس الظهور ، ومن نفثات الشياطين فعملت بما علمت ، وسارت بسير أهل الحقيقة على ناموس الشريعة فسلكت ، وظهر الحق وزهق الباطل ،

ان الباطل كان زهوقا ، وقامت على ذكر الله فخشعت ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا ، فآمنوا به ايمانا سلك بهم الى معرفة نفوسهم ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

وقال المغفور له الشيخ عبد البارى الشرقاوى وكان من علماء الأزهر يصف شيخنا الأكبر سيدى أبا خليل :

كان ملكا فلم يزل يترقى
في المعالى حتى غدا ملكوتا
من يشاهده شاهد الافق الأعلا
وألفى جلاله المنعوتا

ألا رضى الله عن شيوخنا العارفين الأماثل ، الذين أوردونا العذب الفرات من بحورهم ، بحور الحب والصفاء التى يقول فيها أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل نور الله ضريحه :

وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شربنا

اللهم اجعلنا على قدمهم ،واحشرنا فى زمرتهم ، وأظلنا معهم فى ظل عرشك يوم يتحقق قولك الكريم (يوم ندعو كل اناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) .

— ٢٠ —

أما رحلتكم المباركة ، فقد سرتنى جـدا ، وأما الاذن فلديـكم من زمن واذا أردته رسميا فانتظروا حتى أحضر واطلب لكم اجازة رسمـية من المشيخة ، وانى أسأل الله لكم ولنا التوفيق والرضا ، وان يجعـل وجهتنا اليه ، وان يفتح لنا طريق الخير .. انه سميع الدعاء .

كنت قد كتبت لشيخى الجليل سيدى عبد السلام الحلوانى عن رحلة قمت بها الى قرية مجاورة لأدعو فيها الى طاعة الله ، والتحلى بالفضيلة ، على مشرب السادة الصوفية ، الذين يخلصون النية لله ، فلا يخالطهم فيها ما ليس له سبحانه ، اذ ليس لهم من دونه قبلة ولا مقصد ، وكنت يومئذ شابا ناشئا ، وكنت معجبا بذلك المشرب ، ومتحمسا لنشره ، فى زمن اختلطت فيه على الناس الأمور ، وصار أمر الدنيا فى موازين الناس راجحا عـلى أمر الآخرة ، حتى كأنهم خلقوا للدنيـا ، ولم يخلقوا للآخـرة ، وكثير من المشتغلين بتربية الناس فى الدين ، تغلبهم نزعات شـخصية تنأى بهم عن التصوف الحق ، وتنأى بأتباعهم عنه ، ويتخـذون التصـوف حـرفة لا يتخذونه مسلكا ومنهاجا .

وكان شيخى رضى الله عنه ، يحذرنا كثيرا من فتنـة النفس ، ومن تلويث النيات بالدنايا الحقيرة ، التى يضل بها سعى الناس ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وقد قال لى مرة ، حاولت جهدى ان أستـل حب الدنيا من قلوب اخواننا فلم أستطع ، كما قال لى مرة أخرى ، انى أعتبر اخواننا هؤلاء من المؤلفة قلوبهم للتصوف ، والا فالتصوف له رجال ، وقال

مرة ثالثة على مسمع من اتباعه ، والله لو أن معى خمسين الفا وانفضــوا عنى ما عبأت بهم ، لأنى مع الله ، مع ملك الملوك ، وهذا شأن كملةالشيوخ العارفين الذين يستغنون بالله فلا يفتقرون لغيره سبحانه .

ولم يكن الشيخ قد أذن لى بتلقين العهد ، وارشاد غيرى فى سلوك طريق التصوف ، وكنت قبل القيام بالرحلة ، قد رأيت فى المنام مرتين ، انى ألقن العهد ، كما لقننيه شيخى ، ولم أعبأ بالرؤيا المنامية ، لاننا تعلمنا من مشايخنا أن الرؤيا تسر ولا تغر ، فكأنى لم أر شيئا ، لكنى بعد ان القيت محاضرة فى مسجد القرية ، يوم الجمعة ، تقدم لى لفيف من طلبة العـلم بالأزهر ، وطلبوا أن ألقنهم عهدا بسلوك طريق التصــوف ، فتــورطت وترددت بين أن أتلقف الفرصة ، واكسب لطريق التصــوف بعض الناشئين من طلبة العـلم ، الذين ســيكونون من رجال الدين الداعين الى الله وبين أن أحجم اذ ليس لدى اذن بتلقين العهد ، فجاءتنى فكرة ان اتوسط فى الأمر واتوب معهم الى الله ، حتى يشرف الشيخ بلدتهم ويلقنهم العهد ، ونفذت الفكرة ، وكتبت بما تم من أمر الرحلة والتوبة لســيدى الشيخ ، واذا به يرد على ، وتأتى فى رده العبارة التى جاءت فى صدر هذا المقال .

وكانت دهشتى كبيرة ، أن نوه الشيخ بالاذن الذى دلت عليه الرؤيا المنامية مرتين ، والتى لم احفل بها ، خشية أن يداخلنى من الرؤيا ، ماليس لله تعالى ، حيث علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نستغفر الله من عمل اردنا به وجهه ، فخالطنا فيه ما ليس له ، ثم زاد الشيخ الأمر وضوحا ، فقال : وان اردته رسميا فانتظروا حتى أحضر واطلب لــكم اجازة من المشيخة ، ولكنى مع طول عشرتى لسيدى الشيخ ، رأيت له معى ومع تلاميذه الآخرين آيات أخرى تصغر بجانبها تلك الواقعة ،والله يختص برحمته من يشــاء .

ولاذن الشيخ بالارشاد أهميته عند السادة الصوفية ، لأنه وصــلة برجال السلسلة ، خلفا عن سلف ، فتصاحب المأذون له بركتهم ، والرابطة الروحية ، اقوى أثرا من رابطة الأجساد ، وقد علم الله الخلف ، ان يذكروا

اسلافهم ، ولا ينسوهم « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم » كما بين لنا أن السلف يذكرون الخلف فى مثل قوله تعالى : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء » وقوله تعالى : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما » ، هذا فى الأقربين ، أما بين المؤمنين عامة ، ففرض الله صلاة الجنازة ، وجعلها فرض كفاية ، ان لم يؤدها البعض ، أثم الجميع ، وصلاة الجنازة دعاء بالمغفرة والرحمة للميت من أموات المسلمين ، فهى رابطة روحية ، والا فالله قادر على المغفرة بغير دعاء ، لكن شاءت حكمته تعالى، ان يرزق البعض بالبعض ، فى أمور الدنيا وأمور الآخرة ، فان اعترضنا على ذلك اعترضنا على تدبيره العالى ، وليس لنا ان نفعل ، وهو الحكيم العليم .

بل انه سبحانه ، ربط الملأ الأعلى ، بأهل الأرض ، لأن الأرواح هبطت فى الاجساد من الملأ الأعلى فجعل سبحانه الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض فقال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم » وما كنا نعلم ذلك لولا ان كشفه الله تعالى وبينه لنا ، فسبحانه من عليم خبير ، ومن رءوف رحيم .

وأهل الكمال من السادة الصوفية ، يشددون فى تخليص النية لله تعالى ، لا من الأغراض الدنيوية فحسب ، بل يخلصونها كذلك من الأغراض الاخروية ، ولو كانت أغراضا طيبة عند أهل الايمان ولأنهم أهل احسان فهم يطلبون الله وحده لذاته ، لا طمعا فى جنته ولا خوفا من ناره ، ولقد سأل سفيان الثورى ، رضى الله عنه ، السيدة رابعة العدوية ، رضى الله عنها ، ما حقيقة ايمانك ، فقالت : ما عبدته خوفا من ناره ، ولا حبا

في جنته ، فأكون كالأجير السوء ، عبدته شوقا اليه ، وقالت رضى الله عنها ، أو لو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ، ولم يخشه أحد ؟

ويقول الحارث المحاسبى ، رضى الله عنه ، من اجتهد فى باطنه ، ورثه الله حسن معاملة ظاهره ، ومن حسن معاملة ظاهره مع جهد باطنه ، ورثه الله تعالى الهداية اليه ، لقوله عز وجل « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وما دمنا قد ذكرنا الامام الحارث المحاسبى ، رضى الله عنه ، فلنذكر الذى قاله فيه الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه ، بعد ان استمع اليه : هذا من رجال الله ، وهذا علم من عند الله ، فلا تتعرضوا له ، فان لعلم الله تجليات صاعقة ، ولقد ملأ هذا الرجل قلبى ايمانا ونورا ، وانه لأقدر منكم على قلوب الناس ، فدعوه يؤدى رسالته ، فما أحسب اليوم على وجه الأرض أفضل منه ، ولا اجدر بهدى المسلمين والأخذ بأيديهم .

ومثل الامام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه ، لا يشهد الا لله ، فهى شهادة صادقة ، من امام يضرب المثل بورعه وزهده ، فلنستمع الى سيدى الحارث المحاسبى ، وهو يبين لنا ، كيف اختار لتربية نفسه ، طريق التصوف ، فهو يقول :

انتهى الينا ، ان هذه الأمة ، تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرها ، فلم أزل برهة من عمرى ، انظر اختلاف الأمة ، والتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، واطلب من العلم العمل ، واستدل على طريق الآخرة ، وارشاد العلماء ، وعقلت كثيرا من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء .

وتدبرت احوال الأمة ، ونظرت فى مذاهبها وأقاويلها ، فعقلت من ذلك ما قدر لى ، ورأيت اختلافهم بحرا عميقا ، قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم ان النجاة فى تبعهم ، وان الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافا ، فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء

مشـــغوف بدنياه ، مؤثر لها ، ومنهم عالم منســـوب الى الدين ، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيـــا ، ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم متشبه بالنســـاك ، متجر بالخير ، لاغنـــاء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه •

ومنهم منسوب الى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقوى ومنهم متوادون على الهوى يتفقون وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون •

ومنهم شياطين الانس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، والى جمعها يهرعون ، وفى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء، وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف •

فتفقدت فى الاصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعا ، فقصدت الى هدى المهتدين ، بطلب الســـداد والهـــدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، فتبين لى فى كتاب الله تعالى ، وســـنة نبيه ، واجماع الأمة ، ان اتباع الهوى ، يعمى عن الرشد ، ويضـــل عن الحق ، ويطيل المكث فى العمى ، فبدأت باسقاط الهوى عن قلبى ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادا لطلب الفرقة الناجية ، حذرا من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذرا من الاقتحام قبل البيان ، والتمست ســـبيل النجاة لمهجة نفسى ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، ان سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده ، والاخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسى برســـول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلبت معرفة الفـــرائض والسنن عنـــد العلماء بالله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محاربة المتأسين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الدنيا .

فالتمست مـــن بين هـــذا الصنف المجتمـــع عليهم اقفـــو آثارهم ، واقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم منـــدرسا ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود

غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » وهم المنفردون بعلمهم ، فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت ، أن يفجأنى على اضطراب من عمرى ، لاختلاف الأمة .

فقيض لى الرءوف بعباده ، قوما وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وايثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون احدا فى معصية ، ولا يقنطون أحدا من رحمته ، يرضون ابدا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى الى العباد ، بذكر اياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والاغلاء . مبغضين للجدل والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات . متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين ببعثهم ، مؤثرين على أنفسهم ، لكل امرىء منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة ، وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدودا ، ضاق لها صدرى ، وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم ، واتضح لى نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم ، فأصبحت راغبا فى مذهبهم ، مقتبسا من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محبا لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئا ، ولا أوثر عليهم أحدا ، ففتح الله لى علما ، اتفتح لى

برهانه ، وانار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله ، وايقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الدين متراكما على قلب من جهله وجحده ، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبا علىّ ، واعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى ، وسألت الله عز وجل ، أن يوزعنى شكر ما أنعم به على وان يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به من معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وانى لا أدرك شكره أبدا .

ويقول استاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه فى العلم الذى نوه به الامام المحاسبى رضى الله عنه :

وارتقاء الأرواح فى مورد العلم يصفى الأرواح من دنياها
وانعدام الأهواء والحس منها هو معنى السمو فى مسراها

وها أنت مما شرح لنا سيدى الحارث المحاسبى ، قد رأيت كيف علت همة السادة الصوفية عن سفاسف الدنيا وعن مفاتنها ، فاشتغلوا بالله وحده ، كسبا لرضاه فى الأولى والآخرة ، وقديما قالوا : لا ينال غاية رضاه من فى قلبه سواه .

واذا أردت أن تعرف ، كيف يرقون بمريديهم من مقام أدنى ، الى مقام أعلى ، فاستمع الى ما حكاه سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى عما وقع له فى بادىء أمره مع شيخه الامام سيدى عبد السلام بن بشيش رضى الله عنهما ، قال : وصف لى ولى وكان برأس جبل ، فصعدت اليه ليلا ، فقلت فى نفسى ، لا ادخل عليه فى هذا الوقت ، فسمعته وهو يقول من داخل المغارة : اللهم ان قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك ، فسخرت لهم خلقك فرضوا بذلك منك ، اللهم وانى أسألك اعوجاج الخلق علىّ حتى لا يكون ملجئى الا اليك ، فالتفت الى نفسى وقلت : يا نفسى انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ ، فلما أصبحت ، دخلت عليه فارتعبت من هيبته ، فقلت يا سيدى كيف حالك ، فقال : أشكو الى الله من برد الرضا

والتسليم ، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار ، فقلت : اما شكواى من حر التدبير والاختيار ، فقد ذقته وأنا الآن فيه ، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم ، فما ذقتهما ، فقال : أخاف ان تشغلنى حلاوتهما عن الله.

فقلت يا سيدى سمعتك البارحة تقول : اللهم ان قوما سألوك الخ . فتبسم ثم قال : يا بنى عوض ما تقول سخر لى خلقك ، قل : يارب كن لى، أترى اذا كان ذلك ، أيفوتك شيء ، فما هذه الجبانة .

ومن وصاياه البديعة لسيدى أبى الحسن قوله له : الله الله ، والناس نزه لسانك عن ذكرهم ، وقلبك عن التماثيل من قبلهم ، وقل اللهم ارحمنى من ذكــرهم ، ونجنى من شرهم واغننى بخيــرك عن خيــرهم ، وتولنى بالخصوصية من بينهم ، انك على كل شيء قدير .

ومن ذلك ندرك ، ان التــربية فى جنب الله ، على مشرب الســادة الصوفية ، يجب أن تتم بجد لا هزل فيه ، لأن الخاصــة لا يعرفون الهزل فى ظاهرهم أو باطنهم : بل هو جهاد دائم ، وهيام قائم ، ينتهى بايثار الله، على ما سواه ، فيمتلىء القلب بالانوار الربانية ، ويقول السادة الصوفية : اذا امتلأ القلب من النور دك كل حجاب بين العبد وبين الله تعالى .

ويحدثنا سيدى ابو الحجاج الأقصرى ، رضى الله عنه ، عن جهــاد نفسه فيقول : كنت فى بدايتى أذكــر لا اله الا الله ، لا أغفــل ، فقالت لى نفسى مرة ، من ربك ، فقلت ربى الله ، فقالت لى ، ليس لك رب الا أنا ، فان حقيقة الربوبية امتثالك العبودية ، فأنا أقول لك أطعمنى تطعمنى ، ثم أقول قم ، تقم ، وامش ، تمشى ، وابطش ، تبطش ، فأنت تمتثل أوامرى كلها ، فاذن أنا ربك وانت عبدى .

قال فبقيت متفكرا فى ذلك ، فظهرت لى عين من الشريعة ، فقالت لى ، جادلها بكتاب الله تعالى ، فاذا قالت لك نم فقل لها : كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، واذا قالت لك كل فقل لها : كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، واذا قالت ، امش قل : ولا تمش فى الأرض مرحا ، واذا قالت لك ابطش ، قل:

واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فقلت تلك الحقيقة ، فمالى ان فعلت ،فقالت أخلع عليك خلع المتقين ، وأتوجك بتاج العارفين ، وامنطقك بمنطقة الصديقين ، واقلدك بقلائد المحققين ، وأنادى عليك فى سوق المحبين « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » .

ولقد رأيت بحمد الله فى شيوخى ، صورة هؤلاء الكملة من أهل القرون السابقة ، فأهل الكمال ، وان كانوا قلة ، لكن الله يظهرهم فى كل جيل ، ويجعل منهم مثلا عليا ، يحتذيها السالكون الى الله ، الراغبون فى طريق الرشاد ، ولقد عاشرت شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى فرأيته ذا همة خارقة ، وما تخلف عن موالاة تلاميذه فى أية ليلة ، حتى كان يتحمل مشقة الأسفار البعيدة عن مقر عمله ، داعيا الى الله ويعود فى ساعة متأخرة من الليل ، ليدرك عمله فى أوقاته ، وكم أنفق من ذات نفسه وماله ، ولقد صحبته فى رحلة الى عمروس ، فى يوم صائف ، شديد الحر ، ولما آذانى الحر ، تألمت اذ لم يكن معنا شمسية تقى الشيخ حرارة الشمس ، فقلت ياليت لنا شمسية تقيك هذه الحرارة ، فاستدار ، وقابلنى وجها لوجه ، وكانت تلك عادته رضى الله عنه ، وقال لى ، من نقصد فى هذا السفر ، قلت : وجه الله تعالى ، قال : اذن هو الذى يحفظنا ويقينا الضرر ، فكانت كلماته درسا نافعا لى من يومئذ ، فاذا فاتتنا الأسباب ، فالله خير وأبقى .

وكان رضى الله عنه ، فى رحلاته ، لا يستريح ، حتى يطمئن على راحة رفقائه ، وكان يتحمل النفقات عن فقرائهم ، وكان اذا سار معهم فى الطريق ، وتباعدوا يقف حتى يلتئم شملهم ، وكان يلاطف الجميع اذا جلسوا الى الطعام ، ويناولهم ما يبعد عنهم بنفسه ، وكان يدخل السرور على مضيفه ، ويمتدح طعامه ، ويتفكه معه بفكاهات جميلة ، مع الوقار والكمال .

واذكر أني دعوته رضي الله عنه مرة الى طعام ، ومعه لفيف من أحبابه وأخرجت لهم خبزا رقيقا من صنع الريف ، فتعجب من رقته وسعة قطره ، بعض الآكلين ، الذين لم يكن لهم عهد بذلك الخبز ، فنظر رضى الله عنه الى وقال مبتسما :

يسأل عن خبزنا كيف رق كرقة دمع المشوق الدمع
فقلت حلال وقد قيل قدما يرق الحلال ولا ينقطع

فسرتنى هذه البشرى ، ورجوت شيخى ، رضى الله عنه ، ان يعيدهما ، فأعادهما ، وحفظتهما من يومئذ ، وعلمت منه ، ان الشعر لوالده العارف بالله سيدى الشيخ احمد الحلوانى الخليجى ، رضى الله عنه .

ويذكرنى ذلك بواقعة اخرى ، فقد اشتركت مع الصديق الوفى ، الطاهر المطهر ، السيد حسين محمود فى البحث عن دواء كتبه الطبيب للشيخ ، وكان نادر الوجود فى زمن الحرب ، فلما عثرنا عليه ، وتناوله ، جعل الله له فيه الشفاء ، فلما ذهبت لزيارته ، سرنى ان اراه قد استرد عافيته بعد مرض شديد ، فنظر الى رضى الله عنه وقال :

يا جزى الله صاحبى جميلا صح حالى به صحا لى نصحا
قربا لى وصفا به قربا لى وصفا لى ذاك الذى وصفا لى

وعلمت منه ان الشعر لوالده رضى الله عنه وقد تمثل به .

فهل لنا من همة فى طلب الله ، وجهاد فى سبيله ، يزدهر به اليقين فى القلوب ، ويتعاطف المسلمون بعضهم على بعض ، ويأتلفون ولا يختلفون ، ويتعاونون ولا يتفرقون ، وليس العيب ان يكونوا فى العالم قلة ، ولكن العيب أن يكونوا اذلة ، بعد ان كانت لهم العزة ، وان يكونوا مسودين ، وقد كانت لهم السيادة فى العالمين ، ويرحم الله فيلسوف المسلمين السيد محمد اقبال الباكستانى ، حين يشيد بصلاح اسلافنا الماضين

الذين نشروا الهدى بين الناس فى قصيدته المسماة « شكوى » ، والتى ترجمها عنه الى العربية العلامة الشيخ الصاوى شعلان ، فيقول فيما قال كثيرا ، وخاطب به ربه جل وعلا :

الذين يحيا فى سعادة أهله والكأس لا تبقى بغير الساقى
اين الذين بنار حبك أرسلوا الـ أنوار بين محافل العشاق
سكبوا الليالى فى أنين دموعهم وتوضأوا بمدامع الأشواق
والشمس كانت من ضياء وجوههم تهدى الصباح طلائع الاشراق
يا فرحة الايام حين ترى بها روض التجلى وارف الأغصان
ويعود محفلنا بحسنك مسفرا كالصبح فى اشراقه الفينان

ولا شك ان اصلاح البواطن له أثره الفعال فى صلاح الظواهر ، ولهذا ربط الله بينهما فى قوله الكريم : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

— ٢١ —

« واننى كنت أتمنى أن احـظى بمجلسـكم كثيرا كثيرا ، لأمتع الروح بتلك الوجوه الساطعة من اشراق قلوبها بنور المحبة واليقين ، ولكن هى الظـروف ، وهى التى تجرى بالقدر .. الله بديع السموات والأرض هو المقدر ، وقد رضـينا بما يجرى به القضاء ، أسأل الله أن يرينا وجهكم فى أسر الاوقات وأسعد الحالات » .

يوجهنا شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — قدس الله سره — فى عبارته المتقدمة ، التى جاءتنى فى احدى رسائله الى أخـلاق صوفية كريمة ، تحلوا بها حين عملوا بما علموه من كتاب الله وسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واخذوا فى عملهم بالعزائم والمجاهدات دون الرخص والتأويلات ، فأشرقت عليهم أنوار المحبـة واليقين فازدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ورضوا بقدر الله واطمأنوا الى قضـائه ، حيث كان له الخلق والأمر ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فوجب التسليم له مع الأنس والسرور ، والصبر الجميل دون جزع أو حرج فى الصدور . ومن عرف ربه معرفة الخواص رضى بقضائه وصـبر على بلائه وشـكره فى رخائه .

وقد كان ذلك نهج اسلافنا الصالحين ، من السابقين الأولين ورثوه عن مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو القائل :

« ادبنى ربى فأحسن تأديبى » واليك بعض ما قال امامنا الأكبر على ابن أبى طالب فى الثناء على الله وعلى قضائه وقدره جل جلاله :

« الحمد لله الذى لم تسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، ويكون ظاهرا قبل ان يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك • وكل عالم غيره متعلم • وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها • وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام • وكل ظاهر غيره غير باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر •

لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ، ولا تخوف من عواقب زمان ،ولا استعانة على ند مثاور • ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر • ولكن خلائق مربوبون ، وعباد داخرون ، لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو عنها بائن •

لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم ، المأمول مع النقم ، الموهوب مع النعم •

اما قوله ــ كرم الله وجهه ــ : المأمول مع النقم ، فيؤيده قوله تعالى: « فان مع العسر يسرا • ان مع العسر يسرا » ، ويقول مولانا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لن يغلب عسر يسرين » •• وأما قوله : المرهوب مع النعم فيشهد له قوله سبحانه وتعالى : « سنستدرجهم من حيث لايعلمون » •• وقوله تعالى : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون • أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون» وقد قال مولانا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأصحابه « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » .

وما دمنا قد أيقنا انه ــ سبحانه وتعالى ــ النافع الضار ، فوجب أن نركن اليه سبحانه بكلياتنا وجزئياتنا • فى سرنا وجهرنا وان جاءتنا أسباب بنفعه وضره • وجب علينا ان نشهده سبحانه قبل أن نشهد الأسباب وقد علمنا سبحانه وتعالى ذلك فى كتابه الكريم فقال تعالى مثلا :

« أفرأيتم ما تحرثون • أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون • انا لمغرمون • بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذى تشربون • أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون • لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون • افرأيتم النار التى تورون • أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون • نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين • فسبح باسم ربك العظيم » وقوله « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير » وقوله « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » •

واذا كان الله قد تعبد عباده بالتوحيد والطاعات ، فان نفع ذلك راجع اليهم ، ولن يبلغ العباد نفعه فينفعوه ، ولن يبلغوا ضره فيضروه ، سبحانه من غنى بنفسه •• يغنى غيره بعطائه ، ولا ينقص العطاء ما عنده •• يستغنى عن خلقه ابد الآبدين ، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل منها •

كلهم سائل وأنت مجيب   تلك نعماك ما لها من نفاد

وقد علم مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ابن عمه عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — فيما علمه :

« احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

لذلك لا تعجب أن يقول لنا السادة الصوفية فى حكمهم ، الرضا بالمقدور نعم الوسيلة الى درجات المعرفة ، فدرجات المعرفة عندهم تتناسب مع الرضا عن قضاء الله وقدره ويتناسب تصرف العبد مع ما ناله من المعرفة •• وقد روى الامام القشيرى — رضى الله عنه — انشقيقا البلخى رضى الله عنه — سأل الامام جعفر الصادق — رضى الله عنه — عن الفتوة . فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : ان أعطينا شكرنا وان منعنا

صبرنا ، فقال الامام جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل •• فقال شقيق يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ؟ فقال الامام جعفر : ان اعطينا آثرنا وان منعنا شكرنا .

وقد يقول قائل ، لماذا يشكر الامام جعفر عند المنع ، والشكر انما يكون على العطاء لا على المنع •• والجواب هو أن السادة الصوفية يرون العطاء فى المنع ، فقد يمنعك من شيء ليعطيك خيرا منه ، ولكنهم يقولون لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق •

واذا تمكن اليقين بالله فى القلب ، وتم التسليم لله فيما يجرى به قضاؤه ، قوى خلق المؤمن فصار صابرا فى مواطن الشدة ، وشجاعا فى مواطن الحرب ، واحب لغيره ما يحب لنفسه وكره له ما يكره لها •• وألف الناس وألفوه •• ولا يكون له أعداء ، وانما قد يكون له حساد ممن استحوذ عليهم الشيطان ، فكرهوا ما أحب الله ان يكون لأن الشيطان سن الحسد للحاسدين حين أبى أن يسجد لآدم — عليه السلام — مع الساجدين فقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فباء باللعنة الى يوم الدين •

وينصحنا السادة الصوفية فيقولون : رد نفسك الى الله طاهرة كما تلقيتها منه طاهرة • ولهذا لا تعجب ان يرضوا ربهم فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم أو صولة حاكم ظالم •• واليك على سبيل المثال ما وقع بين الحجاج بن يوسف — سافك الدماء — وبين طاووس اليمانى الصوفى — رضى الله عنه — فقد استدعاه الحجاج فى يوم اشتد برده ، فقال الحجاج متزلفا للصوفية ، يا غلام : هلم الطيلسان ، فلما وضع الحاجب الطيلسان على كتفى طاووس ، حرك كتفيه حتى سقط فغضب الحجاج وسل الحرس سيوفهم ، ثم كظم غيظه وأطرق •• ثم رفع رأسه وقال لطاووس : ناولنى المحبرة — وكانت بجواره — اشارة الى أنه سيكتب له بعطاء ، فأبى طاووس أن يمد اليها يده فسأله عن سبب امتناعه فقال : حتى لا تكتب بمدادها ما يغضب الله •

فأطرق الحجاج ثانية ، ودمدم الحرس .. ثم رفع رأسه وقال : يا أبا الفضل ، أعليك دين قال نعم .. قال ما مقـداره ، قال دين لربى هو أن أنذرك يوما لا تغنى عنك من الله تلك السيوف التى تحيط بك .. فأطرق الحجاج طويلا ، ثم رفع رأسـه فقال : اذهب عنى ، فلا يزال فى لسانك جفوة البداوة .. فخرج طاووس وهو يقول : الحمد لله الذى أذهب عنا السوء ، ونجانا من القوم الظالمين .

فلما وصل الى صحبه ، قيل له : ألم ترهب الأمير ؟ قال : رهبتى من الله لم تدع فى قلبى مكانا لرهبة غيره .

وقعد اليه ذات يوم أحد أبناء سليمان بن عبد الملك ــ وهو خليفة ــ فلم يحفل به ولم يلتفت اليه ، فقيل له : ابن أمير المؤمنين ؟ قال أعرفه وقد أردت أن أعلمه ان لله عبادا يزهدون فيه وفى أبيه .

وقد دافع الصوفى العابد الزاهد ، أبو نصر الطائى ، عن حق الأمة .. حين اشتد بطش سليمان بن عبد الملك وحاشيته بالشعب .. وحكموهم بالظلم ، فذهب اليه وصرخ فى وجهه :

سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن ، تأدية لحق الله تعالى .. انه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ورضوا بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا .. فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا الامانة تضييعا .. والامة كسفا وخسفا .. وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسؤولين عما اجترمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره .

ولعل الامثلة المتقدمة ، تصحح عند بعض الناس الفكرة الخاطئة بأن الصـوفية قوم اعتزلوا المجتمع الذى يعيشون فيـه .. ولم يتحمـلوا مسؤولياتهم الاجتماعية ، ولعل تلك الفـكرة علقت بالأذهان منذ صـار التصوف فى العصر التركى شكلا لا روح فيه ، وأصبح حرفة للسيطرة على الأتباع وكسب المال .. وذلك خروج كلى عن التصوف الحق ، وللتأكـد من ذلك الخروج ، نضع تحت نظر السادة القراء تعريف التصوف كما قاله

سيد الطائفة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ، وهو الامام أبو القاسم الجنيد ـ رضى الله عنه ـ فقد عرف التصوف فقال :

« هو تصفية القلب عن موافقة البرية .. ومفارقة الاخلاق الطبيعية .. واخماد الصفات البشرية .. ومجانبة الدواعى النفسانية .. ومنـازلة الصفات الروحانية .. والتعلق بالعلوم الحقيقية .. واستعمال ما هو اولى على الأبدية .. والنصح لجميع الامة ، والوفاء لله على الحقيقة .. واتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الشريعة » .

فكيف يكون القانع بالشكل صوفيا .. والتصوف فلسفة عالية ، تقوم على الجد الذى لا هزل فيه لنيل رضاء الله .. وفى رضائه ـ سبحانه ـ السعادة الابدية ، ودون بلوغ تلك الغاية عقبات ومجاهدات لا يقطعها ولا يصبر على مشقاتها الا قلة من المؤمنين ، سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا .. صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة .

وقد قيل للامام ابن السماك ـ رضى الله عنه ـ ما الـكمال ؟ فقال : الكمال الا يعيب الرجل احدا بعيب فيه مثله ، حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ، فانه لا يفرغ من اصلاح عيب حتى يهجم على آخر فتشغله عيـوبه عن عيوب الناس .. والا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفى طاعة أو معصية .. والا يلتمس من الناس الا ما يعلم أنه يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم من الناس باستشعار مداراتهم وتوفية حقوقهم ، وأن ينفق الفضل من ماله ويمسك الفضل من قوله » .

ومن دعاء سيدى ذى النون المصرى ـ رضى الله عنه ـ : اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعبرات ، والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات .. واجعل قلوبنا غواصة فى موج قرع أبواب السموات ، تائهة من خوفك فى البوادى والفلوات .. وافتح لابصـارنا بابا الى معرفتك ، ولمعرفتنا افهاما الى النظر فى نور حكمتك ، يا حبيب قلوب الوالهين .. ومنتهى رغبة الراغبين .. اللهم تقبل ما مننت به علينا من الاسلام والايمـان ..

ولا تمنعنا عفوك عند السؤال ، فانا اليك آيبون ، ومن الاصرار على معصيتك تائبون » •

ومن قواعد الفتوة عند السادة الصوفية ان يكون المؤمن ساعيا دائما فى أمر غيره •• تحقيقا لقوله — صلى الله عليه وسلم — : « لا يزال الله فى حاجة العبد ، ما دام العبد فى حاجة أخيه » •

ويقول الامام أبو على الدقاق — رضى الله عنه — ان هذا الخلق لا يكون كماله الا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فان كل أحد يوم القيامة يقول نفسى نفسى وهو — صلى الله عليه وسلم — يقول : أمتى أمتى •

وكيف يعتزل السادة الصوفية المجتمع •• وهم الدعاة فيه الى الفضيلة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وهى دعوة تعين الوالى ، فيما يعمل له من اصلاح المجتمع واسعاده فيتعاون الناس ويتراحمون ، ويتفشى فيهم حب الخير واجتناب الشر ، وينعمون بالأمن أفرادا وجماعات •• حكاما ومحكومين •

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ودعوة السادة الصوفية نجحت فى كل الأزمان فى تقويم الأخلاق لانها دعوة علمية عملية ، أو نظرية وتطبيقية •• والتصوف كله قائم على التجربة والعيان ، قبل أن يقوم على الدليل والبرهان •• فقد يكون الانسان عالما بالطب ، وسقيما فى بدنه ، لأنه لم يحاول أن ينتفع عمليا بعلمه •• وكذلك قد يقرأ الانسان كل كتب التصوف ولا يستتبع هذا أن يكون متصوفا ، لأن التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى ، وذلك لايتم بالقراءة وحدها ، وانما يتم بالممارسة والمخالطة والارشاد من شيخ عارف بالله ، لأن للنفس آفات أخفى من دبيب النمل لا يحس بها الا العارفون بالله عن تجربة سبقت لهم ، وعناية الهية هيأتهم •

وليس معنى التسليم لما يجرى به القضاء الا تتخذ الاسباب ارتكانا على القضـاء •• فالأسباب قامت بأمره وتدبيره ــ سبحانه ــ فاتخاذها واجب مع الاستعانة فيها به ــ سبحانه ــ وليس معنى التسليم الا تتأثر بما يجرى به القضاء بحكم البشرية •• فان أصابنا خير فرحنـا •• ولكن دون أشر أو بطر او خيلاء أو جحود نعمة •• وان أصابنا شر تألمنا •• ولكن فى صبر جميل ، وهو الذى لا شكوى فيه للناس •• أو فى قرارة النفس مكتومة •• كل ذلك فى رضا بما قضى الله وقدر وتسليم مطلق لما شاء ودبر •

واذا كانت من المؤمن شكوى فلتكن لله وحده ، كما قال سيدنا يعقوب عليه السلام : « انما أشكو بثى وحزنى الى الله » او كما قال مولانا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين مات ابنه ابراهيم ــ عليه السلام ــ « يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول ما يسخط الرب » •• ولقد دخل محمد بن واسع « من تلاميذ الامام الحسن البصرى » وهو من أئمـة الصوفية على قتيبة بن مسلم ، وعليه مدرعة من صوف فقال ما هـذا ؟ فسكت •• فأعاد عليه السؤال فقال أكره أن أقول زهدا فأذكى نفسى •• أو فقرا فأشكو ربى •

وقد سئل أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ــ رضى الله عنه ــ أن يرتجل الهاما لوقته على قول القائل :

الله قل وذر الوجود وما حـوى ... ان كنت مرتادا بلوغ كمـال

فكان مما قال ونقلناه عنه :

الله قل وذر الوجود وما حـوى ... متـأدبا فى سـاحة الاجـلال
سـلم لتسلم من حيـاتك انه ... من أسلم التقـوى سـما بظلال
واجعل لنفسك من قضا الله الرضا ... حتى تكون موفق الاعمـال
ان كنت تحسب ان فى المال الغنى ... أنا قد جعلت رضا المهيمن مالى
يارب قلبى قد غسلت من الورى ... اذ ليس غيرك ما ذكرت ببـالى
ان مر بى عصف الزمان وقصفه ... والله لست بمـا شـهدت أبالى

أأحبه وأخاف سطوة غيره — هذا وحقك لا تعيه خصالى
روض المحبة قد شهدت جلاله — وجماله فثبت فى أحوالى
والقول لا يغنى بلا قلب فان — تنطق فكن بالناطق المفضال
سلم لربك أمره واترك له — أقداره واحذر من الأقوال
وذر العباد وشأنهم وفعالهم — ان كنت مرتادا بلوغ كمال

ونقلنا عنه كذلك من الهامه الفورى قوله فى مناجاة ربه تعالى :

لقاؤك ايمانى وذكرك حجتى — وحبك روحى واليقين وتينى
وأرضى بما يرضيك ربى فنجنى — حياتى وقومنى فأنت معينى
وقد طاب لى بالذكر ما أنا قاصد — وفى عزة التقوى جمعت شئونى
بحزم علمت الحب بالعلم خضته — ففى شدتى ألقى نداك ولينى

أرأيت من البيت الأخير ، كيف يرى استاذى — رضى الله عنه — الندى فى الشدة كما يراه فى اللين ، ولا يكون ذلك الا عن يقين عميق ومذاق دقيق .. شأن العارفين بالله ، وقد حدث اسحق بن ابراهيم قال : سمعت ذا النون وفى يده الغل ، وفى رجله القيد .. وهو يساق الى السجن يوم أن وشى به الى الخليفة والناس يبكون حوله وهو يقول باسما : هذا من مواهب الله تعالى .. ومن عطاياه .. وكل فعاله عذب حسن طيب ثم أنشد :

لك من قلبى المكان المصون — كل لوم على فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا — فيك والصبر عنك ما لا يكون

ولا يكون مثل هذا التسليم الفذ الا من يقظة الشعور فى قلوب العارفين .. وهذه اليقظة لا تتأتى الا بعد امتلاء القلوب بمحبة الله ، وانصرافها عما سواه .. وهو هدف السادة الصوفية ، الذى يدعون اليه .. ولا يحيون الا به وله .. ولذلك يقول القطب الكبير سيدى ابراهيم الدسوقى — رضى الله عنه — فى احدى مناجاته :

لما علمت بأن قلبى فارغ — ممن سواك ملأته بهواكا
وملأت كلى منك حتى لم أدع — منى مكانا خاليا لسواكا

فالقلب فيك هيامه وغرامه والنطق لا ينفك عن ذاكراكا
والطرف حيث أجيله متلفتا في كل شيء يجتلي معناكا
والسمع لا يصغي الى متكلم الا اذا ما حدثوا بحلاكا

وقد وضح لنا الآن الفارق الكبير بيننا وبين السادة الصوفية الذين أراحوا أنفسهم من هموم الدنيا التي ننوء بها والتي تسبب لنا أمراض الجسد والروح والايمان بالله تعالى أكبر النعم .. وقد حدثني أحد اصدقائي من الاطباء أن ابحاث هيئة الامم دلت على أن البلاد التي كانت مهبط الرسالات السماوية أقل البلاد اصابة بالأمراض العقلية والعصبية للعلاقة القائمة بين راحة النفس والغدد الصماء حتى أنهم الآن يعتمدون في علاج المرضى على الطب النفساني وينصحون المرضى بارتياد المساجد وأماكن العبادة .

ولئن كان الفارق كبيرا بيننا وبين أسلافنا الصالحين في جهاد النفس حيث شغلتنا المادة كثيرا عن الروح .. ففي وسعنا أن نتشبه بهم ما استطعنا ، ليضيق الفارق قدر الطاقة بيننا وبينهم ، ومن جد وجد .. وذلك أعود على صحتنا وديننا ووطننا بالخير .. وهنيئا لأهل السبق ممن يصلحون فيما بقي من أعمارهم ما فاتهم فيما مضى مسترشدين بقوله تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

— ٢٢ —

« وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقــوم » ، وتقلب فى الذاكرين وكن معهم ذاكرا شاكرا ..

هذه نصيحة غالية ، جاءتنى فى احدى رسائل شيخى العــارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — طيب الله ثراه — وقــد وجهنى فيها الى : التوكل والذكر والشكر .

أما التوكل ، فهو مقام عظيم ، من مقامات أهــل اليقين ، وقد قال تعــالى « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » . فقرن سبحانه التوكل بالايمان .

وليس معنى التوكل أن يترك المؤمن اتخــاذ الأسباب ، بل معناه أن يرى المسبب قبل الأسباب فيركن اليه قبــل أن يركن الى الأسباب ، وان كانت له مواهب ، نظر الى الواهب قبل أن ينظــر الى المواهب ، وبذلك يخرج من حوله الى حول الله وقوته ، ألست تراه تعالى يقول لأحب أحبابه — صلى الله عليه وسلم — « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » فلئن حارب مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأدوات الحرب ، لــكن النصر جاءه من عند الله تعالى ، الذى ان شاء أعمل الوسائل وان شاء أبطل مفعولها ، ومن هنا نقرأ فى فاتحة الكتاب « اياك نعبد واياك نستعين » .

فالمتوكل يتخذ ربه تعالى وكيلا يستعين به ، ويعتمد عليه ، ويستند فى ظاهره وباطنه اليه .. وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا .. وقد علمنا الله سبحانه فى كتابه الكريم حسن الظن بالله تعالى فقال جل شأنه : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

ويعرف السادة الصوفية التوكل فيقولون التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى عطاء الكفاية ، فان أعطى شكر ، وان منع صبر ، موافقة للقدر .

ومؤدى التوكل أن يكون المؤمن فى افتقار دائم الى الله تعالى ، وهو ما يدأب عليه خواص المؤمنين ، أما عوام المسلمين فلا يحسون بالافتقار الا عند الاضطرار من بلاء ينزل بهم ، فليجأون الى الله تعالى لكشف الضر عنهم فاذا كشف الضر عنهم غفلوا عن الافتقار حتى تلجئهم اليه ضرورة أخرى ، وقد ندد الله بالكافرين فقال تعالى :

« واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

وهو ما يعلمنا أن نكون على الدوام مفتقرين اليه فى الشدة والرخاء، وفى العسر واليسر ، وفى الصحة والمرض ، وفى الخوف والأمن وهكذا .

ولا يتوقف التوكل على الغنى والفقر ، فقد يكون غنى الجيب متوكلا على ربه ، وقد يكون الفقير ضعيف التوكل ، لان مقام التوكل من مقامات اليقين ، واليقين من مذاقات القلب ، فاذا ذاق المؤمن دوام الافتقار كان متوكلا ولو كان من أغنياء المال .

ويقول السادة الصوفية ، ان دوام الافتقار له عند المؤمن أركان أربعة : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه ، ويقول الامام ابوبكر الشبلى : حقيقة الفقر ألا يستغنى بشىء عن الله .. وقال الامام الفرغانى — رحمه الله — : اذا صح الافتقار الى الله فقد صح الاستغناء بالله واذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به .. وهذا ما يفسر لنا معنى قولهم ان الانبياء والاولياء أغنياء فى فقرهم .

وقد علمنا مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دوام الافتقار الى الله تعالى فى دعائه الذى دعا به ربه حين خذلته ثقيف ، وقد سعى الى

الطائف يستنصر بهم بعد موت عمه أبى طالب ، فقال فى دعائه المبارك يبث ربه شكواه ، ويستغيث به فى نجواه ، ويسترضيه فى أولاه وأخراه :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته امرى ، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من ان ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

ففى قوله صلى الله عليه وسلم : الى من تكلنى ، يوجهنا الى أنه ليس لنا وكيل من دونه سبحانه وتعالى ، وقد علمنا كتاب الله الكريم ان من ركن الى الأسباب وحدها ، ضيع الله عليه أثرها ، جزاء وفاقا ، كما فعل بقارون حين اغتر بكثرة ماله ، ولم يستمع الى نصح الناصحين فيما حكى الله عنهم :

« ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين . قال انما اوتيته على علم عندى أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

وقد افتتن أهل الدنيا بقارون ، وعصم الله أهل العلم بالله من الافتتان بظله الزائل ، ونصحوا أهل الغفلة أن يصبروا ولا يفتتنوا بزينة الدنيا وان يكسبوا ثواب الآخرة بالايمان والعمل الصالح فلم يستبينوا النصح حتى رأوا آية الله بأعينهم حين خسف الله به وبداره الارض ، وقال تعالى فى ذلك : « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا

العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون • فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين • وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض و لافسادا والعاقبة للمتقين » •

وهؤلاء الذين فتنتهم زينة قارون فتمنوا أن يكون عندهم مثل أمواله لم يكونوا زاهدين فى الدنيا ، وان كانوا فقراء ، وقد يملك المؤمن الدنيا ويزهد فيها ، ويؤثر الآخرة عليها ، وأبرز مثل لذلك الخلفاء الراشدون فقد كانت فى أيديهم خزائن الأرض فما استشرفت نفوسهم لأخذ المال من غير حله ، بل خافوا الله فيما جعله الله تحت أيديهم منه ، وقلدهم فى ذلك المبلك الرشيد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذى عاش فى الترف حتى اذا جاءته الخلافة رد نفسه الى عيشة الزهد مخافة الله تعالى •

وقد عرض على مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ان يحول الله له جبال مكة ذهبا ، فأبى وقال لا يارب أشبع يوما فأشكرك ، وأجوع يوما فأسألك ، والى ذلك يشير الامام البوصيرى رضى الله عنه — فى بردته :

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها ايما شمم
وكيف تدعو الى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وليس معنى هذا أن يترك المرء كسب عيشه ، فان كسب العيش عبادة يعف بها نفسه عن سؤال الناس ، ويعف بها من تجب عليه نفقتهم ، وانما المقصود أن يطمئن المؤمن الى أن الله كفل له رزقه ، فلا يشغله الرزق عن الرازق ، ولا يدعوه القلق على رزقه الى كسبه من طريق حرام ، فلا يقبل الله منه طاعة ، وقد غذى جسمه بالحرام الذى نهى الله عنه ، وليحذر المؤمن ان يتباهى على الخلق بوفرة ماله ، أو أن ينفق المال فى معصية الله ، فذلك يؤدى الى مقت الله والعياذ بالله ، لأن الله يحب من عبده أن يشكر نعمة الله عليه ولا يكفرها •• وانفاق المال فى المعصية كفر بالنعمة لا يرضاه الله تعالى •

ويا سعادة من وسع الله عليه رزقه من حــلال فأنفقه فى مرضاة الله وأحسن الى عباد الله كما أحسن الله اليه ، فكان شاكرا نعمة الله ، وتعرض للمزيد من فضــل الله ، وهنيئا لمن رضى بقسم الله ان ضــاق رزقه ، ورد ذلك الى حكمة يعلمها الله ، وتخفى عليه فتذكر قوله تعالى :

« ولو بسط الله الرزق لعبــاده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير » .

وقد كتب امامنا الأكبر على بن أبى طالب وصية جامعة لابنــه الامام الحسن ــ عليهما الرضا والرضوان ــ ومما جاء فيها من الروائــع العلوية

... فاذا ناديته ســمع نداك ، واذا ناجيته علم نجــواك ، فأفضيت اليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوت اليه همــومك واستكشفته كروبك واستعنته على أمورك .. وسألته من خزائن رحمته ، مالا يقــدر على اعطائه غيره ، من زيادة الاعمار ، وصحة الابدان وسعة الأرزاق .

« ثم جعل فى يديك مفاتيح خزائنه بما اذن لك فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرت شآبيب رحمته ، فــلا يقنطنك ابطــاء اجابته ، فان العطية على قدر النية ، وربمــا أخرت عنك الاجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزل لعطاء الآمل .

« وربما سألت الشىء فلا تؤتاه ، وأوتيت خيرا منه عاجلا أو آجلا او صرف عنك لما هو خير لك .. فلرب أمر قد طلبته فيــه هلاك دينك لو أوتيته ، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله ، وينفى عنك وباله فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

وجاء فى تلك الوصية القيمة كذلك قوله ــ كرم الله وجهه ــ .

« انما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم فى ســفر ، نبا بهم منزل جديب فأموا منزلا خصبا وجنــابا مريعــا ، فاحتملوا وعثــاء الطــريق وفــراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشــوبة المطعــم ، ليأتوا سعة دارهــم ومنزل قرارهم ، فليس يجــدون لذلك ألما ، ولا يرون نفقة فيــه مغــرما ولا شىء أحب اليهم مما قربهم الى منزلهم ، وأدناهم الى محلتهم .

« ومثل من اغتر بها ، كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم الى منزل جديب ، فليس شيء أكره اليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه الى ما يهجمون عليه ويصيرون اليه » .

ويؤخذ من قوله تعالى : « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين . انه هو السميع العليم » .

ان التوكل انما هو ثمرة من ثمرات جهاد النفس وعبادة الله تعالى ، فقد كان ــ صلى الله عليه وآله ــ يقوم الليل والناس نيام ، فيتقرب الى ربه بالقيام والركوع والسجود امتثالا لقوله تعالى « واسجد واقترب » فأعلمه الله انه يراه يقوم ويسمع تلاوته ويعلم صدقه واخلاصه ، ويكتب له أجره ، عاجله وآجله ، ويتولاه فى جميع أموره ، وكفى بالله وكيلا » .

ويؤيد ما تقدم ما اختتمت به سورة الحج من الآيات البينات « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .

ويعقب السادة الصوفية على قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » فيقولون : اذا كان خير من فى الوجود أمر بالركوع والسجود فكيف يطمع فى الوصول من ليس له محصول . لذلك لم تقف نصيحة سيدى الشيخ على التوكل دون عمل صالح ، بل أتبعها بقوله : وتقلب فى الذاكرين وكن معهم ذاكرا شاكرا حتى يأتى التوكل عن طريق جهاد النفس فى سبيل الله تعالى الذكر والشكر وهما يثمران الركون الى الله تعالى والتوكل عليه .

والذكر اذا أطلق شمل بصفة عامة كل ما يذكر به الله تعالى ، فالصلاة ذكر ، وتلاوة القرآن ذكر ، والصلاة على مولانا رسول الله ــ

صلى الله عليه وسلم — ذكر ، والاستغفار ذكر ، والتفقه فى الدين ذكر ، والافتاء فى الحلال والحرام ذكر ، والجهاد فى سبيل الله ذكر الخ الخ .. أما اذا خصص الذكر فانما يعنى ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى فيتحرك اللسان باسم المحبوب الأعظم ليصل نوره الى قلب المؤمن ، فيمحو ظلمة القلب شيئا فشيئا الى أن يصير قلبا وضاء ، فيتعرض لهبوط الفيض والنفحات الرحمانية ، ويعلمه الله ما لم يكن يعلم بطريق الالهام ، ولكن الالهام لا يتأتى للقلب الا بعد تسوية النفس وتربيتها فى جنب الله ، بالجهاد الكبير .. ألست تراه تعالى يقول : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » .. ويقول — صلوات الله وسلامه عليه وآله — : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » فلا بد لصقل القلب من عمل دائب ، وذكر الله تعالى من أبرك أعمال الصقل وأيسرها ، وأنجعها فى التقرب الى الله لانه تعالى يقول فى الحديث القدسى « أنا جليس من ذكرنى » ، وذلك الحديث يبرز شرف الذاكرين ومدى عناية الله بهم .

والالهام زينة الاولياء ، كما ان الوحى حلية الانبياء ، وقد بين سبحانه فضله على الخضر — عليه السلام — فقال جل شأنه : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى : ان الناس فى بدايتهم يذكرون باللسان نطقا واقرارا بالشهادة وهو الاسلام ، والخواص يذكرون بالقلب تصديقا واخلاصا وهو الايمان ، وخواص الخواص أهل النهاية يذكرون بعقولهم مشاهدة وهو الاحسان .. والكل سائر فى معرفة الاسماء والصفات لا معرفة الذات لانه لا سبيل اليها الا بالعجز عن الادراك .

ويقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى — رضى الله عنه — فيمن اكتفى بالجدل دون العمل : ترى أحدهم يخوض فى الكلام على الذات وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار ، وقيام الليل ، والخوف من الله تعالى ونحو ذلك حتى كأن الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر فى الفتوحات المكية : ومن العجب ان الله تعالى يخبر بشيء عن نفسه فى كتابه المحكم ، فيأتى الانسان بعقله القاصر ، فيقول ان عقلى يرد ذلك ، وفكرى لا يحتمل ذلك ، وانما يجب التأويل ، أليس عاقبة هذا التأويل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقا غير ما فى كتاب الله ؟.

ومن أحسن ما قرأت للسادة الصوفية فى التوحيد قولهم : العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عرف ، وليس بآلة للاشراف على الربوبية ، وقولهم : العقل عاجز والعاجز لا يدل الا على عاجز مثله .. وقولهم : العقل يجول حول الكون ، فاذا نظر الى الكون ذاب .

وقال بعضهم : أنا أقطع ان الصحابة ماتوا وماعرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وان رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت .

ومما تقدم تدرك سر قوله ــ صلوات الله وسلامه عليه وآله ــ : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .. ولقد رأى سليل بيت النبوة الشريف الامام جعفر الصادق ــ رضى الله عنه ــ جده المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى المنام فسأله عن حقيقة التوحيد ، فأجابه ــ صلوات الله وسلامه عليه وآله ــ : « كل ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » وهو القول الفصل كما ترى ، فما أعظمه صلى الله عليه وسلم من معلم .

ويقول شيخى العارف بالله الشيخ على عقل ــ رضى الله عنه ــ فى العجز عن ادراك كنه الذات ، من الهامة الفورى الذى نقلته عنه :

حب المهيمن باليقين روانى ... والى الجلال شهوده أزجانى
أصبحت لا ألوى عنانى للورى ... ما دمت بالبارى رفعت بيانى
عجزى عن الادراك ادراكى به ... جل المقام فما يبين لسانى
فبحبه وبسره وبنوره ... روح اليقين أظلنى وكسانى
أصبو بروحى فى حماه وأنتمى ... فالعشق تاجى واليقين عيانى

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى :

قل لامرىء رام ادراكا لخالقه — العجز عن درك الادراك ادراك

من دان بالحيرة الغراء فهو فتى — لغاية العلم بالرحمن دراك

وأى شخص أبى الا تحققه — فان غايته جحد واشراك

فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحى — جرت بها فوق جو النسك أفلاك

وقد دلت التجارب الطويلة عبر القرون الماضية ، على ما للذكر من أثر فعال فى تربية القلوب وتنوير البصائر وايقاظ الفكر من غفلته ، ولهذا ورد الامر بالذكر الكثير فى الكتاب والسنة ، ولئن كانت العبادات شرعت لذكر الله تعالى ، والربط على قلوب المؤمنين ، الا أنها موقوتة بأوقاتها .. أما الذكر فمطلوب فى كل وقت ، وليس مقيدا بوقت معين ، وهو يعين على تذوق العبادات ، ويكشف عن كثير من أسرارها ، كما أنه يعين على رقابة الله ليرضيه فيها ليقينه ان الله يعلم السر وأخفى .

واذا انت تدبرت فى قوله — تعالى — : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

وجدت أن الذكر جاء فى قمة تلك الأوصاف وتوجها مع علو مراتبها عند الله تعالى .

والذاكرون يتفاوتون بحسب مشاهدتهم ومقاماتهم ، فالعامة يذكرون الله على العادة الجارية ، والعلماء يذكرونه تعالى تنزيها وتمجيدا ، والعارفون يذكرون الله تعظيما ، والعابدون يذكرون الله راجين خائفين ، والمحبون يذكرونه ولها ووجدا وهياما حتى يفنوا به عن غيره فهم أرفع الذاكرين درجة .

وقد روى الترمذى عن أبى سعيد أن رجلا سأل النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أى العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال

الذاكرون الله كثيرا والذاكرات .. قلت يارسول الله ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه درجة » .

وهذا يفسر لنا لماذا قال صلى الله عليه وسلم حين رجع من الغزو : رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاكبر ، قالوا وما الجهاد الاكبر يا رسول الله ، قال جهاد النفس .. وقد روى الترمذى كذلك أن رجلا قال : يا رسول الله ان شرائع الاسلام قد كثرت على فاخبرنى بشيء أتشبث به ، قال لا يزال لسانك رطبا بذكر الله .

وروى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « يقول الله ــ عز وجل ــ انا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان اقترب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا ، وان أتانى ماشيا أتيته مهرولا » .

والقرب هنا قرب طاعة وثواب لا قرب مسافة ومكان ، وغير ذلك كثير ، وكثير جدا .

ويقول أبو حيان التوحيدى ــ طيب الله ثراه ــ فى مناجاته :

اللهم انى أبرأ من الثقة الا بك ، ومن الأمل الا فيك ، ومن التسليم الا لك ، ومن التوكل الا عليك ، ومن الطلب الا منك ، ومن الرضا الا عنك ، أسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر الى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمنى وايمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى .

ومثل ذلك الالهام يرد على قلوب الذاكرين فتلهج به ألسنتهم ، وقد عهدنا منه الكثير فى اتباع سيدى الشيخ الاكبر أبى خليل ــ رضى الله عنه ــ وهم موفقون للذكر الكثير ببركته وارشاده ، وكان يقول : ابنى الذاكر وكان رضى الله عنه وحيد نسجه فى زمنه فحلق بأتباعه فى عالم الملكوت ، وألحقتهم بركب السابقين الأولين .

ويقول صلوات الله عليه وآله : « من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه الا العالمون بالله تعالى » ، ويقول امامنا على كرم الله وجهه :

رأيت العقـــــل عقلين فمطبـــــــوع ومســموع
لا ينفـــــع مســـموع اذا لـم يك مطبـــــوع
كمـــــا لا تنفـع الشمس وضـوء العين ممنـــــوع

ويقول أبو سليمان الدارانى — رضى الله عنه — اذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت فى الملكوت ورجعت الى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى لها عالم علما .

فاذا أنت أردت طريق القوم ، وأحسنت اختيار امامك ، فاخترته عالما عاملا بالكتاب والسنة والجماعة ، ذائقا أسرار التربية الروحية ، وارثا لها عن شيخ عارف بالله ، مأذونا له من ذلك الشيخ العارف بالارشاد ، وشرح الله صدرك لاتباعه بعد التدقيق فى اختياره ، مستعينا فى ذلك بالله ربك ، أو مقتديا فى اختياره بأهل الرشد فى الدين ، ممن يوثق بهم .. أقول اذا تم لك ذلك فخذ عنه — أخذ قبول وتسليم — لا أخذ شك وتردد ، وكن معه من أهل الهمة والعمل لا من أهل الكسل أو الجدل ، لأنك فى علاج جسمك تحرص على تعاطى الدواء ، ولا تجادل طبيبك فيما تجهله من علم الطب الذى علمه هو وجهلته أنت ، ورضيته معالجا به وسلمت له تسليما ، واذا سلكت الى الله من غير شيخ مؤدب تعرضت لغواية النفس والشيطان وربما أخطأت الطريق فتهلك .

واذا ذكرت ربك — حسب ارشاد شيخك العارف — أعطاك الله نورا بحسب استعدادك وفطرتك وما قدره لك عنده سبحانه ، ولا تغفل عن الذكر بوسوسة يلقيها الشيطان فى صدرك ، ليصدك عن سبيل الله ، كأن يقول لك ، أنت تذكر من كذا سنة ولم تجد فتحا ، أو أنت تذكر باللسان ولا تجد حلاوة فى القلب ، احذرك من ذلك لأن العارفين قالوا بحق : ان الغفلة عن الذكر شر من الغفلة فيه .

وقد سألت شيخى العارف بالله الشيخ على عقل — رضى الله عنه — فى هذه المسألة فقال لى : « ان اللسان جارحة فاذا تحركت بذكر الله كتب

الله ثواب ذلك للذاكر ، وصارت له قيمة ، ثم أيد لى ذلك — رضى الله عنه — بمثل فقال اذا كانت لديك عصا رخيصة وحليتها بحلية من ذهب جعلت لها قيمة غير قيمتها الاصلية بما دخل عليها من الذهب ، وفى ذلك تشجيع على الذكر باللسان للمبتدئين ، وهو يؤدى بهم يوما ما الى ذكر القلب وهو الذى عليه المعول ، وذكر اللسان باب يؤدى الى ذكر القلب ثم الى ذكر الروح ثم الى ذكر السر الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده .

ثم هو — رضى الله عنه — نصحنا فى الهامة أن نذكر الله تعالى لوجهه فلا نقصد بالذكر فتحا أو ولاية أو هبة ، وحسبنا أن نتشرف بذكر المذكور سبحانه ، الذى لا ينسانا ، بل يوالينا ببره وآلائه ، فى ليلنا ونهارنا ، فى نومنا ويقظتنا .. فى حركتنا وسكوننا ، فى برنا وبحرنا .. ومن فضله ورحمته جعل لنا السيئة سيئة واحدة ، والحسنة بعشر أمثالها وبأضعاف كثيرة .. فيقول — رضى الله عنه — :

لا تذكر البارى بقصد ولاية ... أو أن تكون على السما لا تنطفى
اذكر لوجه الله جل جلاله ... من رم غير جنابه لم يشرف
واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى ... حافظ على آياته بتلهف
وانهض بروحك نهضة قدسية ... ولسنة المختار فى السير اقتف

أما عن الشكر الذى وجهنى اليه سيدى الشيخ — رضى الله عنه — فهو اما أن يكون باللسان تحدثا بالنعمة (وأما بنعمة ربك فحدث » أو يكون بالاركان ، فيستعملها المؤمن فى طاعة الله بالعبادات والنوافل « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » أو يكون بالقلب فيوقن المؤمن أن كل نعمة ظهرت له أو خفيت عليه فمن الله تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله » ومن شكر النعمة ألا يعصى المؤمن ربه بها والا كان جاحدا .

على ان المؤمن لا يبلغ ما يستحقه الله من الشكر ، ولو شكر الله باللسان والاركان والجنان ، لأن نعم الله لا تحصى ولا تستقصى وانما يكون الشكر ولاء واعترافا بفضل الله ، ولذلك ناجى مولانا الامام

الحسين بن على ربه وهو يستلم الحجر الأسود فقال : « الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا ، وبلوتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، و لاأنت أدمت الشدة بترك الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم . »

وقد قام صلوات الله عليه وآله الليل حتى تورمت قدماه ، ولماسألته أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال أفلا أكون عبدا شكورا .. ولعلو همته — صلى الله عليه وآله — لم يكتف أن يكون شاكرا بل أراد أن يكون شكورا ، أى كثير الشكر ما وسعه الجهد .

وكذلك فى حمد الله والثناء عليه بما هو أهله ، لا يبلغ الانسان حمد ربه حق الحمد ، ولذلك كان صلى الله عليه وآله يقول : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولعجزنا عن حمده سبحانه علمنا فى فاتحة الكتاب المبين أن نثنى عليه بكلامه المعجز فنقول : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين .. الخ .

ويقول العارفون ، فلو ان سائلا سأله تعالى : لماذا اختصصت بالحمد وحدك لقال : لأنى رب العباد ، منى كان الايجاد ، وعلى دوام الامداد . وذلك احسان من عندى ، ولا وجوب فيه على ولا الزام فأنا صاحب الفضل على الدوام ، فالايجاد ودوام الامداد نعمتان ما خلا موجود منهما ، ولا بد لكل مكون منهما ، فاستحققت الحمد وحدى .

اللهم اجعلنا بعونك من أهل التقوى فنكون متوكلين فى الحالين .. شاكرين لانعمك فان الشيطان هددنا بالصد عن شكرك حين قال : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » فأضعف يا الهنا كيده وأحبط صده ، واكتبنا بفضلك فى عبادك الصالحين الذين شرفتهم بمعيتك بأن تكون فى عونهم على أنفسهم وشيطانهم : حين قلت فى القرآن الكريم « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » آمين .

سماحة الخلق والتماس العذر عند الصوفية

— ٢٣ —

« أما (فلان) فأبلغه تحياتى وأشواقى ، وقد بلغنى أنه كان بالاسكندرية ، فلماذا لم يقابلنى ، ان كان لعذر فمقبول ، وان كان لذنب منى فأستغفر الله ، وعليه السماح ، وعلى كل فانه حسن وفعله حسن » .

جاءتنى هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى قدس الله سره ، وفلان هذا أخ لى فى الله ، تربطنى به محبة الله ، وقد سبقنى فى أخذ الطريق عن الشيخ ، وله همة فى المجاهدات محمودة ، وكان لها أثرها فى سلوكى ، لأنى صحبته فى نشأتى ، والفته فتأثرت به ، وكان سيدى الشيخ مسرورا بهذه الألفة ، واسم صاحبى حسن ، فلقبنا رضى الله عنه بالحسنين ، وهذا يفسر لك كيف أن الشيخ يعتب عليه من طريقى ، حيث ذهب الى الاسكندرية فلم يقابل الشيخ ، وكان من واجب التلميذ ، ان يلقى شيخه ، ويسلم عليه ، ويجلس بين يديه ، ليسمع منه ، ويأخذ عنه ، وكان شيخنا رضى الله عنه ، من خيار عباد الله الصالحين ، الذين ينتفع بعلمهم وأدبهم وبركتهم ، وفى الحديث الشريف : « خير عباد الله من اذا رأيتهم ذكرت الله » .

على اننا نلحظ فى عبارة سيدى الشيخ أدبا رقيقا عاليا : ينفعنا فى مسالكنا ، فقد أبلغه سلامه ، قبل ان يعتب عليه ، والتمس له العذر ، ان كان ثمة عذر ، وقبل عذره قبل ان يبديه ، فان لم يكن عذر ، فهل كان للشيخ ذنب حال دون المقابلة ، فان كان ذنب ، استغفر الشيخ منه ، وطلب العفو عنه ، ثم رحم الشيخ تلميذه ، وخاف عليه من شدة التقريع ، فقرر أنه حسن ، وفعله حسن ، وهذا لعمر الله مسلك جميل فى التربية الخلقية والروحية .

فالشيخ اذن لم يقابل السيئة بالسيئة ، بل قابل السيئة بالحسنة ، فحيا التلميذ الذى قصر فى تحيته ، ولحرصه على مودته ، عتب عليه ، وفى عتابه أراه الواجب عليه فى لقائه ، ولا شك ان تفريط المريد فى لقاء شيخه يحرمه من كثير ، لأن الشيخ وصلته بالله تعالى والتفريط الاجتماع به ، تفريط فى السلوك الى الله ، لأن الشيخ له قوة روحية ، يستمد منها تلاميذه الهمة فى طلب الله ، ولو لم يتكلم معهم بلسانه أحيانا ، فان حاله يغنى عن مقاله ، والاستمداد الروحى لا ينكره الا المعاندون ، لأن من جالس جانس ، كما يقول العارفون ، وعلى قدر استعداد المريد يكون استمداده ، وصاحب الفطرة الضعيفة يتشرب ببطء وقد لا يتشرب شيئا ، وان كان شيخه من كبار الأقطاب ، ذلك بأن المريض لا يجد فى الماء الزلال الطعم الذى يجده الصحيح المعافى ، كما قالوا :

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

وقد يقول الشيخ كلمة على مسمع من عشرات المريدين ، فتبقى فى واحد منهم ، تفعل فعلها ، وتنتج أثرها ، وينساها الآخرون ، أو يذكرونها ولا يتأثرون بها ، لضعف استعدادهم ، ومن هنا نرى أن دعوة الشيخ تعم الكثيرين ، ولا ينضج منهم فى التربية الا القليل وأقل من القليل ، لأن الجوهر النفيس عزيز المنال ، ولعزته وندرته ، قد يحكم بأنه غير موجود ، واذا كانت تلك هى الحقيقة فى كل الأزمان ، فهى أبرز فى زماننا منها فيما سبقه من الأزمان ، لفتور الهمة فى مجاهدة النفس ومخالفة هواها وهو مبنى التصوف الحق ، والمؤمن لا يستطيع أن يعرف ربه معرفة الخواص الا من طريق مخالفة النفس ، والصوفية لم يبتدعوا ذلك من عندياتهم ، بل أخذوه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد جاء فيها الكثير فى هذا الشأن كما هو معروف للواقف على الأمور . ويكفى منها على سبيل المثال قوله تعالى :

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« أخوف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل » .

وكلما ذاق المريد حلاوة التربية فى جنب الله ، واتسع علمه بالله ، كلما أكبر شيخه وأجله ، وحرص على صحبته ووالاه ، حيث يبين له فضل الشيخ وأثره ، كلما ترقى وتلقى موارد الاحسان ، وقد لمست ذلك فى احترام شيخى لشيخه القطب الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل ، رضى الله عنه وارضاه ، فقد كان يحدثنى عنه كثيرا ، ويذكر لى فضله عليه ، حتى يفنى فيه حبا وتقديرا ، وكان يقول لى : ان سيدى الشيخ الأكبر كان آية من آيات الله فى الأرض ، كما كان يقول لى : انى رأيت بركة سيدى الشيخ الأكبر شاملة لى ولأولادى ، فما أنا وهم فيه من الخير من بركات الشيخ ، أقول وعلى هذا الخلق العظيم درج أسلافنا الصالحون المقتدى بهم فى الدين ، ولقد أخذ الامام مسلم عن الامام البخارى رضى الله عنهما ، ثم صار الامام مسلم اماما من أئمة الصحيح ، ومع ذلك كان يذكر لشيخه البخارى فضله ، وكان يجله أيما اجلال ، حتى كان يقول له اذا لقيه ، دعنى أقبل رجليك يا طبيب الحديث فى علله ، ويا أستاذ الأستاذين ويا شيخ المحدثين ، وكان سيدى المرسى أبو العباس اذا ذكر بحضرته شيخه الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنهما يقول :

لى سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
ان لم اكن منهم فلى فى حبهم عز وجاه

وصحبة الشيخ الناصح ، شرط فى التربية الخاصة ، لأن أدب القلوب ، لا يؤخذ الا من أهله ، ففاقد الشىء لا يعطيه ،وكيف يربى القلوب ، من عجز عن أدب قلبه ، ألست تراه تعالى يقول :

« ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » .

فأوجب أن ينذروا أنفسهم قبل ان ينذروا قومهم ، لأن الانذار لا يصح الا ممن أنذر نفسه قبل أن ينذر غيره ، كذلك قال العارفون : اذا أردت أن تهجر اخوان السوء ، فاهجر قبل ان تهجرهم أخلاقك السوء ، فان نفسك أقرب اليك ، والأقربون أولى بالمعروف ، ومن وصايا سيدى عبد السلام بن بشيش لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما : لا

تنقل قدميك الا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس الا حيث تأمن من معصية الله ، ولا تصحب الا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك الا من تزداد به يقينا ، وهي وصية قيمة كما ترى ، ويا سعادة من عمل بها من أهل الطريق .

ولقد اشتد بي يوما حبي لسيدى الشيخ عبد السلام حتى وددت ان لو سكن معي ، وقمت على خدمته بنفسي ، تقربا الى الله تعالى لفضله على ، ولازمتني هذه الأمنية طويلا ، على أثر زيارتي لسيدى الشيخ وكان مريضا ، وملازما للفراش بالمستشفى ، ولما عدته في اليوم الثاني ، نظر الى وقال : انت لم تتركني ليلة الأمس ، وكنت تدعوني الى منزلك ، وتقول لي اني أخدمك بنفسي ، وتعاودني بهذا الكلام مرة بعد مرة ، وسبحان من نور بصائرهم ، وأصلح ضمائرهم وسرائرهم .

ويقول أستاذي العارف بالله سيدى الشيخ على عقل :

والنور للارواح مثل الكهرباء لمن تصوب
يدني البعيد ويجعل النجم المحلق منك أقرب

ومن وصايا سيدى عبد السلام بن بشيش لسيدى أبي الحسن الشاذلي كذلك : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فانه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فانه قلما يدوم ، واصحب من اذا ذكر ذكر الله ، فانه يغني به اذا شهد ، وينوب عنه اذا فقد ، ذكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتيح الغيوب .

وقال له رجل : يا سيدى وظف على وظائف وأورادا أعمل بها ، فقال له : أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا ، وللحرمات رافضا ، واحفظ قلبك من حب الدنيا ، وحب النساء ، وحب الجاه ، وايثار الشهوات ، واقنع من ذلك بما قسم الله لك ، اذا خرج لك مخرج الرضا ، فكن لله فيه شاكرا ، وان خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابرا ، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، واصل جامع لأنواع الكرامات ، وحصر ذلك كله أربع : الورع ، وحسن النية ، واخلاص

العمل ، ومحبة العلم ، ولا تتم هذه الجملة الا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح .

أما العفو عن الاساءة ، وقبول العذر ، والتماسه لصاحبه قبل أن يتقدم به ، فكلها مكارم يدعو اليها الاسلام ، وانظر فى مثل قوله تعالى :
« وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ».

وفى مثل قوله صلى الله عليه وسلم :
« من جاءه أخوه متنصــلا من ذنبه فليقبل اعذاره محقــا كان أو مبطلا » .

وقد قص علينا الله فى كتابه الكريم أحسن القصص ، وأرانا صورا رائعة من صور التسامح والصفح ، من ذلك مثلا ما كان من سيدنا يوسف عليه السلام مع اخوته حين قالوا له :

« تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وكذلك ما قاله سيدنا موسى عليه السلام لسيدنا هارون عليه السلام حين اعتذر اليه :

« ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم والقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » .

ولا ننسى ما قاله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعدائه بعد ان أسرهم فى فتح مكة (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

وهكذا نرى أن غضب المؤمن كالبرق الخاطف لا يكاد يظهر حتى يختفى رحمة بالمخطئين ، ومن عفا وأصلح فأجره على الله .

وجاء فى وصــية امامنــا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، لابنه الامام الحسن ، رضى الله عنه قوله :

« احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعنـد تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك ، واياك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله » .

« لا تتخذن عدو صديقك صديقا ، فتعادى صديقك ، وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة ، وتجرع الغيظ ، فانى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألذ مغبة » .

« وألن لمن غالظك ، فانه يوشك أن يلين لك ، وخـذ على عدوك بالفضل ، فانه أحد الظفرين ، وان أردت قطيعة أخيك ، فاستبق له من نفسك بقية يرجع اليها ، ان بدا له ذلك يوما ما » .

« ومن ظن بك خيرا ، فصدق ظنه ، ولا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فانه ليس لك بأخ من أضعت حقه » .

« ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبن فيمن زهد عنك ، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فانه يسعى في مضرته ونفعك ، وليس جزاء من سرك أن تسوءه » .

ولنفهم معنى ما يقوله امامنا الأكبر « وتجرع الغيظ ، فانى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبة » ننقل القصة التالية التى حدث بها المدائنى فى كتاب المحاسن والمساوىء قال .

كان سهل بن سعد القشيرى خرج مع محمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن على المنصور ، فقال المنصور : هذا كان عندنا من الفقهاء والعلماء ، فكيف خرج علينا ، ثم قال له المنصور : والله لاقتلنك قتلة ما قتلتها أحدا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان تحنث فى يمينك هذه ، خير عند الله من ان تبر بها ، واعلم يا أمير المؤمنين انك ان قتلتنى قتلت أربعة آلاف حديث سمعتها من الضحاك بن مزاحم ، عن جدك عبد الله بن العباس ، عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، لا يرويها أحد غيرى ، قال فوضع يده على خده ، وقال هات ، قال حدثنى الضحاك بن مزاحم ، عن جدك عبد الله بن العباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمل الجنة حزن بربوة ، وعمل النار سهل بسهوة (السهوة الأرض السهلة) ، والسعيد من وقى شر الفتن ، ومن ابتلى فصبر ، فيالها ثم يالها ، وما امتلأ عبد غيظا فكظمه الا ملأه الله ايمانا » فأمره بالجلوس ثم قال له هل من أحد يضمنك على أن تلزمنا فتسمر عندنا ، وأقام معه .

وقال موسى بن عبد الله ، أتى المهدى برجل فجعل يقرره بذنوبه ، ويتهدده ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، اعتذارى مما تقرعنى به رد عليك ، واقرارى يوجب لى ذنبا ، ولكننى أقول :

فان كنت ترجو فى العقوبة رحمة فلا تزهدن عند المعافاة فى الأجر

فأمر باطلاقه .

ومن نصائح العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه والد شيخى سيدى عبد السلام رضى الله عنه . فى منظومته المسماة البستان والتى يوجه فيها المريدين فيما بينهم الى التسامح :

ولا تقل الجفا أسليم ومنذا يا أخى يسلم
وهل هو وحده أجرم لعلك يا أخى أظلم
وأنت بدأت بالطغيان

أتهجره وقد خدمك وسابق جوده كرمك
فرضنا انه ظلمك أليس العفو قد لزمك
بنص الشرع والقرآن

الا ياصاح الا ياصاح تنبه كى تسمى الصاح
وسامح فالسماح رباح ودع عنك الذى قد راح
وهب أن قد ولدت الآن

ومن حكمه الجميلة رضى الله عنه قوله :

أخمد بحلمك ما يذكيه ذو سفه من نار غيظك واصفح ان جنى جان
فالحلم أفضل مازدان اللبيب به والأخذ بالعفو احلى ماجنى جانى

وقد كان سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى من كبار العلماء العارفين ، وكان يجل شيخه العالم العارف القطب سيدى الشيخ عمر بن جعفر الشبراوى صاحب الطريقة الشبراوية المباركة ، وقد طلب اليه بعض تلاميذ سيدى عمر أن يمدح شيخهم وشيخه بقصيدة يسمعهم اياها ، فقال مداعبا لهم على البديهة :-

لا تطمعوا أن أصف القطب الذى ... شبرا به باهت محل الفرقد

لكننى أقول من يظفر به ... فليعتصم بالوارث المحمدى

ويعاصرنا من أحفاد سيدى عمر الشيخان العالمان العارفان المباركان الصديقان الشيخ كامل الشبراوى والشيخ عبد السلام الشبراوى وهما يدعوان الى الله على طريقة جدهما حسبة لوجه الله ، لا يريدان من الناس جزاء ولا شكورا ، جزاهما الله عن الاسلام والمسلمين خيرا كثيرا ، وابوهما العارف بالله سيدى الشيخ عبد الخالق الشبراوى ، كان من اجلاء العلماء العارفين ، وهدى به الله العدد العديد ، وقد سعدت بمعرفته وترددت عليه بأمر من شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى حيث قال لى زره وابلغه سلامى فانه ولى من أولياء الله ، وليت رجال الطرق الصوفية اليوم ينهجون نهج هؤلاء الكملة ، فلا يربون تلاميذهم على جفوة غيرهم من المشايخ ، فان الدين يقوم على الأخوة فى الله والمحبة لوجهه سبحانه ، وآفة الطرق اليوم الجفوة بين بعض المشايخ . وهى تستتبع الجفوة بين التلاميذ ، فان سلموا من الجفوة ، وقعوا فى غيبة بعضهم البعض ، والغيبة من الكبائر والصوفى الحق يحاسب نفسه على الصغيرة قبل الكبيرة ، بل انه قد يترك المباح خوف الوقوع فى المشبوه ، اسأل الله لأهل الاسلام صلاح الحال والمآل ، بعد اصلاح الظواهر والبواطن ، والتسامح بين الأفراد والجماعات .

وكم حاول شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى ان يصلح بين رجال الطرق ، وبين الخلفاء ، ولكن الأهواء النفسية والأغراض الشخصية ، كانت تقف فى سبيل الصلاح والاصلاح ، فلو ان الأغراض الشخصية انتفت ، وجاهد المتنافرون أنفسهم وتسامحوا لاستقام المؤمنون على الطريقة ،

وأشرق عليهم نور الحقيقة ، كما كان أسلافهم من قبل ، وما أبدع ما ينصح به ابن الرومي كل مريد متصوف حين يقول فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية صديقي العلامة الشيخ الصاوي شعلان : لا تجعل الأحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك ، فان الفخار اذا انكسر لا يرقع ولا يعاد طينا ، سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، ان الهام النحل الشهد ، والهام حشرة القز نسج الحرير ، والهام البلبل أغاني السحر ، والهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض :

صدقوهم هم مصابيح الدجى   اكرموهم هم مفاتيح الرجا

« اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » .

ويقول شيخي سيدي الشيخ على عقل في وصف رجال الله في ارتجاله والهامه الفوري الذي نقلناه عنه :

تمكن حب الله منهم حياتهم
ففاض الهوى بالروح والقلب والصدر
نعم أصلهم ترب ولكن روحهم
من الوجد والاخلاص أصفى من التبر
همو أدب التقوى همو نفحة الهدى
همو درة الأيام هم سادة الدهر
هم الأهل والأعوان في الانس والاسى
على كل ما تجرى الأمور أولو نصر
هم الثابتون الصادقون فما الغنى
بمبعدهم يوما ولا طارق الفقر
اذا صح بدء المرء صح انتهاؤه
فمن حسن الأولى فأخراه في خير
وحسبي ان الله قصدي وملجئي
ومن قال يا الله طوق بالأجر
فما انثنى عنه الحياة وان أمت
فمن نعمة التوحيد أسعد في القبر

وينهى رضى الله عنه عن سوء الظن بالأصحاب ، ويدعو الى مراقبة الله على الدوام ، حتى يوفى المؤمن أجره يوم القيامة ، فيقول فى الهامه الفيضى المرتجل لتوه :

ولا تك فى سوء الظنون مغاليا
ومن يتغالى ربما أخطأ الأثر
وظنك خيرا بالمصاحب واجب
ومن بحث الأسرار ليس أخا نظر
ولو لم يصن سر لهان موقر
لذلك سر الخلق غاب عن الفكر
وحسبك ستر الله عزا ومنعة
ولولاه ما ذنب العباد قد استتر
سواء لدى الناس الا أخا التقى
عبادته تغنيه ان ورد الحفر
وكل فؤاد راقب الله جنة
منابتها الايمان والعلم والبصر
وأغصانها الاخلاص والصدق جذعها
وأثمارها التقوى وأنعم بها ثمر
فحاسب هنا تهنأ هناك منازلا
ومن حاسب النفس اجتباه الذى فطر
وما هذه الأيام الا رواحل
علوت لها ظهرا وكنت على سفر
وحسبك من دنياك أجر ورحمة
ومن لم ير الأخرى المراد قد اندثر

واذا ترقى المريد فى مراقبة الله تعالى ، كسب التقوى ، وتجنب الخطيئة ، وتقول السيدة فاطمة النيسابورية ، وهى من فضليات النساء الصوفيات : من لم يراقب الله تعالى فى كل حال ، فانه ينحدر فى كل ميدان ، ويتكلم بكل لسان ، ومن راقب الله تعالى فى كل حال ، أخرسه

الا عن الصدق ، وألزمه الحياء منه ، والاخلاص له ، وكان سيدى ذو النون المضرى يجل تلك السيدة ، وينوه بفضلها ويقول : فاطمة أستاذتى .

ولو راقب المسلمون ربهم ، ما تعادوا أفرادا ولا جماعات ، ولكن الشيطان يفتنهم ويوقع بينهم العداوة والشقاق ، ويصدهم عن ذكر الله ، مع ان الله تعالى علمنا ان نحرص على سلامة الصدور ، حتى يشملنا وصفه العالى « انما المؤمنـــون اخـــوة » وألزمنـــا أن نصلح بين المتخاصـــمين « فاصلحوا بين اخويكم » وجعل الاصـــلاح بين المسلمين من التقوى ، كما جعل رحمة فى الدنيا والآخرة « واتقوا الله لعلكم ترحمون » ، لا بل أنه سبحانه وتعالى ذهب بنا فى الحرص على الســـلام بين المسلمين أن نحاول حسم الخلاف سلميا ان وقع قتال بين طائفتين ، فان لم يؤد السلم الى الاصلاح ، قاتلنا الفئة الباغية حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت اصلحنا بينهما بالعدل ، واقسطنا في الحكم بينهما ، وقد تنازل أمامنا الحســـن بن على ، رضى الله عنهما ، بوازع من دينه ، وتقربا لربه ، عن خلافة كانت فى يده ببيعة شرعية ، وكان حوله جيش عرمرم يحملون على عواتقهم نحو مائة ألف ســـيف ، وقد قال رضى الله عنـــه وعـــن آل البيت أجمعـــين حين أشير عليه بنقض صـــحيفة الصلح : يا مسيب ، انى لو أردت بمـــا فعلت الدنيا ، لم يكن معاوية باصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب منى ، ولكنى أردت صلاحكم ، وكف بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر .

وينوه صـــديقى الأديب الكبير المعاصر ، الأستاذ محمد جاد الرب بموقف السلام الذى وقفه أمامنا السبط الكريم الحسن رضى الله عنه وعن آل البيت أجمعين فيقول :

لا نثر يقضى له حقـــا ولا شعرا	ولو نظمت له القطبين والشعرى
سبط النبى فما اعلاه عن كلمى	لوكانت الأحرف الياقوت والدرا
فمـــن يكن جده طـــه ووالـــده	أبا تراب وكانت أمـــه الزهـــرا
وسيد الشهدا من بعض اخـــوته	فقد تسامى على كل اللغى قدرا

فلنقصر القول ولنقصد رحابهمو ... ولنلثم الترب لا بل نلثم التبرا
من كل رجس تعالى الله طهرهم ... وفى فضائلهم كم نزل الذكرا
أهل العباءة فالأعباء كم حملوا ... من البلاء صنوفا تحطم الصخرا
جهادهم فى سبيل الحق ما طلبوا ... دنيا كما طلب الباغون أو فخرا
ولو أراد ثراء المال جدهمو ... لكان من كل أقيال الورى أثرى
لكنه لم يشأ عن هدى أمته ... الا المودة فى القربى له أجرا
والسيد الحسن الزاكى بحكمته ... قد آثر الصلح صلحا جائرا مرا
القى الزمام الى من لا ذمام لهم ... اذ كان فى رأيه حقن الدما أحرى
نبوءة من رسول الله قد صدقت ... وكان لابد من أن تصدق البشرى
عام الجماعة سموه ومن عجب ... لم يبق عهدهمو الا كذا شهرا
ملك عضوض لذا أيامه ملئت ... من الخداع وبالقتلى وبالأسرى
ولو ببيت رسول الله قد بقيت ... لم تفش فى الدين تلك الفتنة الكبرى
مشيئة الله فى أحبابه سبقت ... لحكمة حيرت فى فهمها الفكرا
فان يكن ولى الدنيا مناوئهم ... فقد ولوا المجد فى الدنيا وفى الأخرى

والنبوة المشار اليها آنفا هى ماقاله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق الامام الحسن وهو طفل صغير ، فقد قال فيما رواه البخارى : « ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

ونسأل الله للمسلمين سلامة الصدور ، وصفاء النفوس ، حتى تقوم بينهم ألفة جامحة ، يردون بها كيد الأعداء ، الذين يتربصون بهم الدوائر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، ويد الله مع الجماعة ، ولن يجد المسلمون لهم ناصحا انصح لهم من ربهم ، جل جلاله ، حين قال وقوله الحق :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

— ٢٤ —

« ولا تخف فالرضا حاصل ، وأنت كامل ، والحقوق لأربابها ، والزمان له دورته ، وسيتم لك ما تريد مادمت مع الله وقضى ربك ، وأنت ذو مزاج ظريف ، فحافظ عليه ، فاننا نريد لك الأنس والسرور ، ويدوم ان شاء الله ، وتأنس ويؤنس بك ، ويتم لك الصفاء والوفاء » .

جاءتنى هذه العبارة فى رسالة حررها لى من الاسكندرية شيخى العارف بالله سيدى عبدالسلام الحلوانى ، رفع الله قدره فى الأولياء ، حين كنت فى مقتبل شبابى ، وكنت آمل أن يكملنى الله بآداب عباده الصالحين : وأن يحشرنى فى زمرتهم يوم لقائه سبحانه ، وهم الذين قال عنهم فى القرآن المجيد ، « رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون » فأشار الشيخ رضى الله عنه الى أن ما أصبو اليه يتحقق بشرطه . وشرطه أن يكون المؤمن دائما مع ربه ، ويفسره قوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » كما أشار الشيخ فى عبارته .

وعبادة الله سبحانه تقتضى توحيده ، كما يفيد الاستثناء فى الآية الكريمة ، وتوحيده يقتضى طاعته ، وطاعته تقتضى تقواه ، وتقواه تقتضى الائتمار بأوامره ، والانتهاء بنواهيه ، وذلك ما ينتهى بالمؤمن اذا صدق فى الائتمار والانتهاء الى محبة الله ، وايثاره تعالى على ما سواه ، وقد يطول جهاده فى هذا الشأن ، وقد يقصر بحسب فطرته ، وهمته ، وتقدير العزيز العليم .

ومن هنا يختلف خواص المؤمنين عن عوامهم .. فالعوام يكتفون فى لعبـادة بما يسقط عنهم الحرج ، أما الخواص فانهم يطلبون الكمال فى الدين ، فاذا نظر العوام الى تنفيذ الاوامر فان الخواص يرفعون همتهم الى محبة الأمر الذى صدرت منــه تلك الأوامر ، والذى أمر بهـا الحكمة هى الاتصــال به سبحانه ، اتصال حب وايثــار ، كسبا لرضــاه ، فى دنيا المؤمن وأخراه ، ولهذا قالوا « اياك نعبــد » شريعة ، « واياك نســتعين » حقيقة ، فالأولى فيها نظرة الى فعل العبد ، والثانية فيها نظرة الى فعل المعبود جل شأنه ، وخروج العبد من حوله الى حول الله وقوته رقى فى المعرفة والمذاق ، فيصل بالعبادة الى المعرفة ، والا كانت عبادة جوفاء ، لا غناء فيها ، ولا نماء ، ونعوذ بالله من حجاب الغفلة ، وكيف يغتر العبد بعمله ويجحد فضل ربه وهو القائل « والله خلقكم وما تعملون » .

والشريعة باب للحقيقة ، وانما تؤتى البيوت من أبوابها ، واذا كانت الشريعة هى الباب ، فالطريقة هى الآداب ، والحقيقة هى اللباب ، أو قل ان الشريعة هى التعلق ، والطريقة هى التخلق ، والحقيقة هى التحقق ، فلابد لك من الشريعة لتعبد ربك على صحة ، ولابد لك من طريقة تتبعها بارشاد عارف ، قبل أن تصل الى الحقيقة التى تنشدها من وراء العبادة ، فتؤثر الله على كل شىء ، فلا يكون لك قبلة ولا مقصد الا وجهه سبحانه ، كما يقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه :

قبلتى فى الصــلاة ســاعة وقت   كم مصــل بعد الصــلاة تلاهى
انمــا قبلتى جميــع حيــاتى   هى ذات الاله لــن أنســاها
فمســـائى مع اليقين نهــار   ونهــارى ســعادة برضــاها

والشريعة كالجسد ، والحقيقة كالروح فى الجسد ، فالروح تلابس الجسد ، ولا وجود للأرواح ، الا فى الأجساد مدة عمرها فى هذه الدنيا ، ولا حيــاة للأجساد الا بها ، ولذلك قال امامنا مالك رضى الله عنه : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفســق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق .

وأصل التصوف مقام الاحسان الذى عرفه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث مسلم المشهور الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم فى تعريف الاحسان : « ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

فالتصوف أحد أركان الدين ، لأنه مقام الاحسان الذى سأل عنه جبريل بعد أن سأل عن الاسلام والايمان ، وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عمر أتدرون من السائل » ــ وكان فى شكل رجل لا يعرفونه ــ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، فالاسلام الايمان والاحسان هى أركان ديننا ، فمن فرط فى واحد منها فقد فرط فى ركن من أركان دينه ، كما قال الامام الجلال السيوطى فى تعقيبه على الحديث الشريف .

ويقول سيدى الامام زروق — رضى الله عنه — فى كتابه القيم « قواعد التصوف » : حكم التابع كحكم المتبوع فيما تبعه وان كان المتبوع أفضل ، وقد أثبت الله لأهل الصفة وصفه الخالد « يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وهذا هو أصل التصوف،ثم يقول رضى الله عنه ، وقد كان أهل الصفة فقراء فى أول أمرهم حتى كانوا يعرفون بأضياف الله ، ثم كان منهم الغنى والأمير ، والمتسبب والفقير ، لكنهم شكروا عليها حين وجدت ، كما صبروا عليها حين فقدت ، فلم يخرجهم الوجدان عما وصفهم مولاهم به ، من انهم يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، كما أنهم لم يمدحوا بالفقدان ، بل بارادة وجه الملك الديان ، وذلك غير مقيد بفقر ولا غنى اذا كان صاحبه يريد وجه الله » .

ويقول أيضا رضى الله عنه : وشرف الشىء بشرف متعلقه ، ولا أشرف من متعلق علم التصوف ، لأن مبدأه خشية الله ، التى هى نتيجة معرفته ، ومقدمة اتباع أمره ، وغايته افراد القلب له تعالى ، فلذلك قال الجنيد رضى الله عنه : لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت اليه .

ومن كلام الامام زروق تدرك أنه لا سلبية عند السادة الصوفية كما ظن البعض خطأ ، حين نظروا الى أدعياء التصوف فى القرون المتأخرة ، حين صار التصوف حرفة لبعض المعممين ، يتصدرون به الأتباع ، ويجمعون منهم الأموال ويسعون بهم الى ولائم الطعام ، ويرددون عبارات صوفية ، كما يردد الببغاء أصوات المتكلمين دون فهم لمعناها ، أو عمل بمغزاها ، وما دروا أن التصوف علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة ، وكسب من حلال ومجاهدة فى بلوغ الكمال وارادة وجه الله تعالى فى كل حال .

وما أبدع ما يقوله العارف بالله الشيخ حسن رضوان — رضى الله عنه — فى روض القلوب المستطاب فى وصف أولئك المحترفين البطالين :

اعموا جميع الخلق عن سير السلف ... واستكملوا ما كان من جهل الخلف
واستعملوا أحوال سير العارفين ... حفظا وتقريرا فقط لا عن يقين
بل تلك أحوال لديهم مصيدة ... بالدين للدنيا ونار مؤصدة
ما هكذا والله كان السابقون ... الأولون المخلصون الصادقون
الذائقون الخاشعون الصالحون ... القانتون المتقون المفلحون
التائبون العابدون الحامدون ... السائحون الراكعون الساجدون

ولا يخفاك أنه مهما جد الصوفية ، فانهم لا يبلغون مستوى الصحابة ، فالسادة الصحابة هم خير القرون فى هذه الأمة ، وقد كانوا أسودا فى نهارهم ، وعبادا فى ليلهم ، وقد تولوا وظائف الدولة ، وضربوا فى الأرض للتجارة ، وأنفقوا طائل الأموال فى الصالح العام ، وقد حموا بيضة الاسلام بالسيف والقلم والمال ، والصوفية يتشبهون بالسادة الصحابة فى ارادة وجه الله فى كل أعمالهم ، فينظرون وهم يعملون الى المعبود لا الى العباد ، فلا يحفلون بمدح العباد أو ذمهم ، لأن ارضاء الله فى عباده وبلاده هو قصدهم ، وهم فى المجتمع يعاملون الله فى عباده ، ويريدون وجهه .

وقد وصف الله السادة الصحابة فقال في وصفه الرائع جل شـأنه « في بيـوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسـبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » وإذن كانت للسادة الصحابة تجارة ، وكانت لهم أموال تجب فيها الزكاة ، ولكن هذه التجارة ، وتلك الأموال ، لم تلههم عن أداء حقوق الله ، فذكروا الله ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وخافوا يوم الحساب ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .

وقد أدار الخلفاء الراشدون دفة الحكم ، أحسن ادارة وأقومها ، وأعدلها ، وجيشوا الجيوش لحماية الأوطان ، وكانوا من السابقين الأولين من المهاجرين ، كما قاد سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد ، وأبو عبيدة ابن الجـراح ، وغيرهم ، الجيوش أبرع قيـادة ، فكيف يظن أن التزام الدين ، وأخذه بقوة ، يضعف دنيا المؤمن ، وقد كانت السيادة للمسلمين في العالمين حين كانوا أشد استمساكا بالدين في القرون الأولى ، ذلك الاستمساك الذي أعانهم على فتح المشارق والمغارب ، ونشر الدين واللغة بين ربوعها : ولم يكتب التاريخ البشرى ، ثمرة لأى فتح مثلما كتب للفتح الاسلامي ، الذي أعلا الله به كلمة الحـق في الأرض ، ونشر به الهدى والنور ، والعدل الاجتماعي ، بين الأغنياء والفقراء ، والضعفاء والأقوياء والعلمـاء والجهلاء ولم يعهـد التـاريخ امبراطورية قامت على عجـل كالامبراطورية الاسلامية ، وقد ساعد على سرعة قيامها تمسك المسـلمين بالدين ، فلم يظلم قويهم ضعيفهم ، ولم يبخل غنيهم على فقيرهم ، ولم يكتم عالمهم علمه عن جاهلهم ، ولم يميز حاكمهم بين الشريف والوضيع ، فالكل أمام حكم الله سواسية كأسنان المشط ، فهل ترى ايجابية فوق ذلك .

وورع الحاكم ، لم يكن معنـاه ضعف ادارته أو تهاون في حقـوق الأمة ، بل كان ورعه يقوم على اعطاء كل ذي حق حقه ، فقد قال أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : ألا وان قويكم عندي

ضعيف حتى آخذ منه الحق ، وان ضعيفكم عندي قوى حتى آخذ له الحق ، وقد ضرب عمر رضى الله عنه بدرته حتى أوجع ، وقالوا كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج ، وقال عثمان رضى الله عنه ، ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وجرد أمامنا على كرم الله وجهه السيف فى أعناق الخوارج ، بعد أن بصرهم فلم يسمعوا أو يطيعوا ، وهؤلاء الأئمة الأربعة هم صفوة الصفوة من هذه الأمة .

فالتصوف الحق ، لا يعرف الضعف ، أو الخمول ، أو الجهل ، أو الذلة ، بل هو جهاد للنفس يقهر غرائزها المركوزة فى الطبع ، حتى تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، فتسمو عن الحيوانية ، الى المثل الأعلى ، الذى أراده الله تعالى ، للانسان فى كماله ، وأهله به ليكون له شرف خلافته فى الأرض ، فتعلو كلمة الحق على كلمة الباطل ، وتشيع بين الناس الفضيلة وتختفى الرذيلة ، فيسعد الناس فى دنياهم وأخراهم .

والتصوف هو طهارة القلب واليد واللسان والجوارح ، والصوفى كله رحمة بالخلق ، وكله حب لله تعالى الذى خلق الخلق ، ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه ، « ان الحب الذى استحوذ على قلب الصوفى ، ليس هو حب الانسان لله فحسب ، بل هو حب الله لجميع البشر ، فمن خلال هذه العقيدة فهو يحب الانسانية كلها حبا تعبديا ، وليس هذا الحب هو الأخوة التى يوصى بها الفلاسفة باسم العقل ، انه لشىء أكبر مما تفهم الفلاسفة .

وقد فاض علم الغزالى فأنار به طريق الحق ، للتابع والمتبوع ، والحاكم والمحكوم ، وأبرز به فضل الاسلام على الفلسفة العقلية التى فتنت أهلها ، ودافع به عن حق الأمة ، فقد كتب ليوسف بن تاشفين ملك المغرب يقول له ان لم تنهض لنجدة اخوانك المسلمين بالأندلس برىء منك الاسلام .

ونيفت مؤلفات الامام محيى الدين بن عربى على أربعمائة كتاب ، وقد أسهم فى الحروب الصليبية بيده وبيانه وقد كتب للملك الكامل الأيوبى يقول له : ان لم تنهض لقتال الصليبيين فاننا سنقاتلك كما نقاتلهم .

وقد استمع شيخ الاسلام العز بن عبد السلام الى الامام الشاذلى وهو يدرس لاتباعه فى ساحة الحروب الصليبية فخرج صائحا يقــول هذا قريب العهد من الله ، هذا من الهام الله وهداه .

وقالوا ان فكرة كتمان موت الملك نجم الدين كانت بايعاز من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، فنفذت الفكرة شجرة الدر ، وكتمت موت الملك ، الى أن يأتى ابنه توران شاه من الشام .

واستمع بعد ذلك الى التعريف الذى قدم به الصوفية الامام السراج الطوسى فى كتابه اللمع حيث قال رضى الله عنه :

« فاذا قيل لك الصوفية من هم فى الحقيقة صفهم لنا فقل : هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله تعــالى ، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا الفانون بما وجدوا .

« هم أمناء الله عز وجل فى أرضه ، وخزانة أسراره وعلمه ، وصفوته من خلقه ، فهم عباده المخلصون ، وأولياؤه المتقون ، وأحباؤه الصادقون الصــالحون ، منهم الأخيــار ، والسابقون الأبرار ، والمقربون والبــدلاء والصديقون .

« هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم ، وزين بخدمته جوارحهم ، وألهج بذكره ألسنتهم ، وطهر بمراقبته أسرارهم ، سبقت لهم منه الحسنى بحســن الرعاية ، ودوام العناية ، فتوجهم بتــاج الولاية ، وألبسهم حلل الهداية ، وأقبل بقلوبهم عليه تعطفا ، وجمعهم بين يديه تلطفا ، فاستغنوا به عما سواه ، وآثروه على ما دونه ، وانقطعوا اليه ، وتوكلوا عليه ، وعكفوا ببابه ، ورضوا بقضائه ، وصــبروا على بلائه ، وفارقوا فيه الأوطان ، وهجروا له الاخوان ، وتركوا من أجله الأنساب والأسباب ، وقطعوا فيه العلائق ، وهربوا من الخلائق ، مستأنسين به ، مستوحشين مما ســواه « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

أقول وقد فارق المهاجرون مكة فرارا بدينهم الى الحبشة والمدينة ، وقطع الأنصار صلاتهم بأهل مكة ، ايثارا لله على الأنساب والأسباب ، وحرصوا على أن يبقى فيهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهانت عليهم كل تضحية فى سبيل الله ، حتى لقد قال أبو الهيثم بن التيهان فى بيعة العقبة الثانية ، يا رسول الله ، ان بيننا وبين الناس « أى أهل مكة » صلات وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان أظهرك الله عليهم ان تدعنا وترجع اليهم ، فأجابه صلوات الله عليه وآله ، معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم ، فقال أبو الهيثم ، هذه يدى فخذ لربك ولنفسك ما أحببت .

وقد مدح الله المهاجرين والأنصار بتضحياتهم فى آيات كثيرة من كتابه الكريم ونستشهد على سبيل المثال بقوله تعالى « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » وقد قهروا بجهادهم غرائز النفوس وطرحوا هواها وهى تميل بطبعها للاخلاد الى الراحة وامساك المال ، وتأسوا فى جهاد أنفسهم بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فاق فى جهاد نفسه كل المجاهدين ، فآثر ربه على كل ما أغروه به من ملك أو مال ، وقال قولته المشهورة لعمه أبى طالب حين عرض عليه كفار مكة ملك الدنيا « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وقد ورثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم والعمل والجهاد ، وأخذ التابعون عن الصحابة ، والتابعون عن التابعين وهكذا أخذ الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، ويعبر انس بن مالك رضى الله عنه عن الفراغ الكبير الذى أحسوه بانتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى فيقول : ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه السلام حتى أنكرنا[1] قلوبنا ، وذلك يدلنا على أن رؤية شخصه الكريم كانت نافعة لقلوبهم التى تأثرت بوحشة فراقه ، وان بقيت فيهم مثله العليا وسننه الطاهرة الزكية .

والشيوخ العارفون ، وهم العلماء الربانيون نواب عنه ، صلى الله عليه وسلم ، فى دعوة الخلق الى الحق ، لذلك كان الأخـذ عنهم غنيمة ، والاجتماع بهم ، والاستماع اليهم رحمة ، ولنفع الاجتماع فى سبيل الله ، شدد الله على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التزامه ، ونهاهم عن تركه الا باذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفوضه صلى الله عليه وسلم فى أن يأذن بتركه أو لا يأذن ، وذلك فى قوله تعالى « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم » ..

ويقول الامام النسفى — رضى الله عنه — فى تفسيره لهذه الآية : لما أراد الله عز وجل أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير اذنه اذا كانوا معه على أمر جامع « كل اجتماع فى الله كالتدبير للحرب والجمعة والعيدين » جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الايمان بالله والايمان برسوله ، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الايمانين وعرض بحال المنافقين ، وتسللهم لواذا « يستتر بعضهم ببعض » ، وفى قوله تعالى « فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله » رفع شأنه عليه الصلاة والسلام ، وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل ألا يستأذن ، ثم يستطرد الامام النسفى قائلا : قالوا وينبغى أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم الا باذن .

ولئن أمكن أخذ العلم من الكتب بدون معلم ، فان آداب القلوب متعذرة وبدون مؤدب ، لأن النفس أمارة بالسوء ، وآفاتها أخفى من دبيب النمل ، وكفى شرفا لعلم التصوف ، وهو علم تربية القلوب ، ان يطلبه سيدنا موسى عليه السلام فيسعى للخضر عليه السلام ليأخذه عنه ، حين

أعلمه الله ، أنه على علم من علم الله لا يعلمه موسى عليه السلام ، وان كان من المرسلين أولى العزم ، فحرص على طلبه من مصدره ، فقال فى أدب رفيع للخضر عليه السلام : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » وبقية القصة معروفة ، واذا كان كليم الله وصاحب التوراة ، سعى لرجال الله ، فنحن أحوج منه الى ذلك السعى .

وها هو أمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يذكرنا بأمر آخرتنا فى بلاغته السامقة فيقول :

« الا ان الدنيا دار لا يسلم منها الا فيها ، ولا ينجى بشىء كان لها ، ابتلى الناس بها فتنة ، فما أخذوه منها لها ، أخرجوا منه وحوسبوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه ، وأقاموا فيه ، فانها عند ذوى العقول كفىء الظل ، بينا تراه سابغا حتى قلص ، وزائدا حتى نقص » ..

ويصف كرم الله وجهه التقى من أهل اليقين بالله فيقول فى روعة وصفه : « قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى عن الهموم ، الا هما واحدا انفرد به ، فخرج من ضعة العمى ، ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغالق أبواب الردى .

« قد أخلص لله فاستخلصه فهو من معادن دينه ، وأوتاد أرضه ، قد ألزم نفسه العدل ، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه .

« يصف الحق ويعمل به ، لا يدع للخير غاية الا أمها ، ولا مظنة الا قصدها ، قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وامامه ، يحل حيث حل ثقله ، وينزل حيث كان منزله » .

وذلك الوصف يفسر لك كيف وقف السادة الصحابة فى الصف الأول بقلوبهم مع الله ، لأخذهم الدين بقوة العزائم ، فورثوا الدنيا بقوة الدين ، حيث أهمهم أن ينشروا أنوار الاسلام فى الخافقين ، فكان لهم من اخلاص نواياهم ، وقوة عزائمهم ، ما أرادوا ، مصداقا لوعده سبحانه « ولينصرن الله من ينصره » ونصرة الله انما تكون باقامة دينه والعمل على نشره لتكون كلمة الله هى العليا ، وقد أيدهم الله فى جهادهم بجنود لا تراها العيون .

ويشيد المغفور له الدكتور محمد اقبال فيلسوف المسلمين فى العصر الأخير ، بآثار أسلافنا الصالحين الأولين فيقول فى قصيدته الرائعة المسماة « شكوى » التى نقلها الى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان فيما قال طويلا رحمه الله فى نجواه لرب العالمين :

بلغت نهـاية كل أرض خيلنـنـا ... وكأن أبحـرها رمال البيـــد
فى محفل الأكوان كان هلالنـا ... بالنصر أوضـح من هلال العيد
فى كل موقعــة رفعنـا راية ... للمجــد تعلن آية التوحيـد
أمم البـرايا لم تكن من قبلنـا ... الا عبيـدا فى أسـار عبيـد
بلغت بنـا الأجيـال حرياتها ... من بعد اصـفاد وذل قيـود

ويحن الى حماة الاسلام وأبطاله الأوائل ، ويذكر عهدهم السعيد فيقـول :

كيف انطوت أيامهم وهم الألى ... نشروا الهدى وعلوا مكان الفرقد
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم ... من يهتدى للقوم أو من يقتـدى
يا قلب حسـبك لن تلم بطيفهم ... الا على مصـباح وجـه محمد
فازوا من الدنيـا بمجـد خالد ... ولهم خلود الفـوز يوم الموعـد
يا رب ألهمنـا الرشـاد فما لنا ... فى الكون غيرك من ولى مرشد

ثم يبين ، طيب الله ثراه ، إننا ان مللنا حب الله ، ضللنا سواء السبيل فيقـول :

لم يبق فى الأرواح غير بقيـة ... رحمـاك يا مرآة كل جمـال
لو قد مللنـا العشق كان سبيلنا ... ان نستكين الى هوى وضـلال
أيام سـلمان بنـا موصـولة ... وتقى أويس فى أذان بـلال

ويقول :

النمـل لا يخشى سـليمانا اذا ... حرست قراه عنـاية الرحمـن
يا ليت قومى يسمعون شـكاية ... هى فى ضميرى صرخة الوجدان
اسـمعهمو يا رب ما ألهمتنى ... وأعـد اليهم يقظـة الايمـان

وأذقهم الخمـر القديمـة انهـا عين اليقين وكوثـر الرضـوان
أنـا أعجمى الدن لكن خمـرتى صنع الحجاز وكرمها الفينـان
ان كان لى نغم الهنـود ولحنهم لكن هذا الصـوت من عـدنان

وهكذا نرى أن هذا العبقرى ، جال فى الملكوت بيقينه ، ولم تحجبه دراسته الغربية عن الاعتزاز بدينه وأسلافه ، وقد نال اقبال أعلى الأجازات العلمية من انجلترا وألمانيـا فى الفلسفة والآداب والقـانون .. وتولى التدريس بعد عودته فى جامعات بلاده .. كما تولى المحاماة ، ولكنه عزف على قيثارة ايمانه .. أنغاما شـجية ترددت فى مسـامع الشرق والغرب .. وسجلت لهذا المسلم الصوفى الغيور أثرا — يذكره له الخلف — وقد كتبه الله له فى ديوان حسناته ، وسيجزيه به جنات الخلد ان شاء الله .. ولعل شبابنا من أصحاب المواهب يحتذون هذا المثل العالى .. فلا تلهيهم دنياهم عن أخراهم .. وما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا .

وهؤلاء الصـوفية يصلون الى الله تعـالى بأرواحهم لا بأبدانهم .. ويملأ حب الله قلوبهم ، كما يملأ المعشـوق قلب العاشق فلا يترك فراغا لغيره « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » جعلنا الله من الموصـولين الواصلين « والسـابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . »

— ٢٥ —

« وكن مع أهل الحقيقة ، وابحث عنهم بحث الباحث عن حق يرجع اليه لنفسه فقط » .

جاءتنى هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العاف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، قدس الله سره ، وحاولت أن أفهمها ، بشيء من السعة ، فسألته حين جاء الى القاهرة فى معناها فقال لى : اتركها حتى يفسرها الزمن .

وعاشرته رضى الله عنه ، خمسه عشر عاما ، مرت كحلم النائم ، وفقدت بموته ، اماما فريدا ، نسيج وحده ، شعرت بفراغه ، ويزداد شعورى بالفراغ كلما مرت الأيام ، وفقد الأدلاء الأتقياء غربة ، لأن الانس بالله تعالى وطن المحبين ، والشيوخ العارفون هم أدرى الناس ببقاع ذلك الوطن ، فقد أنابوا الى الله فعرفهم قصد السبيل ، ونصح سبحانه المؤمن باتباعهم فى قوله الكريم « واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون .

وتقدمت بى السن ، وخبرت الناس وبلوتهم ، وأكسبتنى التجارب معرفة بأحوالهم وأهوالهم ، فلم يزدنى كل ذلك الا وثوقا فى نصيحة شيخى رضى الله عنه ، بل لقد ساعدتنى التجارب الطويلة على كشف ما كان مخبوءا ، فظهر لى أمره ، وبان لى سره ، فلم أجد الحق الا عند أهل الحقيقة ، ولم أجد الحقيقة الا عند رجال الله الذين شرفهم بالانتساب اليه فسماهم عباد الرحمن ، ووصفهم بأنهم حزب الله ، وشهد لهم بالفلاح في قوله الكريم « أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » .

لكننى وجدت كذلك ، مع وضوح الطريق اذ تحف به أنوار الكتاب والسنة من كل جانب ، فانه دقيق المسالك ، حيث تصحب سالكه آفات النفس ومكايد الشيطان ، والنفس تركن الى الراحة ، والسلوك يحتاج لهمة السالك ، والشيطان يقعد بطريقه ، يصده عن ذكر الله وطاعته ، ويزين له حب الشهوات ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، والامام المتبوع من أهل الهدى ، لازم فى عونه على اجتياز هذه المفاوز المردية ، فان اجتازها جاءه الشيطان من طريق آخر ، فأكبر له جهاده ، وصغر له جهاد غيره ، فزها بنفسه فى قرارتها ، واحتقر غيره ، فكان ذلك عين الحجاب عن طلب الحق ، لأن طالب الحق لا يرضى عن نفسه حتى يردها الى الله طاهرة ، كما تلقاها عنه طاهرة ، كما يقول السادة الصوفية . ويفنى عمر السالك دون هذه الغاية ، الا أن يشاء ربى شيئا ، لأن الدرب طويل ، والغاية بعيدة الا أن يقربها الله تعالى هبة واحسانا .

ثم ان العمل الصالح ، أساسه الايمان بالله تعالى ، والايمان هبة الله تعالى لعبده فى سوابق أزلة ، وكذلك يتجلى فضل الله فى ارسال رسوله الينا صلى الله عليه وسلم ، وفى ابقاء معجزة القرآن بين أيدينا ، متحدية على الدوام باعجازها المفحم الانس والجن ، وهو ما يزيدنا اطمئنانا الى صحة ديننا ، كما يزيدنا وثوقا فى ثمرة العمل به ، والنظر فى كل ذلك الى فضل الله تعالى ، وشكره على ما أولى وأنعم .

ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه ، فى قوت القلوب :

« أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى ، وطول الغفلة عن المنعم ، وترك التفكر فى نعمه ، والتذكر لآلائه ومننه سبحانه وتعالى فقد أمر بذلك فى قوله تعالى « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » قيل نعمه ، وقال المفسرون « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » وبمعناه قوله تعالى « ولتكملوا العدة

ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » يعنى على نعمة الهداية وتوفيق الطاعة .

ويقول رضى الله عنه فى موضع آخر ..

« ولا يستطيع العبد شكر نعمة الايمان ، ومعرفة بداية التفضيل به، وقديم الاحسان ، من غير قدم من العبد ولا استحقاق ، بل بفضل الله وبرحمته ، وهذا أحد الوجوه فى قوله تعالى « كلا لما يقض ما أمره » أى لايقضى العبد أبدا شكر ما أمره الله تعالى من نعمة الاسلام التى هى أصول النعم فى الدنيا والآخرة ، وهى سبب النجاة من النار ، ومفتاح دخوله الجنة ، ولا أدل للعبد فيها ولا شفيع كان له الى الله تعالى بها .

« ثم دوام ذلك وثباته مع الطرف والانفاس بمدد منه نعم مترادفة ومن هذا قوله تعالى :

« كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » أى قواهم بمدد يثبته ويقويه وهو معنى قوله تعالى :

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

ثم يقول : « فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال أى شىء كنا نصنع ، وعلى أى شىء كنا نعول ، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو فهذا من كبائر النعم ، ومعرفته هو من شكر نعمة الايمان ، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الايمان يوجب العقوبة .

واستطرد قائلا : « وقد جعل الله تعالى الخيرات من كسب الايمان ، وليس لنا فيما يكسبنا الخيرات مكان ، بل الله تعالى من علينا ان هدانا للايمان ، وجعله سببا يكسب لنا باحسانه الاحسان ، كما قال تعالى « أو كسبت فى ايمانها خيرا » قيل التوبة ، وقيل الصالحات كلها كسب الايمان

« ومن النعم بعد الايمان ، توفيقنا للحسنى ، وتيسيرنا لليسرى ، ثم صرف الكفر وأخلاق الكفرة وأعمالهم ، ثم تزيين الايمان وتحبيبه الينا ، وتكريه الفسوق والعصيان فضلا منه ونعمة ، الى ما لا يحصى من نعمه ،

فشكر ذلك لا يقام الا بما وهب أيضا ، وأنعم به من المعرفة بذلك والمعونة عليه .

وأبدع فقال : « والحياء من تتابع النعم هو من الشكر ، والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلةالشكر شكر ، والمعرفة بعظيم الحلم وكثيف الشكر شكر ، وحق التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الخلق بالدعاء لهم وحسن الثناء عليهم لأنهم ظروف العطاء وأسباب المعطى تخلقا بأخلاق المولى جل وعلا هو من الشكر ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول ، وتكثير صغيرها ، وتعظيم حقيرها هو من الشكر » .

وأنت ترى فى السطور المتقدمة ، شعاعا قويا يهــدى الى الرشد والتبصرة ، وليس كل عالم مشعا بمثل هذا الاشعاع القوى وهو اشعاع أهل الحقيقة الذين أرشدنى شيخى رحمه الله أن أكون معهم ، وأن أبحث عنهم ، بحث الباحث عن حق يرجع اليه لنفسه فقط ليربيها فى جنب الله ، على يد هؤلاء السابقين بالخيرات باذن الله ، وقليل ما هم .

وما استضأت مرة بنورهم ، ولا غرفت شربة من بحارهم ، الا دعوت الله ، أن يجزى عنى شيخى خيرا كثيرا . فقد عرفنى بهم ، وورثنى محبتهم والتزامهم ، وحقا ما يقوله الامام سهل التسترى « وهو شيخ الامام أبى طالب المكى » : ان الدين الحى هو ما صبته الصــوفية حارا فى النفس الانسانية . ويعرف رضى الله عنه التصوف فيقول : التصوف ليس رسما ولا علما ، ولكنه خلق ، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله « أى الأخلاق التى ترضى الله تعالى » ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الالهية بعلم ورسم .

ويدلك الامام سهل على طريق الخير فيقول : لا تفتش عن مساوىء الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن عن اخلاق الاسلام ، وحالك فيه حتى يعظم قدره فى نفسك وتجتهد فى التلبس بتلك الأخلاق .

ويقول الامام السراج الطوسى فى كتــاب اللمع ، ذكر عند سهل ابن عبد الله رحمه الله الكرامات فقال : وما الآيات وما الكرامات ، شىء ينقضى

لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود .

ومما تقدم تدرك ان التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف ولا تظن أن كرم الخلق ان تكون طيب الخلق مع الناس ، وتهمل واجباتك الدينية ، التى تعبدك بها ربك لمصلحة تعود عليك فى آخرتك فقد قال تعالى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

واذا كان المؤمن يتحلى بالخلق الكريم مع عباد الله الذين لا يملكون له نفعا ولا ضرا من دون الله ، فكيف به يهمل الخلق الكريم مع ربه ، الذى غمره باحسانه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها فوجبت محبة الله باحسانه الينا ، فان أحببناه أطعناه ، والا كانت محبتنا دعوى كاذبة ، وفرية باطلة .

ويرى الامام سهل رضى الله عنه ان الحياة الروحية فى الاسلام ترتكز على دعامتين كبيرتين ، معرفة الله سبحانه ، والتخلق بالمثالية الرفيعة ، ويرى أيضا ان المعرفة تقتضى الطاعة ، والطاعة تقتضى الاقتداء الكامل بالرسول الكامل صلوات الله وسلامه عليه ، لذلك يقول الامام فى نصائحه : لا معين الا الله ، ولا دليل الا رسول الله ، ولا زاد الا التقوى ، ولا عمل الا الصبر ، وقد قيل له ما أغرب الأشياء قال قلب عرف الله ثم عصاه .

ويقول رضى الله عنه فى قواعد الصوفية : أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق . ويعرف رضى الله عنه الولى فيقول : الولى من توالت أعماله على الموافقة .

ولا تعجب لما يقوله الامام سهل ، فقد أوتى الحكمة صغيرا ، بعناية ربانية ، وهبة احسانية، حتى قال: وكان حالى فى الصلاة، وقبل الدخول فى الصلاة شىء واحد ، وحين وصف حاله لشيخه حمزة بن عبد الله قال له بشراك يا سهل ، وطوبى لك ، لقد بلغت الذروة العليا ، وانتقلت الى المقام

الأسمى ، لقد سجد قلبك ، وهو أعلى مراتب اليقين ، وما أحسب اليوم أن فى الأرض سواك فى هذا المقام .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر ، فى كتاب الفتوحات : كان بدء سهل فى هذا الطريق سجود القلب ، وكم من ولى كبير الشأن ، طويل العمر ، مات وما حصل له سجود القلب : ولا يعلم ان للقلب سجودا مع تحققه بالولاية ، ورسوخ قدمه فيها ، فان سجوده اذا حصل ، لا يرفع رأسه أبدا من سجدته ، فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التى تنفرع منها أقدام كثيرة .

وقد سئل الامام سهل عن ذات الله فقال ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالاحاطة ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا احاطة ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهرا فى ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار ، من غير احاطة ولا ادراك نهاية .

ولم يحرم الله عصرنا الحاضر من فيض رحمته واحسانه ، فجرت ينابيع الحكمة على ألسنة شيوخنا ، عذبة صافية ، كما كانت تجرى على ألسنة أوائلنا الصالحين ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . واليك بعض ما نقلناه عن أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه ، فى المقامات التى مرت عليك فى هذا المقال وهو من الهامه الفورى :

انى أحب الهـا لا شريك لـه	وذاك روحى وريحانى وتبتيلى
امسك لسانى عن قال وعن قيل	ان التشدق عنوان الأباطيل
طوقت بالشرع جيدى واكتسبت به	وما جنحت لتبديل وتأويل
ان المحبة للرحمن خالصة	اغنت فؤادى عن كسب الأقاويل
ولو تساوى عطاء الله ما اختلفت	تلك البرية فى فهم وتعليل
لولم تكن رحمة الرحمن قد سبقت	ماصين حكم ولم يعمل بتنزيل
رشفت من فيضه نورا فهمت به	وما يدانيه فيض السحب والنيل
نورا يطهر نفسى من هواجسها	فللحقيقة تشبيهى وتمثيلى

ليلى نهارى اناديه ويسمعنى ... واذ ينادى فكل السمع يزهولى
وان منحت بفيض من سماحته ... يرق لى فى كلام الله ترتيلى

وفى مقام آخر نقلنا عنه من الهامه الفورى قوله رضى الله عنه :

القلب من قوة الايمان مشهده ... وفى بحار التجلى طاب مورده
ألوذ بالله لا أبغىَ به بدلا ... ومن يلوذ بباب الله يسعده
وان لى بحبيبى وصلة وهدى ... وصادق القلب لا ينفك يشهده
ارضى به وهو يرضينى ويغمرنى ... بفضله وبهذا العلم أعبده
أخلى فؤادى له من كل شائبة ... ان عشت أو مت أعضائى توحده
وكيف أرضى بغير الله متجها ... والكل والجزء والاحشاء تحمده
اذا سهرت فما أسهرت عن ملل ... لكنه الحب يدعونى وأشهده
ومذ تغزلت فى ربى وما ألفت ... روحى سواه تجافى الجفن مرقده
اذا مددت يدى لله أسأله ... مدت الى بمعنى فضله يده

ويقول كذلك رضى الله عنه الهاما لوقته :

خليانى أبكى من الأجفان ... فحبيبى وحقه ما جفانى
وفؤادى لما تعلق بالله ... ترقى الى أعز بيان
لازم الله باليقين ترقى ... وتلقى موارد الاحسان
لو تراه والحب فيه كمين ... فيه عينان بالهدى تجريان
ان تكلمت فالاله مرادى ... أو تحدثت فالهدى فى لسانى
وأمد اليد الذليلة لله ... بصدق وذلة وهوان
واذا ما اليه مدت يمينى ... فالينا مدت لربى يدان
كلما قلت يا الهى شربا ... أجد البحر زائد الفيضان
واذا ما طلبت منه مرادا ... أشهد العلم فيه كالطوفان
ان للحب بهجة وجمالا ... وكمالا فى كل قلب دان
لا تظنوا قلبى ينام من الحب ... ولكن تنام لى عينان
جرب العشق مهجتى فرآها ... سكرت فى الهدى وحسن المعانى
لم أكن أظهر الغرام ولكن ... قد أذاعت خافى الهوى أجفانى

وما أروع ما يقول الهاما على البديهة :

تخل ولا تحفــل بجن ولا أنس ... وعش فى هوى الرحمن تسعد بالأنس
وأقبل على مولاك بالقلب مخلصا ... وأسلم وسلم واتجه طالب القدس
وخذلك بالايمان أصدق وجهــة ... وطهر بها نفسا عن الغى والرجس
تجرد تجد مولاك أكبــــر ناصر ... وفوض له ما كان فى الغد والأمس
حياة الورى حلــو ومر وانمــا ... حلا المر بالتوحيد من رقة الحس
ومن لا يرى الا الالــه مــراده ... حرام عليه الخوض فى العرش والكرسى
وانــك لو عظمت دينك عالمـــا ... وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس
وكنت على الأحداث بالله راضيا ... سواء عليك الموت أو ساعة العرس
سعدت من الدنيــا بربك محسنا ... ونلت من الأخرى العطاء بلا بخس
يقولون لى من أنت قلت موحد ... الى ربه يسعى ولم ير من بأس
اذا قيل لى أطلب قلت ربى مطلبى ... وان قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى
وحلو الهوى عنــد لقــاء أحبتى ... ومر الهوى بعدى وفى هجرهم تعسى
وان حبال الوجــد تربط مهجتى ... وقلبى بحب الله يعبــق كالورس
وان كنت فى سعد فذلك فضـــله ... وان لم أكن من سادة العرب والفرس
حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه ... فطورا به أطفو وطورا به غطسى
الى أن أتتنى من لدنــه عنــاية ... وصلت بها بر الســـلامة والأنس

— ٢٦ —

« وانهج منهج أهل اليقين ، فسيكون لك شأن كبير ، وتستفيد فى الصحة اذا ذهبت فاستفد بالتقوى اذا آقمت » .

بهذه الكلمات نصحنى فى نشأتى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، وقد رأيت فى التزامها واتباعها الخير كله فى أمر دينى ودنياى ، وكان هو رضى الله عنه ، من أعلام أهل اليقين ، فسهلت لى صحبته ، ان أنهج منهجه ، وأن أتخلق بأخلاقهم ما استطعت ، وانى ان لم أبلغ ما بلغوا ، فأرجو أن أكون سالكا دربهم ، لا ألتوى عنه يمنة أو يسرى ، ومن سار على الدرب وصل .

أما شأنى فى الدنيا فقد بلغت فيه بعون الله فوق ما كنت أرجو أتوقع ، وقد التحقت بسلم الوظائف من أدنى درجة ، فرقيته درجة درجة الى أن بلغت منتهاه حتى صرت وكيلا لوزارة الخزانة ، وكنت بفضل الله فى كل ما وليته من الأعمال محل ثقة تامة من كبار رجال الدولة، وقدتفضل السيد رئيس الجمهورية فمنحنى وسامى الاستحقاق والجمهورية وهو ما أعتز به وأشكره لسيادته على الدوام ، كما تفضل حفظه لله فأذن لى بقبول ما منحته لى من الأوسمة بعض الدول الأجنبية .

أما فى أمر الدين ، فقد رزقت بعناية ربانية ، صحبة شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، وصحبة تلميذه العالم الربانى سيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه ، وقد أوتيت خيرا كثيرا من صحبتهما ، تلك الصحبة المباركة التى اعتبرها فوزا عظيما فى حياتى ، لأن درجات الدنيا وان حسنت ، لا تغنى عن درجات الآخرة ، وكيف تغنى عنها ، والله تعالى يقول « وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » كما يقول عز وجل « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس

المهاد » ويقول منوها بفضل الآخرة « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

ولقد تبين لى من صحبة هذين العارفين ، أن طريق الآخرة ، وان كان ميسرا لسالكه ، الا أنه دقيق المسلك ، طويل الدرب ، ويحتاج سالكه الى دليل من العارفين بالله ، يسرع به الخطا فى مأمن من التيه أو الانزلاق ، ذلك بأن النفس البشرية ، تنازع بشهواتها وهواها صاحبها ، ولا تكاد تنصرف عن شهوة الا الى شهوة أخرى ، وليس حتما أن تكون شهواتها جسدية ، فقد تكون شهواتها لصاحبها معنوية غير حسية ، كطلب الجاه والشهرة فى العلم أو الدين ، أو ثناء من الملتفين حوله ، أو كرامات تظهر على يديه من خوارق العادات ، أو نيل مقام من مقامات الولاية الى غير ذلك مما تنطوى عليه الصدور ولا تبديه الجوارح .

والتصوف انما يقوم على مغالبة هوى النفس فى جميع شهواتها ، حتى يعتدل مسلكها وتدور فى الفلك الصحيح ، وهو فلك محبة الله ، وايثاره تعالى على ما سواه ، ولما كان السير فى هذا الفلك ، له آداب ظاهرة ، وآداب باطنة ، وكانت الآداب الباطنة أخفى من دبيب النمل ، فقد وجب على المؤمن أن يستعين فى سلوكها ، بأهل اليقين ، الذين أنار الله بصائرهم ، فصاروا أئمة فى الارشاد ، يذللون كل صعب فى طريق السالك لربه ، أكثر مما يفعل الفقهاء فى تذليل الصعوبة فى فهم أحكام العبادات والمعاملات أو غيرها من سائر العلوم .

والعلماء الربانيون من أهل اليقين بالله ، هم الذين اصطلح على تسميتهم بلقب « **الصوفية** » ، وهم مقيدون بالشريعة ، ومؤيدون بالحقيقة ، لأنهم لا يبلغون **حقيقة الايمان** ، الا باتباع أحكام الشريعة ، فالحقيقة هى ثمرة العمل بالشريعة وهم يأخذون فى الدين بالأحوط ، فيأخذون بالعزائم والمجاهدات ، لا بالرخص والتأويلات ، وبذلك تصفو عبوديتهم لله ، فلا تستعبدهم شهوة ظاهرة أو خفية ، وهذا ما يفسر لنا قولهم فى تعريف الصوفى : هو ذلك الانسان الكبير الذى يتخطى الحدود التى رسمتها للنوع البشرى ماديته .

وفى التعريف المتقدم تكليف ضد الطباع ، وهو أمر لا يتسنى الا لمن كبرت همته فصارت أقوى من هوى نفسه ، فتسامى بروحه فوق ماديات الأرض ، ولا يتأتى له ذلك الا بعد التخلى عن أمراض قلوب العوام ، من الأخلاق الشيطانية ، كالحقد والحسد ، والكبر ، والحرص ، والفخر والرياء ، والخداع ، والسخط على المقدور والشماته بالأعداء ، الخ .. الخ .

ويحكى السادة الصوفية لنا فى هذا المجال أن الشيخ عبادة المالكى رضى الله عنه ، اجتمع بسيدى الشيخ مدين رضى الله عنه ، فلم يعظمه ولم يلتفت اليه ، فقال يا سيدى ، ما منعك ان تعطينى حقى فى الاكرام ، فقال كيف وأنت مشرك ، فقال وما وجه اشراكى ، قال حالك الذى أنت فيه الآن ، وطلبك التعظيم والخضوع لك ، وليس ذلك الا لله تعالى ، فمن ينازع الله فيما يستحقه ، ويطلب أن يكون له مثله ، كيف يكرم ، وانما يستحق الاهانة والاحتقار ، فسكت الشيخ عبادة ساعة ، ثم قال أشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، تبت الى الله تعالى ، وهذا أوان دخولى فى الاسلام أى كمال الاسلام .

وجهاد السادة الصوفية لأنفسهم ، جهاد متواصل لا ينقطع ، ولذلك ترى أرواحهم تتصاعد فى مراقيها ويلبسهم الله مهابة تغشى نفوس المريدين ، فهم سلاطين التقوى ، وان لم تخفق عليهم البنود ، والأمراء ، وان لم تسر أمامهم الجنود ، وكلما نزلوا فى معاملة خالقهم الى تواضع العبودية أرضا أرضا ، كلما رفعهم الى مقامات الخصوصية سماء سماء .

وقد قال القائل فى وصف الهيبة التى خلعها الله تعالى على أمامنا مالك بن أنس رضى الله عنه :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

وقد فهم أئمة الفقه الأوائل ، أن الفقه وسيلة للتفقه ، والتفقه لا يكون الا بالاخلاص فى تطبيق أحكام الفقه ، والاخلاص يقتضى أن يعامل الفقيه ربه فى أحكامه ، فلا يلتوى به القصد ، ولا يؤول الأحكام بهوى النفس ،

حتى يتخلق بالأخلاق النبوية ، التى بلغ بها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قمة الخلق العظيم في قوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » وهى آية عظيمة تفيد أنه صلوات الله وسلامه عليه بلغ فى خلقه الأفق الأعلى الذى أحبه الله وارتضاه .

وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت فى ابداع رائع ، وفقــه عميق ، كان خلقه القرآن ، أى أنه صلى الله عليه وسلم تخلق بكل خلق سنى دعا اليه الله تعالى فى كتابه الكريم ، وتجنب كل خلق دنى نهى عنه سبحانه ، فكان فى كماله الانسانى ، كما أحب الله أن يكون ، وصار صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا .

ولو كان المســلمون الأواخر قد التزموا نهج السابقين الأولين ما تفرقت بهم السبل ، ولا تشعبت بهم الأهواء ، ولكن حدث أن ترجمت فى الدولة العباسية كتب اليونان ، وكتب فلاسفتهم ، وأخذ بعض أهل العلم عنها للجدل ، وظهر علم الكلام ، وانتصر كل فريق لآرائه ، وتعصبت كل طائفة لمشربها ، وقدحت فى مشرب غيرها ، وجاء نشاط الجدل والسفسطة على حساب العمل الخالص لوجه الله ، وتعدى الجدل الى الفقهاء ، فعمدوا الى التخريجات ، والتأويلات ، وجعلوا من الفقه صناعة ، كصناعة شراح القانون ، وفترت الهمم فى طلب الله ، حيث أخذ الناس فى دينهم بالأخف الأيسر ، وبالقليل الذى يسقطون به الحرج عن نفوسهم ، وانضاف الى ذلك ظهور كثير من البدع نتيجة لاتســاع الفتوحات واختلاط المسلمين بغيرهم ، كما تلبس المسلمون بشهوات فشت فيهم ، ولم تكن فاشية فى أسلافهم .

وعندئذ غار أهل الحق من السادة الصوفية على فضيلة الاسلام أن تضيع ، فجدوا السير فى نشرها علما وعملا وحالا ، وجعلوا من أنفسهم مثلا عليا يحتذيها الخواص الذين يريدون وجه الله ، ويأخذون فى دينهم بالعزائم والمجاهدات ، ولا ينزلون الى الرخص والتأويلات ، فصانوا تراثا عزيزا كاد أن يندثر باشتغال الناس بالجدل دون العمل ، وبحظوة الدنيا دون

حظوة الآخرة ، ويقول امامنا على بن أبى طالب فى وصف أهل الحق : عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير ورعاته قليل .

ويقول السادة الصوفية انه اذا كان الايمان فى ظاهر القلب أحب الانسان الدنيا والآخرة ، فتارة له وتارة عليه ، واذا دخل الايمان باطن القلب أحب العبد الآخرة وهجر هواه ، واذا باشر الايمان سويداء القلب أعرض عما سوى الله ، كما يقولون ان التوحيد هو العلم ، والعمل أصل الايمان ، والايمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، فاذا ثبت سمى يقينا ، فاذا قوى سمى توحيدا ، فاذا رسخ سمى معرفة ، فمن عرف ربه راقبه ، وحاسب نفسه ، وعلم أنه يراه من حيث لا يراه ، فهو يستحى منه .

وأنت ترى مما تقدم أنه حين انحدر الفقهاء وجعلوا من الفقه صناعة تؤدى الى كسب الحظوة عند السلاطين والأمراء ، ثبت الصوفية عند تربية النفوس فى جنب الله ، وتقوية يقينها بالله علما وعملا ، وحسبة لوجه الله ، تنفيذا لأمر الله الكريم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ولابد للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يبدأ بنفسه أولا .

وقد سأل رجل الامام الحسن البصرى عن مسألة فأفتاه فيها ، فقال الرجل للامام الحسن قد خالفك الفقهاء فيها ، فزجره الامام الحسن وقال له ويحك وهل رأيت فقيها بعينيك ، انما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة الله عز وجل ، وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه : الفقيه من انفقأ الحجاب عن عينى قلبه .

ولم يتجه الصوفية الأوائل الى تأليف الكتب بل ألفوا القلوب على محبة الله وايثاره سبحانه عما سواه ، وآتاهم الله الحكمة الصافية من الهامهم العالى فنطقوا بها ، وتناقلها عنهم تلاميذهم ، وأسمعوها من يستحقها ، ممن يفهم مصطلحاتهم ، ويذوق مذاقاتهم ، ثم بدا للمتأخرين منهم ، أن يدونوا

علومهم ، ويثبتوا مصطلحاتهم ، خشية أن تضيع علومهم النافعة بموت أهلها ، فصانوا تراثا عزيزا أخذه الخلف عن السلف ، نورا مشعا يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، وخاصة فى آفات النفس وعلاجها بالمجاهدات الظاهرة والباطنة ، وهى أمارة بالسوء الا ما رحم ربى . وعلم التصوف انما قام على التجربة والعيان ، أكثر مما قام على الدليل والبرهان ، وان استندت آدابه الى الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح فى الفهم والتطبيق .

وقد منى السادة الصوفية ، بأدعياء يدعون التصوف ، وهم منهم براء ، فظن الناس بالتصوف سوءا حين نظروا الى جهل هؤلاء الأدعياء وتصرفاتهم المخزية ، فظنوا أن التصوف طبول ومزامير وطراطير وبطالة واحتيال ، وما هو الا العلم والعمل والجد الذى لا هزل فيه ، فما التصوف الا قلب عامر بالمحبة (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ووسائل التصوف علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وبصيرة نافذة ، وحالة مرضية .

لا يتصور اذن أن يبلغ مستوى التصوف العالى عوام المسلمين بل هو لخواص أهل اليقين ، والله تعالى جعل أهل الاسلام فى مراتب ثلاث فى قوله الكريم (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ومعلوم أن المؤمنين منهم أهل اليمين ومنهم السابقون المقربون ، وعلى قدر جهاد النفس ، وما قدره الله للعبد . فى سوابق الأزل يتفاضل مؤمن عن مؤمن وأهل اليمين فى الأمة المحمدية كثيرون بحمد الله ، أما السابقون فقليل ، لأن الجوهر النفيس يكون عزيز المنال عادة ، ولقلتهم فى المجتمع يظن الناس أنهم غير موجودين ، ولكنهم بفضل الله موجودون ولا يعرفهم بخصوصيتهم الا من أراد الله له السعادة بصحبتهم والأخذ عنهم ، وهم أهل همة لا تعرف الكلل ، وأهل عزم مؤكد لا يهزم .

ويقول فيهم أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، نور الله ضريحه ، من الهامه الفورى الذى قاله ارتجالا ونقلته عنه :

رجال ولكن علا قدرهم ... تبارك من لهم قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسى ... وهم عند ربك نور الغسق
ونارهم فى النعيم المقيم ... فيا عجبا جنة فى حرق

وقد كان رضى الله عنه من أئمة أهل اليقين فى عصرنا الحاضر ، وقد أسعدنى الحظ فعرفته ، وعرفت شيخه وشيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، وأخذت عنهما التربية الدينية الصوفية ، وفضلهما فى عنقى لا يكافئهما عليه الا الله تعالى ، وقد رأينا منهما أمثلة حية من السادة الصوفية الصادقين دلت على علمهم وعملهم ، وذوقهم وشوقهم ، وصدقهم وصفائهم رضى الله عنهم ، وقد نقلت عنه من الهامة الفورى قوله فى وصف حاله :

أنا صب ثابت القدم ... مستهام القلب من قدم
أملى فى الله يقبلنى ... فسوى الرحمن لم أرم
لم يشرنى الناس فى كلم ... انما الله مدى كلمى
ان أرادونى لمدح فتى ... لم تفه بالمدح بنت فمى
لست هجاء لأى فتى ... اننى عن كل ذاك عمى
وشرابى حب حضرته ... فهو مأمولى ومغتنمى
عزتى بالله واصلتى ... وقوى الايمان معتصمى
ان قلبى فى محبته ... قلب صب غير منفصم
أنا من حبى لحضرته ... لم أفق من لذة النغم
أنا من شوقى لحضرته ... تارك للناس كلهم
ليس يغنينى سواه هوى ... وهواه منتهى هممى
لم أزل فى حى حضرته ... مرتعا للعلم والحكم
وفؤادى من هدايته ... يرتوى من مورد الكرم
هاجنى وجدى وبه حرق ... لم تكن من شدة الضرم
بل هى الأنوار يقذفها ... فسرت فى مهجتى ودمى

ولعل القارىء الكريم ، يرى من خلال هذه الصورة التى أرانا اياها أستاذنا طيب الله ثراه ، كيف يكون الرجل من أهل اليقين ، فى حبه لله ، وكيف يشحذ همته فى طلب رضاه ، ولا عجب أن تبلغ همته ذلك المستوى الرفيع فقد سمع شيخنا الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه قائلا يقول :

واذا العنـــاية لاحظتك عيونهـــا   نم فالمخـــاوف كلهـــن أمـــان

فقال ولم ينام ؟ بل — قم فالمخاوف كلهن أمان،وهذا ذوق عال لايدركه الا أهله وذووه ممن عظم الخـــالق فى أنفسهم ، فحيت قلوبهم بمعرفته ، وازينت جوارحهم فى خدمته ، وعلت بمراقبته أسرارهم ، فمزقت الحجب أنوارهم ، وصفا شربهم من كأس وده ، وما أطهره من شراب ، وترك لنا شيخنا الأكبر أئمة أعلاما ، أخذنا عنهم ، بعض ما أخذوه منه ، وجزاه الله عنا وعنهم كل خير .

وقد كان الناس ، يفدون الى محافل شـــيخنا الأكبر قطب عصره ، ومجدد قرنه سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المبارك بالزقازيق ، وهو مربى شيوخى الأجلاء الأفـــذاذ ، فيطلبون اليه أن يأذن لتلميذه الملهم الشيخ على عقل أن يخمس لهم أبياتا من الشعر أو يشطرها ، أو يسمعهم قصيدة كاملة على وزنها ، أو يفسر لهم آية يختارونها من كتاب الله ، فكان الشيخ الأكبر يقول له ، سمعت يا على ، فيقـــول نعم سمعت يا سيدى ، فيأمره بالاجابة ، فيطرب الســـامعون لمايفيضـــه الله عليه من الهامه ، وكان سيدى الشيخ الأكبر يمزح معه أحيانا ، ويقول له : قل ، انك لا تأتينـــا بشىء من بيت أبيك ، وكان سيدى الشـــيخ عبد السلام الحلوانى يمتدح لى سيدى الشيخ على عقل وقال لى يا فلان (الشيخ على من أساطين الطريق) .

ومع الهامه الذى آتاه الله من فضله ، فقد رأينا من أستاذنا العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، حرصا على متابعة كتب السنة ، وكان رضى

الله عنه يحب صحيح الترمذى ، ويحفظه عن ظهر قلب ، وكان يقول لى ، لو كان الأمر بيدى لحملت الأزهر على تدريسه ، كما يدرس صحيح البخارى ، وكان يعلل حرصه على قراءة كتب السنة بقوله لا أحب أن يعاتبنى النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك الاطلاع على سنته يوم القيامة

وكنت اذا ذهبت الى الاسكندرية ، أحضر له درسه العام الذى يلقيه على المصلين بين المغرب والعشاء ، وأحضر له درسه الخاص ، الذى يلقيه على بعض الخواص من أحبابه بعد انصراف المصلين ، فكنت اقرأ له (لأنه رضى الله عنه كان كفيف البصر) ويتولى هو الشرح فيأتى لنا بالعجب العاجب فى شروحه ، من فيض الهامه ، ثم نمضى معه بعد هذا الدرس الخاص ، الى مجالس المريدين ، فينشدنا من حكمه ، ما ترق به قلوبنا ، وما تشتد به أشواقنا ، ثم تبدأ أسئلة العلم ، فيسأل من يريد فيما يريد ، وينساب الشيخ انسياب البحر اذا فاض ، وكان يحب أسئلتى ، وكنت أطرب لاجابته ، وأناقشه فيها لأزداد طربا .

وأذكر على سبيل المثال ، ما دار بينى وبينه رفع الله قدره فى الأولياء فى أمر التشهد فى الصلاة ، فقلت له انى أحب أن أذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيادة فى التشهد وبعض العلماء يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم قال لا تسيدونى فى الصلاة ، فأجابنى رضى الله عنه ، بأن هذا القول ليس بحديث واللغة العربية تقول سود لا سيد ، ثم قال : اذكره صلى الله عليه وسلم بغير سيادة فى التشهد عند قولك أشهد ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، واذكره بالسيادة كما تحب بعد ذلك ، فقلت له وما السبب ؟ فسكت قليلا ثم قال هكذا علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت له ، وكيف كان ذلك ؟ فقال : رأيتنى فى المنام أصلى ومولانا رسول الله يراقبنى فى الصلاة ، فلما جلست للتشهد قلت على مسمع منه صلى الله عليه وسلم : أشهد ألا اله الا الله وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، فراجعنى صلى الله عليه وسلم وقال أشهد ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقلتها كما علمنيها صلى الله عليه وسلم ، ثم

استطردت قائلا على مسمع منه صلى الله عليه وسلم ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فسكت ولم يراجعني .

فسألت ، وماذا فهمت من مراجعته لك في الأولى ، وسكوته في الأخرى ، فقال فهمت أنه حين يقرن في الشهادة بربه ، لا يود أن يذكر بالسيادة أدبا مع الله ربه ، وحيث انفرد فلا يمنع أحدا من أبنائه المؤمنين من تكريمه ، لأنها قربة الىَ الله تعالى .

فانظر أيها القارىء كيف يلحظ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه الشريفة أهل التقوى ، ويعنى بتوجيههم ، وهذا ما يكشف لك السر في سبق السادة الصوفية ، فانهم على صلة خاصة بالله وبرسوله ، وان كانوا بيننا في ظواهرهم البشرية يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، لكنهم يختلفون عنا في البواطن ، ويا سعادة من صحبهم ، ونهج منجهم ، وثبت على قدمهم ، حتى نشرب مشربهم ، وتنال منالهم ، ونحيا حياتهم ، وهي حياة الرضا ، التي يصح بها البدن من تعب أعصابه ، والقلب من قلقه واضطرابه « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ، ومعلوم أن الجسد يمرض باضطراب النفس ، والدين يضعف بترك الطاعات واتيان الشهوات ، وليس لله حاجة في طاعتنا ، وانما فرضها الله علينا لنفعنا العاجل والآجل ، وهو غني عنا وعنها (والله الغنى وأنتم الفقراء) ولهذا كان القطب الذى دار عليه القرآن الكريم كله هو قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) وهذا ما يفسر لنا قول سيدى الشيخ رضى الله عنه في آخر عبارته ، وتستفيد في الصحة اذا ذهبت فاستفد بالتقوى اذا أقمت ، والاقامة في التقوى هي الثبات عليها والعمل بالحديث الشريف (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) .

ويقول العارفون ان الأنوار الظاهرة فى أولياء الله انما هى من اشراق أنوار النبوة عليهم ، ويوضح لنا سيدنا العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى ذلك ، فيقول رضى الله عنه ان مثل الحقيقة المحمدية كالشمس ، وأنوار قلوب الأولياء كالأقمار ، وانما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته اياها فاذا الشمس منيرة نهارا ومضيئة أيضا ليلا لظهور نورها فى القمر الممدود منها ، فاذا هى لا غروب لها ، ويعقب سيدى ابن عطاء الله قائلا : وأين أنوار الكواكب من أنوار قلوب أوليائه ، أنوار الكواكب تتكدر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها ، ويقول رضى الله عنه فى هذا المعنى شعرا :

أمرتقب النجوم من السماء ... نجوم الأرض أبهى فى الضياء
فتلك تبين وقتا ثم تخفى ... وهذى لا تكدر بالخفاء
هداية تلك فى ظلم الليالى ... هداية هذه كشف الغطاء

ومن فضل الله على الأمة المحمدية ، أن يقوم فيها دعاة الحق جيلا بعد جيل ، فيهدون الناس بأمر الله الى طريق الحق على أساس الكتاب والسنة والجماعة ، وذلك مصداق لقول مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فى كل قرن من أمتى سابقون) ولقوله تعالى (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) رضى الله عنهم أجمعين .

أثر اجتماع الأشباح فى الأرواح

— ٢٧ —

• « أهلا وسهلا بكتابك القيم ، الذى أزال وحشة البعد ، خصوصا وأنى لم أحظ هذا الأسبوع بلقائكم ، وقد أصبح القلب يحن الى اللقاء دائما ، لتتمتع الأرواح بلقاء الأشباح وان كانت مجتمعة ، فلله درك ، ولله كتابك هذا ، وأسأل الله أن يمنحك التقوى الثابتة والقوة وسعادة الدارين » .

بهذه الكلمات الرقيقة ، وجهنى شيخى العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى أهمية اجتماع المريدين بشيخهم ، لتتمتع الأرواح بلقاء الأشباح وان كانت مجتمعة على محبة الله فى عالم الروح .

وقد كان السادة الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يحرصون على الاجتماع بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واذا كانوا معه على أمر جامع ، لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، وخيره الله تعالى فى أن يأذن أو لا يأذن لمن شاء منهم ، « فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله » وفى قوله تعالى « واستغفر لهم الله » اشارة الى أن الأولى بهم ألا يتركوا الاجتماع به صلوات الله وسلامه عليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وقد نهج السادة الصوفية ذلك النهج ، فلا يتركون الاجتماع بشيخهم الا باذن ، وهو مخير فى أن يأذن أو لا يأذن لمن يشاء من المريدين، واننا الآن نعيش فى ذكرى الاجتماع بشيخنا ، وكأنها كانت أحلام نائم ، وحدث عن الصفاء الذى كنا نلقاه فيها ، وعن الفيض الذى كان يغمرنا ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، ويد الله مع الجماعة « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ويدلنا على أثر اجتماع الأشباح فى الأرواح ، ما قاله سيدنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، بعد أن دفنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال : والله ما كدنا ننفض أيدينا من دفنه صلى الله عليه وسلم ، حتى أنكرنا قلوبنا . فقد أحسوا بالفراغ الكبير ، والوحشة الشديدة ، بفراقه صلوات الله وسلامه عليه ، وان كانت أرواحهم ملازمة لروحه ، وقلوبهم مملوءة بحبه ، صلوات الله وسلامه عليه .

ويقول الامام الشعرانى رضى الله عنه ، ان تعظيم كل واحد ، انما يكون على قدر معرفته به سبحانه وتعالى ، ولولا تمايز الرتب لكان كل من صلى وصام كأبى بكر الصديق رضى الله عنه لأنه فعل كفعله .

وأنت ترى من ذلك أن درجات الكرامة عند الله ، تتفاوت بتفاوت الفهم عن الله ، فليس فهم الأنبياء صلوات الله عليهم ، كفهم الأولياء رضى الله عنهم ، ولا فهم الأولياء ، كفهم آحاد الناس ، وقد روى الحاكم مرفوعا « من كان لا يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فان الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » .

والشيوخ العارفون بالله ، ميسرون لما خلقوا له من دعوة الناس الى الله بالمقال والحال ، وأعلمنا سبحانه انه يدعو يوم القيامة كل أناس بامامهم « يوم ندعو كل أناس بامامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا » ويقول امامنا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى هؤلاء الشيوخ العارفين : لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، اما ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم هم ، وأين أولئك ، والله انهم الأقلون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا .

ويقول فيهم عبقرى الصوفية ، جلال الدين الرومى ، فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية ، صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

• سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، ان الهام النحل هو الشهد ، والهام حشرة القز نسج الحرير ، والهام البلبل أغانى السحر ، والهام رجال الله ، نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض

صدقوهم هم مصابيح الدجى   أكرموهم هم مفاتيح الرجا

« اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » .

والنفس مجبولة بطبعها البشرى ، على الحركة فى طلب الشهوات ، والله تعالى أمر المؤمن بالكف عنها ، وفى ذلك ابتلاؤه فى هذه الدنيا ، فنفسه تتحرك فى ميدان المخالفة ، والله تعالى يأمرها بالسكوت والطاعة ، ويحذرها من عواقب الحركة فى معصيته ، ولما كان المؤمن لا يقوى وحده على مغالبة نفسه وهواه ، لزمه أن يستعين فى تربية نفسه ، بامام من رجال الله أتقى منه ، يعاونه فى جهاد نفسه وقتل هواها ، حتى تستقيم وتسلك سبيل الرشاد . والتعاون على البر والتقوى من قواعد الدين الأساسية « وتعاونوا على البر والتقوى » .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى فى لزوم الشيخ فى تربية المريد : من لم يأخذ الطريق من الرجال فهو ينتقل من محال الى محال ، كما يقول الشيخ من أخذ منك وكشف عنك ، الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك منازل القربات ، الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت ، وجال بروحك فى عالم الملكوت ، الشيخ من نقل اسمك ومحا رسمك ، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ من مالك .

وروح المريدين تسقى من اجتماعهم بشيخهم ، بسر الهى يعطيه الله تعالى للشيوخ العارفين فى أرواحهم ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ويقول تعالى « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » كما يقول سبحانه « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ويعبر السادة الصوفية عن هؤلاء الشيوخ العارفين أحيانا بالفقراء ، ويقصدون بذلك أنهم فقراء الى الله أغنياء عن غيره ، واليهم يشير سيدى أبو مدين التلمسانى فى قوله :

ما لذة العيش الا صحبة الفقرا ... هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهمو وتأدب فى مجالسهم ... وخل حظك مهما قدموك ورا
متى أراهم وأنى لى برؤيتهم ... أو تسمع الأذن منى عنهمو خبرا

قوم كرام السجايا حيثما جلسوا | يبقى المكان على آثارهم عطـرا
يهدى التصوف من أخلاقهم طرفا | حسن التآلف منهم راقنى نظـرا
لا زال شملي بهم في الله مجتمعا | وذنبنـا فيـه مغفورا ومغتفـرا

وقد بين لنا رضى الله عنه ان الاجتماع بهؤلاء الشيوخ يجمع شمل المريدين على الله سبحانه ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الاجتماع بهم يحقق وحـدة الهدف ، ووحـدة الفكرة فى ميدان التوحيد ، ويقول سـيدى أبو القاسم الجنيد ، وهو سيد الصوفية فى القرن الثالث الهجرى : أشرف المجالس وأعلاها ، الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد .

ولأثر تلك المجالس فى التربية الصوفية ، يحاسب الشيوخ المريدين عند التخلف عنها ، وقد انقطع أحد أتباع سـيدى المرسى أبى العباس عن الاجتماع به فقال له رضى الله عنه : لم تنقطع عنى ، فقال المريد ، يا سيدى استغنيت بك ، فقال له معلما : ما استغنى أحد بأحد ، وما استغنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينقطع عنه يوما واحدا .

وقد قيل لابن السماك رضى الله عنه : ما الكمال ؟ فقال : الكمال ألا يعيب الرجل أحدا بعيب فيه مثله ، حتى يصحح ذلك العيب من نفسه ، فانه لا يفرغ من اصلاح عيب حتى يهجم على آخر ، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، وألا يطلق لسانه ويده ، حتى يعلم أفى طاعة أو معصية ، وألا يلتمس من الناس الا ما يعلم أنه يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسـلم من الناس باستشعار مواراتهم ، وتوفيـة حقوقهم ، وأن ينفق الفضل من ماله ، ويمسك الفضل من قوله .

وبهذا المسلك الذى بينه ابن السـماك رضى الله عنه ، بلغ السادة الصوفية قمة الأخلاق العالية ، وأخذوا بيد الناس فى الصعود اليها ، وقد رأيت صورة ذلك الكمال فى شيخى رضى الله عنه ، وقد نفعنا الله بصحبته فى ديننا كثيرا ، وان لم نبلغ ما بلغ ، فنرجو أن نكون من السالكين على الدرب ، وقد تحققنا بصحبته من صدق ماقاله الامام الصوفى الكبير سيدى

سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : ان الدين الحى هو ما صبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية .

على أن المريدين فى اجتماعهم بشيخهم ، يتفاوتون فى انتفاعهم من صحبته ، بتفاوت صفاء الفطرة ، وحسن الاستعداد فى الأخذ عنه ، دون الاكتفاء بالسماع منه ، وذلك مرهون بتقدير العزيز العليم ، ولكنه سبحانه ربط الأسباب بآثارها ، ومن جد وجد ، وينصحنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى فيقول :

« ليس شيخك من واجهتك عبارته ، انما شـيخك من سرت فيك اشارته ؛ وليس شيخك من سمعت منه ، انما شـيخك من أخذت عنـه ، وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك حتى وصلت اليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، وزج بك فى نور الحضرة وقال لك ها أنت وربك » .

ويشير أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل الى فضل شيوخنا رضى الله عنهم فيقول فى كلام طويل من الهامه الفورى الذى تقلته عنه :

أبو خليـل أعـز الله سـيرته	محمد من لوجه الله داعينـا
شهم أشم قوى الجأش ذو همم	مصرف سيد بالحـق ينجينـا
أعطاه مولاه نورا لا حـدود له	فبين العلم والايمـان والدينـا
فكان بالفيض والالهام آيتنـا	للسالكين وكم أحيـا مريدينا
وكـم لـه خلفـاء قال قائلهم	الى هنا تنتهى روح المجدينـا
أجلهم منـزلا أعـلاهم ثقـة	أرضـاهم خلقـا أزكاهم دينا
مؤدب ما رأينـا فى مجالسـه	الا الكمال وسهل اذ يناجينـا
عبد السـلام وزكى الله تربتـه	بالطيب والمسك وازدانت رياحينا

اللهم أجزهم عنا خيرا كثيرا ، واحشرنا فى زمرتهم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

الحـــج

— ٢٨ —

« وصلنا بعون الله وفضله وكرمه الى مكة المكرمة ، وطفنا وسعينا — نسأل الله ان يتقبل أعمالنا — وقرأنا لكم الفاتحة ، ودعونا لكم بخير عند الملتزم ومقام ابراهيم ، ودخلنا الكعبة ، وصعدنا من باب التوبة الى ظهر الكعبة ، ولكننا لم نبلغ الظهر ، لانني من الخشية لم استطع أن أبلغه » .

جاءت تلك الكلمات الطيبة ، في رسالة كريمة ، بعث بها من مكة من نحو ثلاثين عاما ، شيخي العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى نجله العارف بالله ، السيد عبد المنعم الحلوانى ، مد الله فى عمـــره .

ويعلمنا سيدى الشيخ فى كلماته تلك ، ان نرد الفضل لله تعالى ، فى كل نعمة تتقلب فيها ، فى ديننا أو دنيانا ، مصداقا لقوله تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله » ، ويزداد يقين الصالحين من عباد الله المخلصين ، فيرون فضل الله عليهم فى الحرمان ، كما يرونه فى العطاء ويقولون اذا منعك لم يمنعك من بخل ، انما يمنعك من عطاء ، ولكن لا يفهم العطاء فى المنع ، الا صديق يتذوق معنى قوله تعالى « قل كل من عند الله » ، والله تعالى يرى لعبده من الخير ما لا يراه العبد لنفسه ، ذلك بأن الغيب لله يشهده سبحانه وتعالى بعلمه ، بينما ينحجب عن العبد فلا يراه ، وهذا ما يفسر لنا قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

والملتزم واقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، ويلتصق الطائفون به ، رافعين أكف الضراعة لرب البيت العتيق ، الذى جعله الله مثابة للناس وأمنـا ، فيسألونه تعالى ، بعد أن طافوا بالبيت منيبين ، ما يحتاجونه فى دينهم أو دنياهم ، لأنه تعالى له الأولى والآخرة وبيده كل الجود فى هذا الوجود ، وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد .

ومع أنه تعالى يعلم حاجة العبد قبل السؤال ، لكنه جعل الدعاء مظهرا مشروعا من مظاهر العبودية ، ليشعر العبد بافتقاره الى ربه ، فى كل أمره ، ويخرج من حوله وقوته ، الى حول الله وقوته ، ويدرك أنه لا حول له ولا قوة الا بالله ربه ، ولقد علم سبحانه سيدنا موسى عليه السلام ، ان يسأله حتى فى ملح عجينه ، أو شسع نعله .

ودعاء المؤمن لأخيه المؤمن مسنون شرعا بدليل قوله تعالى :

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان »

وقد استأذن سيدنا عمر رضى الله عنه مولانا رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى ان يذهب الى مكة معتمرا ، فقال له صلى الله عليـه وسلم « لا تنسنى يا أخى من دعائك » فكما يدعو الأعلى للأدنى ، يطلب الأعلى أن يدعو له الأدنى ، اظهارا للعبودية والافتقار بين يديه سبحانه « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد » .

وقد التصقت مرة بالملتزم ، وتعلقت بأستار الكعبة ، وهممت بالدعاء بما يفتح الله به على ، فوقع فى قلبى عندئذ قول أسـتاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الارتجالى الذى تلقيناه عنه :

انى عـلى أعتـابكم — لم أرض غـير الحب مشرب
حـريتى رق لـكم — وهى المقـام وذلك أقـرب
وأدلـتى أنى ضـعيف — والضـعيف عليـك يحسب
قـالوا بأنـك لم تـكن — فيمـا تقـرره منسب
فأجبتهـم أنـا نسـبتى — عبـد عـلى الأبواب أحسب

ومرة أخرى تذكرت قول المرحوم السيد اسماعيل صبرى :

أنـا يا الهى عنـد بابك واقف — لا أبتغى عنه الزمـان عـدولا
ما جئت أطلب أجـر ما قدمتـه — حاشـا لجودك أن يكون قليـلا

والحق الذى لا شبهة فيه ، ان النفس البشرية ، تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، فى بلاد الحجاز ، التى أشرقت بنور ربها حين ولد فيها أعظم المرسلين شأنا ، وأعمهم رسالة ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وأيده الله فى نشر رسالته الكبرى ، بالمعجزات الباهرات ، والآيات البينات ، وجعل فى قمتها القرآن الكريم الناطق بقوله الخالد :

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

ومن ثم كا نالبيت الحرام ملتقى المؤمنين من كل فج عميق ، لا يفرق بينهم لون أو جنس أو لغة أو مقام دنيوى ، وما أروعه من اجتماع على الوحدة والاخاء والمساواة .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل اليه من ربه ، ومنه آيات الحج الدالة على مزيته وفضله ، حيث هو آخر القواعد الخمس التى بنى عليها الاسلام ، وتم به البناء « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » وهو فريضة على من استطاع اليه سبيلا أراد الله ان يكرم عباده الساعين الى مرضاته ، والحاجين البيت الذى شرفه فنسبه اليه دون بقاع الأرض ، وان كانت كلها له سبحانه ، وفى قبضته ، وقال مشجعا على تأدية الفريضة فى خطابه لسيدنا ابراهيم خليله عليه السلام « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعـام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » .

وقد كان الأولون من أسلافنا الصالحين يكررون الحج مرات لمنافعه ، وان كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حج مرة واحدة ، واعتمر أربعا ، حتى لا تلزمنا فريضة الحج أكثر من مرة واحـدة ، وكانوا كذلك يمشون الى بيت الله على الأقدام ، وان كانت معهم دوابهم ، جهادا منهم فى سبيل الله وتعظيما للبيت ورب البيت ، وسـبحان من أدبهم فأحسن تأديبهم .

أما الخشية التى أشار اليها سيدى الشـيخ ، التى حالت بينه وبين الصعود الى ظهر الكعبة ، فهى من علامة تقواه الراسخة فى قلبه وروحه ، ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، وقد قال الشـهيد الحلاج حججت مرة فرأيت الكعبة ولم أر رب الكعبة ، وحججت الثـانية فرأيت الكعبة ورب الكعبة ، وحججت الثالثة فرأيت رب الكعبة ولم أر الكعبة .

والحاج انما يمتثل أمر الله فى حج البيت الحرام ، وتأدية المناسك هنالك كما رسمها الله فى شرعه ، وأخذناها عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسعى اذن هو سعى خالص لله تعالى وحده ، وان بدا فى ظاهره أنه سعى للبيت الحرام ، لكن البيت لم يدعنا لحجه ، وانما الله هو الداعى بل الآمر ، ومن هنا نعلم أن الدين له ظاهر وباطن ، وان شئت قلت له شريعة وحقيقة ، وهما معا علم الدين الصـحيح ، فالشريعة هى تنفيذ الأوامر ، والحقيقة هى مشاهدة الآمر ، ولا يتم الدين للمؤمن الا بهما معا ، بحيث يكون مقيدا بالشريعة ومحسا بالحقيقة ، ولهذا قال بعض العارفين .

انيك حجى لا للبيت والحرم ولا طـوافى بالأركان والجـدر

لأنه كان يشهد ربه ويراقبه ، وهو يؤدى مناسك الحج ، وقد جاء الجمع بين الشريعة والحقيقة فى قوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين » .

وخشية القلوب تلازم العلماء بالله تعالى ، لذلك قال سبحانه وتعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » ، أى العلماء الربانيون : لأنهم أولياؤه المتقون « ان أكرمكم عنـد الله أتقاكم » أى أخشاكم لله وأخوفكم منـه ،

وهو خوف اجلال وهيبة ، لا خوف من عذاب وقسوة ، لأنهم واثقون من رأفته ورحمته سبحانه ، ولكنهم يخافون مقامه ، ويحذرون حجابه ، لأن حجاب الحبيب ذل ما بعده ذل ووصله عز ما بعده عز ، وهذا يفسر لنا ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود حين مات سيدنا عمر بن الخطاب : لقد ذهب تسعة أعشار العلم ، قالوا : تقول ذلك وفينا جلة الصحابة ، قال : ليس العلم الذى تعنون انما أقصد العلم بالله .

والخشية من هذا الوجه ولاية لله لأن الولى عبد تحقق فى العبودية ، فكان على القدم المحمدية الذى شرفه الله تعالى فى قوله : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « اعلم ، رحمك الله تعالى باقباله عليك وجعل أنواره واصلة اليك أنهما هما ولايتان ، ولى يتولى الله وولى يتولاه الله ، قال الله عز وجل فى الولاية الأولى « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » ، وقال تعالى فى الولاية الثانية « وهو يتولى الصالحين » ، وهى التى خرجت للعبد من خزائن المنن على بساط المحبة ، وأما الولاية الأولى فولايتك الله تعالى خرجت من المجاهدات وولايتك لرسوله خرجت من متابعة سنته ، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتداء بالأئمة .. فافهم ذلك .

يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : « هما ولايتان ولاية الصادقين باخلاص العمل لله تعالى والقيام بالوفاء مع الله تعالى طلبا للجزاء من الله تعالى، وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله تعالى والبقاء فى كل شىء بالله تعالى، ويقول أيضا رضى الله عنه : «مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله ، والقناعة بعلمه ، والاعتناء بشهوده ، وعلى الفرار من الخلق ، والانفراد بالملك الحق ، واخفاء الأعمال ، وكتم الأحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم ، حبا فى اخلاص أعمالهم لسيدهم ، حتى اذا تمكن اليقين ، وأيدوا بالرسوخ والتمكين ، وتحققوا بحقيقة الفناء ، وردوا الى وجود البقاء ، فهنالك ان شاء أظهرهم هادين لعباده اليه ، وان شاء سترهم

باقتطاعهم عن كل شيء اليه ، وظهور الولى ليس بارادته لنفسه لكن بارادة الله له » .

وقد كان تلاميذ سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى يلمسون خشيته لله ووصفوه بانه كان من المخبتين ، وقد قال الله تعالى فى وصف عباده المخبتين :

« وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

وكل هذه الصفات كانت بارزة فيه رضى الله عنه ، وقد قال لى مرة فى معرض الصبر على البلاء : أنا والشيخ على تأتينا المصائب فلا نتزحزح . وهذا الثبات فى الصدمات لا يكون الا لأهل التمكين الذى أشار اليه كلام سيدى ابن عطاء فيما تقدم .

ويقول الامام القرطبى فى تفسيره للآية المتقدمة : هذه الآية نظير قوله تعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله الجهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ، ومن النهاق الذى يشبه نهاق الحمير ، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم ان ذلك جد وخشوع انك لم تبلغ ان تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله ، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، قال تعالى :

« واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ، فمن كان مستتنا فليستن ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون ، فهو أحسنهم حالا ، والجنون فنون .

أقول ومن هذا نعلم ان الايمان درجات ، ويزيد وينقص ، لا من حيث جوهره الفرد ، ولكن من حيث متعلقاته ، التى ترتبط بها مواجيد القلوب وأحاسيسها ، وقد سئل الامام الحسن البصرى رضى الله عنه فقيل له ، يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ، فأجاب الايمان ايمانان ، فان كنت تسألنى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا به مؤمن ، وان كنت تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » الى قوله « أولئك هم المؤمنون حقا » فوالله ما أدرى انا منهم أو لا .

وقال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : من قال أنا مؤمن بالله حقا ، قيل له الحقيقة تشير الى اشراف واطلاع واحاطة ، فمن فقده بطل دعواه فيها ، ويعقب على قوله الامام القرطبى رضى الله عنه فيقول ، يريد بذلك ما قاله أهل السنة : ان المؤمن الحقيقى من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سر حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

ويحدثنا الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه عن أولياء الله المتقين فيقول :

« .. ثم رأيت الناس أصنافا ، فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياه مؤثر لها ، ومنهم عالم منسوب الى الدين ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا ، ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم متشبه بالنساك ، متجر بالخير ، لا غناء عنه ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه ، ومنهم منسوب الى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقوى ، ومنهم متوادون على الهوى متفقون ، وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون ، ومنهم شياطين انس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء بالله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه المتأسين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الأولى ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرسا ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » .

فقيض لى الرءوف بعباده قوما وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وايثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون أحدا فى معصيته ، ولا يقنطون أحدا فى رحمته ، يرضون أبدا بالصبر على البأساء والضراء والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى الى العباد ، بذكرهم أياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والاغلاء ، مبغضين للجدل والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات .

فأصبحت راغبا فى مذهبهم ، مقتبسا من عوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محبا لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئا ، ولا أوثر عليهم أحدا ، ففتح الله لى علما ، انفتح لى برهانه ، وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك انى لا أدرك شكره أبدا . »

ألا رضى الله عن أسلافنا الصالحين ، وعن شيوخنا المباركين ، الذين رأينا فيهم أمثلة السابقين الأولين « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

تحيــة الــروح

– ٢٩ –

« تحيتى لروحك ، أكبر من تحيتى لشبحك ، تحية الجسم تحيـة ظاهرة ، أما تحية الروح فتحية باطنة ، وتشعر بها الأرواح التى من جنسها، والتى شربت من مشربها ، تجدها وان تفرقت مساكنها فى الدنيا ، فانهـا أسراب ظاهرة فى عالمها فى الحياة ويوم القيامة ، تعرف ربهـا ولا تعرف سواه » .

بهذه السطور صدر سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى ، قدس الله سره ، رسالة بعث بها الى تلميذه الصالح المبارك ، الصديق المفضال ، السيد سالم جمعة ، مد الله فى عمره ، وزاده من فضله ، وكان أثيرا عند الشيخ ، وقد كاتبه الشيخ كثيرا من القـاهرة ، بعد أن انتقل عمل الشيخ اليها ، وهو يحتفظ برسائل الشيخ فى عناية تامة .

وقد تفضل فأعارنى تلك الرسائل ، لأمتع السادة القراء بنشر بعض روائعها ، كما فعلت بالرسائل التى حظيت أنا بها فى القاهرة حين كان عمل الشيخ بالاسكندرية .

وعبارة الشيخ المتقدمة تفيد أن تحية الجسد ، قد لا تكون صادقة ، أما تحية الروح فتكون صادقة بيقين ، لأن الروح تنجذب لأهل مودتهـا انجذابا لا غل فيه ولا غش ، اذا ترابطت الأرواح فى محبة الله سـبحانه وهو الذى يعلم السر وأخفى .

وقد بين القرآن الكريم ، الفرق بين تحية الجسد ، وتحيـة الروح ، فقال تعالى فى تحيـة الجسد مثلا (اذا جاءك المنافقون قالوا نشـهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) .

وقال فى تحية الروح مثلا :

ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئــك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

ولما كان التصوف قائما على تربية البواطن ، فان سيدى الشــيخ يوجهنا الى العنــاية بالروح ، وتهذيبها فى جنب الله ، حتى تــكون رابطة المؤمنين ، رابطة روحية ، لا نفاق فيها ، ولا مداهنة ، فاذا ذاق المؤمن معرفة ربه ، عامل ربه سبحانه فى عباده ، فأخلص فى صلته بهم ، ارضاء لمولاه جل جلاله ، ولذلك قال الشيخ رحمه الله فى ختام عبارته : تعرف ربها ، ولا تعرف سواه .

ولسيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، كلام نفيس فى معرفة الله يقول فيه :

« ان معرفة الله فطرية فى النفس ، ويستند فى ذلك الى قوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شــهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هــذا غافلين » .

« فالله تعالى قد عرف الانسان به ، وتجلى له ، كما استنطقه وألهمه الاقرار بربوبيته ، فشهده الانسان ووحده ، وأخذ الله عليه عهدا بذلك ، وذلك كله فى عالم آخر غير هذا العالم ، هو عالم الذر قبل وجود الأرواح البشرية فى الأبدان .

« فلما هبطت الأرواح فى الأبدان ، احتجبت المعرفة الفطرية بالله ، بحجاب البشرية الكثيف ، فستر الله بذلك سر خصوصيته ، ومن هنا كانت المعرفة بالله أعسر المعارف .

فانه لا مثل لله (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ، ومع هذا فرض على عباده جميعا معرفة ذاته وأسمائه وصفاته .

ويفصل ذلك فيقول رضى الله عنه :

« والمعرفة بالله ، قد تكون اثبات وجوده ، وتقديسه عما لا يليق به، ووصفه على ما هو عليه ، وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين وتسمى بالمعرفة العامة » .

« وقد تكون حالا يحدث عن شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله ، وتسمى هذه المعرفة بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية ، التى لا تستند الى العقل ، وانما الى الذوق » .

ويرى سيدى ابن عطاء الله ، رضى الله عنه ، أن القلب كلما زهد فى زخرف الدنيا الفانى ، ونهى المؤمن النفس عن هواها ، وازداد ايمانه ثم توحيده ، امتلأ القلب بالتوحيد تماما ، وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته ، وعلت وبسمت فى الملأ الأسفل معرفته ، واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق بأخلاق الله ، وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققا مستبصرا ، فانيا فى شهود المذكور عن ذكره .

ثم يقول رضى الله عنه : وفى هذا القلب ورد الحديث القدسى « لا يسعنى عرشى ولا كرسى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى » وقلب الانسان لا يسع الله مساحة ولا خيالا و حلولا ولا حسا ولا حكما ، وانما يسعه توحيدا وايمانا وعلما ومعرفة وايقانا ومحبة واخلاصا ، فضلا من الله وتخصيصا .

وأنت ترى من كلامه المتقدم أن معرفة الله مذاقا وشهودا ، لا تكون الا بعد قطع عقبات النفس أو كما يقول السادة الصوفية قطع العلائق والعوائق ، وهى لا تنقطع الا بنهى النفس عن هواها ، وعندئذ تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، وتتخلى عن الرذائل ، فان تم لها ذلك فقد تحلت بالفضائل ، لأن التحلية لا تكون الا بعد التخلية ، فان زالت نقطة الخاء المعوقة جاءت الحاء فكانت حياة المؤمن حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة .

« فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار • أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » •

والشيطان خبيث الطوية ، وهو يجر الناس الى المهالك ويوهمهم أنها طريق الخير والسعادة ، وكم زلت معه أقدام علماء ، فأساءوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، مثل هؤلاء الذين قلدوا الفلاسفة فى اثبات وجود الله عن طريق العقل المجرد ، وجادلوا فى عقيدة التوحيد فى الكليات والجزئيات ، وبحثوا فى قضاء الله وقدره ، فشغلهم الجدل عن العمل ، وشغلوا غيرهم بالرد على مفترياتهم وترهاتهم ، ولو أنهم سلكوا سبيل الصحابة الأكرمين ، ما ضيعوا أوقاتهم وأوقات غيرهم فيما لا ينفع ، بل فيما يضر ، فقد أقحموا أنفسهم فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض •

وقد قطع الله على عباده سبل البحث فيما لا تدركه العقول ، فقال تعالى :

« ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »

وفتح لهم التفكر فى آفاق قدرته وشهوده فى خلقه وآياته :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » •

ومن هنا قال السادة الصوفية : ما خلق الكائنات لتراها بل لترى فيها مولاها •

وقد رأى فى المنام سيدى الامام جعفر الصادق رضى الله عنه سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فيما سأله عن حقيقة التوحيد فأجابه صلوات الله وسلامه عليه وآله :

« كل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك » •

وهو القول الفصل فى الموضوع •

وقد سئل مولانا الامام على كرم الله وجهه عن القــدر مرة فقال : « طريق مظلم فلا تسلكوه » ، وسئل ثانية فقال : « بحر عظيم فلا تلجوه » ثم سئل ثالثة فقال « سر الله فلا تتكلفوه » .

ويقول حفيده سيدى جعفر الصادق رضى الله عنه : « ان الله تعــالى أراد بنا شيئا ، وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منــا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » . وهو كلام نفيس كما ترى فتعلمه وعلمه .

وقال رضى الله عنه لزرارة بن أعين ، يا زرارة أعطيك جملة فى القضاء والقدر ، قال نعم جعلت فداك . قال : « اذا كان يوم القيامة ، وجمع الله الخلائق ، سألهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم » .

ويقول جده الامام على كرم الله وجهه معلما لنا فى ترك القول بالرأى فى أمور الدين الذى شرعه الله تعالى : لو كان الدين بالرأى لــكان أسفل الخف أولى بمسحه من أعلاه ، ولكنى رأيت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يمسح أعلاه .

وما أروع كلمة أمامنا مالك بن أنس رضى الله عنه : « لا أحب من الكلام الا ما كان تحته عمل » . وما أصدق الســادة الصوفية حين قالوا : العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عــرف ، وليس بآلة للاشراف على الربوبية .

وقد كان ابن بشار الفقيه ، فى بادىء أمره من المعترضين على السادة الصوفية ، فلما التقى بالامام الشبلى (تلميذ الإمام الجنيد) واقتنع بعــد مناقشته بأنه على نور من ربه ، ذهب الى الفقهاء متغير الوجه وقال لهم ، ذهب الصوفية بالخير كله وأضعنا عمرنا فى المجادلات .

ويقول أبو الوفا بن عقيل رضى الله عنه : أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تــكون مثلهم فكن ، وان رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الاكبر ، فى الفتوحات المكية : ومن العجب أن الله تعالى يخبر بشىء عن نفسه فى كتابه المحكم ، فيأتى الانسان بعقله القاصر فيقول ان عقلى يرد ذلك ، وفكرى لا يحتمل ذلك ، وانما يجب التأويل ، أليس عاقبة هذا التأويل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقا غير ما فى كتاب الله .

يقول العالم العارف الحجة سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : ترى أحدهم يخوض فى الكلام على الذات ، وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار ، وقيام الليل ، والخوف من الله تعالى ونحو ذلك ، حتى كأن الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

هذا ، ويعلمنا سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، فى كلماته المتقدمة ، ان محبى الله ، يشربون من المشرب الأصفى ، فتتجانس أرواحهم وتتلاقى على بساط واحد ، هو بساط المحبة ، الذى يجمعهم أسرابا فى الدنيا على حبيب واحد ، وان تباعدت ديارهم وأشباحهم ، كما يجمعهم فى الآخرة وان اختلفت ألسنتهم وألوانهم حين يدخلهم سبحانه الجنة ويخاطبهم :

« ادخلوها بسلام آمنين »

عرفوه سبحانه فى دنياهم بأن لا اله الا هو ، فلم يعبدوا الا اياه ، ولم يعرفوا سواه ، فآثروه على ما تهوى الأنفس ، وقهروا فى سبيله عقبات النفس والشيطان ، وعلم سبحانه ما فى قلوبهم من المودة الخالصة ، فآثرهم بحبه ، واختصهم برحمته ، فنالوا السعادة الأبدية التى قدرها لهم فى سوابق أزله ، فكانت لهم جنتان : جنة فى الدنيا هى جنة المعرفة وجنة فى الآخرة هى جنة الزخرفة :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » .

وقد جاء فى الحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . فالأرواح فى هذا الائتلاف أشبه بالطيور التى تطير مع جنسها أسرابا ، كما تدل عبارة سيدى الشيخ ، ويؤيد

صحة ذلك قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

وبين الشيخ وتلميذه ، تجاوب روحى ، منشئوه تجانس الروحين ، فالشيخ يربى فى طريق الله ، والتلميذ يتربى على يديه فى جنب الله ، ولما كانت روح الشيخ أقوى فى اليقين بالله ، فان روح التلميذ تنجذب اليها بدافع رغبتها فى طلب الله ، وذلك أشبه بانجذاب الظمآن الى مورد الماء الفرات ليروى ظمأه .

ولهذه الجاذبية القائمة بين الشيخ وتلميذه أثر كبير فى التربية القلبية ، لأن الشيخ يخلص فى تربية التمليذ اخلاص الأب لابنه بل وزيادة والتلميذ يأخذ عن شيخه باعتقاد وانقياد ، فيتقدم التلميذ فى ايمانه ويقينه شيئا فشيئا ، ويرفعه الله درجات بعد درجات ، وربما الى نهاية المقامات ، ان كان مرادا من الله لذلك الميراث . وهذا كله قائم على أن التلميذ وفق فى اختيار شيخه ، فراعى أن يكون من العارفين بالله وأن يكون التلميذ من المخلصين والراغبين الجادين فى طلب الله ، لانه لابد للمريض من طبيب حاذق يدرى العلة وعلاجها ، ولابد للعليل من طاعته فى علاجه ان أراد الشفاء من دائه .

وقد قال سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى لتلميذه القطب المبارك سيدى المرسى أبى العباس رضى الله عنهما : يا أبا العباس ما صحبتك الا لتكون أنت أنا ، وأنا أنت ، فانظر رعاك الله ، كيف يكون الامتزاج بين الروحين المتجانسين ، ويحدث سيدى المرسى عن شيخه رضى الله عنهما فيقول :

« وقد صحبت رأسا من رءوس الصديقين ، وأخذت منه سندا ، لا يكون الا لواحد بعد واحد ، والشرح يطول ، وبه أفتخر ، واليه أنتسب ، وهو أبو الحسن الشاذلى ، وكان لا يصحبه أحد الا فتح عليه فى يومين أو ثلاثة ، فان لم يجد شيئا بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقا وقد

أخطأ الطريق ، ودليله من كتاب الله عز وجل « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا » .

ويبين سيدى واستاذى الشيخ على عقل رضى الله عنه ضرورة الشيخ فى تربية القلوب بقوله فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وعندى ان الأمر ليس بهين فلابد من سوق القلوب لمن يدرى
اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها على موجة التيار ما نورها يسرى

ونستشف من كلمة سيدى وشيخى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، ان ائتلاف الأرواح الصافية ، لا يكون فى الدنيا فحسب ، بل هو كذلك فى الآخرة ، ويؤيد ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« وإذا النفوس زوجت »

أى اقترن كل جنس منها بما يشاكله ولذلك يتعاون الاتقياء يوم القيامة ، ويشفع بعضهم لبعض ، بدليل قوله تعالى :

« الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » .

ويتحسر أهل الكفر حين يرون تلك الشفاعة النافعة بين المؤمنين فيقولون فى حسرتهم :

« فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » .

وستنقطع رابطة الكفار فى الآخرة ، لأنها قامت فى الدنيا على شفا جرف هار ، ارضاء للشيطان ، واغضابا للرحمن ، وسوف لا تنقطع بينهم الروابط فحسب ، بل ان العداوة ستعلن بينهم ، وهو ما تحكيه الآية الكريمة :

« وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » .

أما يقوله سيدي الشيخ رضي الله عنه : تعرف ربهـا ولا تعـرف سواه ، فيوجهنا الى أن ما سوى الله فى حكم العدم ، لأنه سينتهى بالفناء الذى كتبه الله عليه ، ووجوده فى الدنيـا انما هو عدم حكما ، وفنـاؤه عند قيام الساعة عدم فعلا :

« كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » .

لذلك فنيت نفوس السادة الصوفية عن المحسوسات التى غفـل بها غيرهم ، لأنهم أهل الله وخاصته ، واستمع بعد ذلك الى ما يقوله فيهم امام جليل من أئمتهم ، وهو سيدى أبو الحسن الشاذلى ، فهو يقول فى وصفهم رضي الله عنه وعنهم :

« أما أهل الله وخاصـته ، فهم قوم جـذبهم عن الشر وأصـوله ، واستعملهم بالخير وفروعه ، وحبب اليهم الخلوات ، وفتـح لهم سبيل المنـاجاة فتعرف اليهم فعرفوه ، وتحبب اليهم فأحبوه ، وهداهم السبيل اليه فسلكوه ، فهم به وله ، لا يدعهم لغيره ، ولا يحجبـون عنه ، بل هم محجوبون به عن غيره ، لا يعرفون سواه ، و لايحبون الا اياه « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

الا رضي الله عن شـيوخى العـارفين ، الذين أوردونى مواردهم ، وأذاقونى مشاربهم ، وما أعذبها من موارد ، وما أصفاها من مشارب .

« أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » .

التوكل على الله

– ٣٠ –

كتب شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى الى تلميـذه المبارك السيد سالم عمر جمعة رسالة من القاهرة محررة فى ٢٩ يونية ١٩٤٠ وكانت رحى الحرب العالمية الثـانية دائرة واستهدفت بلادنا العـزيزة الى غارات الطائرات الألمانية التى كانت تقصد القوات البريطانية فى مصر وجاء فى تلك الرسالة الدعاء الطريف الآتى :

.. أما أنا فمتوكل على الله ، وهو المسلم اللهم انى اسألك الثبـات على الايمان ، حتى يكون قلبى فى أمان ، اللهم املأه حبا فيك حتى يكون راضيا بقضائك ، موقنا أنه لا حـركة ولا سـكون الا بأمرك وقـدرك ، سبحانك لا شريك لك ، لك الأمر من قبل ومن بعد .

اللهم انى أسألك بحبيبك المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، أن تبث الايمان فى قلبى بثا ، فتجعـله فى أعضائى وأحشـائى وفؤادى وروحى منبثا » .

« اللهم جنبنى الهموم ، وادفع عنى جيش الشيطان ، فلا تجعل له على سبيلا ، واجعل قلبى شديد الايمان بك ، فلا يعبأ بحرب الشيطان ومعداته، ولا بندقياته ولا رصاصاته فلا يتعتعه تعتيعة ، ولا يخوفه بعبيعة ، لا طبنجة تزعجه ، ولا مدفع يفجعه ، ولا يهمه المفرقعات ، ولا تدهشه المتروليوزات، لا رشاشة ترشه ، ولا دبابة تفشـه ، لا بارجة ترجه ، ولا لغم يزجه ، ولا مغناطيس يجذبه ، ولا غواصة تضربه ، ولا نسافة تنسفه ، ولا قاذفة تقذفه ولا طرادة تطرده ، ولا مدمرة تفسده ، ولا غارة تكربه ، ولا صفارة ترعبه،

لا كمامة تخنقه ، ولا غاز يحرقه ، لا طيارة تناوئه ، ولا مظلة تفاجئه ، لا قنبلة تفزعه ، ولا شظايا تفجعه ، لا طابية تقوى عليــه ، ولا حصن يقوى لديه ، ولا خط من الاستحكامات يعوقه ، ولا رباط من رباط الخيــل يفوقه ، ولا سيف عليه يصول ، ولا عدو عليه يجــول ، بل هو بقوة الله يصول ويجول ، فقوة الله هى الحصن الحصين ، والركن المــكين ، وهى القوة والعدة ، وهى الحبل المتين ، فاجعلنا يا مولانا بها تتمســك وتفوز ومن جميع المصاعب نجوز .

« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » .. ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

« أسأل الله لى ولكم العافية ، والوثوق بالله ، وأن يجعلنا واياكم من المطمئنين به ، المتمسكين بحبه وحب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يهدينــا واياكم سواء السبيل » .

أرأيت أيها القارىء العزيز ، كيف ينساب الالهام فى رسالة من الشيخ لتلميذه ، يعلمه فيها الثقــة بالله سبحانه ، والتوكل عليه ، واللجوء اليه ، والاستعانة به ، والاعتصام بكهفه والاحتماء فى حصنه ، والانحياز لحرزه الحريز وركنه الركين ، وكيف لا وهو القائل القول الكريم « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أاله مع الله ، قليلا ما تذكرون » .

وقد يشتبه الأمر على البعض فى معنى قوله تعالى « المضطر » فيقول فى نفسه ألا يستجيب سبحانه لغير المضطر دعاءه والجواب : كل العبــاد مضطرون اليه سبحانه فى جميع الأحوال ، فى الشدة أو الرخاء أو الحرب أو السلم ، أو الخوف ، أو الأمن، لكن عوام المؤمنين لايحسون بالاضطرار الا عند الشدة أو الخوف أو المرض ، أو الفقر الخ ، أما خواص المؤمنين فيحسون أنهم مفتقرون اليه أبد الآبدين ، وفى كل حال وحين ، ذلك بأن الرخاء قد يتبدل ولا يدوم ، والأمن قد يزول ، بل ان الايمان قد يسلب ، لأنهم يقولون انه قد يكون هبة من الله ، وللواهب أن يسترد ما وهبه ، ولا

يقطع الخواص أن ايمانهم بالله عطية منه لا تسلب ، لأن صفة العطية مطوية عنهم في حجب الغيب ، ولا يعلم الغيب الا الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو وجه الخوف عند العارفين .

وذلك ما يفسر لنا وجه الخوف من الله ، الذى خافه سادتنا المبشرون بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما هو الا من سمو معرفته بالله تعالى ، وعلى قدر معرفته سبحانه يكون الخوف ، كما تكون المحبة الخالصة .

وقد ورد في الحديث الصحيح فيما رواه الامام البخارى : « الدعاء مخ العبادة » وانما كان مخ العبادة ، لأنه مظهر من مظاهر العبودية لأن العبد الداعى يخرج بالدعاء من حوله وقوته الى حول الله وقوته ومع أن الله تعالى يعلم من العبد سره وجهره ويعلم حاجته قبل أن يدعو بها ، لكنه يحب أن يسأله عبده حاجته ليعود العبودية ، مذاقا ، وشهودا ، كما يعتقدها العبد ايمانا واعترافا ، وعندئذ يكون عبدا ذائقا مطيعا ، اذا قال له ربه يا عبدى قال له لبيك يا ربى ، فصدق في الامتثال ، وأخلص في الطاعة بالمقال والحال .

ولهذا كان الامتناع عن الدعاء استكبارا يعاقب الله عليه الممتنعين عن دعائه حيث يقول جل شأنه « .. ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من فتح له باب الدعاء ، فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله تعالى شيئا أحب اليه من أن يسأل العافية ، وان الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، ولا يرد القضاء الا الدعاء ، فعليكم بالدعاء » والى هذا الحديث الشريف يشير سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى « والد شيخى رضى الله عنهما » وكانوا قد عينوه قاضيا ، ولم يرد أن يتولى وظيفة القضاء ، فدعا ربه ملحا أن يصرفها عنه ، فاستجاب الله له ، فقال رضى الله عنه في ذلك :

قلــدونى القضـــاء وهو شـــهير   فى الـــورى أنـــه أبو التبعـــات
فلــزمت الدعــاء حتى تلاشـــت   والقضـــا قد يـــرد بالدعوات

وعند العـــارفين ، أن كل دعـــاء مجـــاب ، لكن الاجابة ، تكون بالشكل الذى يـــرى الله فيه مصـــلحة عبده ، فقد يصرفه عما طلبـــه ، ليعطيـــه خيرا منه ، وقد يدخر له ثوابا أخرويا ، خيرا من طلبه الدنيوى ، وقد يجيبه الى ما طلب بالذات ، فان لم يجبه فليعتقد أن ذلك لخير علمه الله وأراده ، وهم يقولون اذا منعك لم يمنعك من بخل ، انما يمنعك ليعطيك ، ولكن لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق من الصديقين وخير الدعاء المأثور ، وما ورد فى الكتاب أو السنة ، أو آثار الصحابة ، أو عباد الله الصالحين ، الذين استناروا بنور الحق ، فألهمهم الله كلمات التقوى فى مناجاتهم ودعـــواتهم « واتقوا الله ويعلمكم الله » والهام الصالحين هؤلاء انما هو من كلمات الله التى لا تنفد ، والعلم نور يقذفه الله فى القلوب •

وانك لتلمس الالهام العالى فى دعاء سيدى الشيخ ، وان كساه ثوب الفكاهة بأدوات الحرب المدمرة ، ولعله أراد أن يؤنس تلميذه فى خوفه ، وينقله على جناح الدعابة الى الجد فى الثقة بالله والاعتماد عليه سبحانه فى حفظه من الضرر ، كما قال سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » ، ومزاح العارفين جد كما هو معروف •

ومن المناجاة الرائعة لسيدى الامام على زين العابدين رضى الله عنه قوله :

« اللهم لك قلبى ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرى واعلانى ، فأمت قلبى عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وأخلص سريرتى وعلانيتى من علائق الأهواء ، واكفنى بأمانك عـــواقب الضراء ، واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك ، وهب لى جسما روحانيا ، وقلبا سماويا ، وهمة متصلة بك ، ويقينا صادقا فى حبك »

ومن دعوات سيدى على الخواص رضى الله عنه :

« اللهم انى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك ، ونالته يدى بفضل نعمتك ، وانبسطت اليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أناتك وحلمك ، وعولت فيه على كريم عفوك ».

« اللهم انى أعوذ بك أن أقول حقا فيه رضاك والتمس به أحدا سواك وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشيننى عندك . وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ، وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد منى فيما علمتنى » .

وقد يتملك بعض السادة القراء العجب اذا علموا أن سيدى عليا الخواص صاحب ذلك الدعاء كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الله تعالى اذا اتخذ من عباده وليا ، علمه ما لم يكن يعلم ، بل جعله للناس اماما بعلمه من فضله وقد تتلمذ عليه الامام الجليل سيدى عبد الوهاب الشعرانى، الذى كان عالم زمانه ، ووحيد نسجه ، ولقبه بشيخ الخواص سيدى على الخواص . وسبحان من يؤتى ملكه من يشاء ، فقد علم آدم الأسماء كلها ، وجعله معلما للملائكة فى السماء وشتان بين علم الرواية وعلم الدراية ، وصلوات الله وسلامه على مولانا رسول الله الذى أوتى العلم عطاء من ربه، وهو النبى الأمى ، فصار يقاس علم العلماء بما علموه من علمه ، وما يؤتاه الأولياء الأميون فى أمته من العلم انما هو معجزة له صلوات الله وسلامه عليه قبل أن يكون كرامة لهم ، لأنهم انما يكرمون بالخوارق جزاء لمتابعته فى حسن نية ، وقوة عزيمة ، فقد سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى ، وجعلهم حجة للناس فيما بينهم وبين الله تعالى .

وفى هذه المناسبة نود أن ننبه الى أنه ليس من لازم الولى الكرامة ولا الاخبار بالغيب ، والعارفون يقولون ما ثم كرامة أعظم من الاستقامة ويقول سيدى المرسى أبو العباس رضى الله عنه : ليس الشأن أن تطوى لك الأرض فتصير فى مكة أو غيرها من البلدان ، ولكن الشأن أن تطوى لك أوصاف نفسك فتكون مع الله ، غير اننا نقول انه ليس من الانصاف انكار وقوع الكرامات ، لأن ذلك الانكار يعارض نصوصا صريحة فى كتاب الله

عز وجل ؛ فقد أكرم الله السيدة مريم عليها السلام برزق كان يأتيها من عند الله ، وأكرم أهل الكهف بالنوم قرونا فى رحمة الله ثم قاموافقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم الخ ، ولا حرج على فضل الله ، وقدرته تعالى لا تقبل الشك ؛ كما أن الأسباب تقيدنا ولا تقيده لأنه سبحانه خالق الأسباب والمسببات ؛ وما أراده كان باسباب وبغير أسباب وفق ما شاء وقدر ، وان وقعت للولى كرامة فانما تقع عطاء من الله لتأييده فى الدعوة الى الله ، وقد يستحى منها الولى ، ويقول سيدى أحمد البدوى : ان الولى يستر كرامته كما تستر المرأة خرقة الحيض ، وقد قال سيدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكان شيخ الاسلام فى زمنه — بعد أن اجتمع بالامام سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه — من عظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس ما يقع على أيديهم من الكرامات ، ولا يقع شىء من ذلك لفقيه ، الا أن سلك مسلكهم كما هو مشاهد . وأقول بعد ذلك كم وكم شاهدنا من كرامات لشيخنا سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه وكان هو لا يبالى بها وكأنها لم تكن ، لا بل اننا شاهدنا ونشاهد كثيرا مما يقع منها لبعض المريدين الصادقين ، وانكار المستفيض عناد أو سذاجة .

هذا وقد سأل سيدى الشيخ ربه فى صدر دعائه الثبات على الايمان، حتى يكون قلبه فى أمان ، كما سأله أن يملأ قلبه حبا فيه سبحانه حتى يكون راضيا بقضائه موقنا أنه لا حركة ولا سكون الا بأمره وقدره ، وذلك شأن العارفين الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، وقد قال تعالى فيهم « طوبى لهم وحسن مآب » ولا عجب أن يكون ذلك مشرب الشيخ فقد هيأته العناية ليكون للناس مربيا من الطراز الأول ، فنشأ فى بيت علم وعمل ، فدرج عليهما منذ الصبا الباكر ، وقد فقهه أبوه العالم العارف سيدى الشيخ الحلوانى الخليجى الذى كان يلقب بالشهاب ، ولقنه طريق الصوفية ، وتكمل بعد ذلك على يد القطب الكبير سيدى الحاج محمد أبى خليل صاحب الطريقة الخليلية المباركة وقد عنى به عناية خاصة لما رآه فيه من المواهب العالية حتى كان يرحب به قائلا « أهلا بالولى الكامل » .

واذا رسخ الايمان فى القلب ، رضى بما جرى به القضاء ، وذاق برد الرضا والتسليم ، فلا يتزعزع بالحوادث ، ولا يتزحزح بها عن يقينه الثابت في الله بأنه لا حركة ولا سكون الا بأمره سبحانه وقدره ؛ وهذا السكون لمجارى الاقدار انما هو غطاء الله لأصفيائه وأوليائه ، وهم يتخطون به الحدود المركوزة في الطباع البشرية وتلك فيهم قوة خارقة ؛ ويجب علينا نحن عوام المؤمنين أن نتشبه بهم ، وقد أخذ هؤلاء الخواص هذا النهج عن سيد المرسلين صلوات الله عليه وآله وسلم ، فقد قال مثلا عند الشدة التى لقيها فى الطائف حين ذهب الى ثقيف يستنصر بهم على أهل مكة ، فلم ينصروه ، بل آذوه وضربوه بالحجارة حتى أدموا قدميه ؛ فقال فيما قال صلوات الله عليه وآله وسلم .. ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى .. وفى ذلك الرضاء المطلق بالقضاء وان كان مرا .

ولسيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه كلام نفيس فى القضاء يقول فيه :

على كل الورى يجرى القضاء ... وليس خلاف ما حتم القضاء
فليس يسوقنا الا القضاء ... وليس يعوقنا الا القضاء
يحركنا يسكننا القضاء ... يجمعنا يفرقنا القضاء
يقربنا يبعدنا القضاء ... يقدمنا يؤخرنا القضاء
يحلينا ويخلينا القضاء ... ويعطينا ويمنعنا القضاء
وينطقنا ويسكتنا القضاء ... ويطوينا وينشرنا القضاء
ويخفضنا ويرفعنا القضاء ... ويقبضنا ويبسطنا القضاء
ويحزننا ويبهجنا القضاء ... ويبكينا ويضحكنا القضاء
ويفقرنا ويغنينا القضاء ... ويسقمنا ويشفينا القضاء
ويلهمنا ويذهلنا القضاء ... ويسلمنا وينصرنا القضاء
وينشرنا ويحشرنا القضاء ... ويفصل بالقضا فينا القضاء
فان وقع الجفا فهو القضاء ... وان حصل الرضا فهو القضاء
فأنت الله منك لنا القضاء ... وما لسواك ينتسب القضاء
الهى الطف بنا فيما القضاء ... به يجرى اذا انحتم القضاء

وهاكم نفحة من نفحات سيدى الامام أبى الحسن الشـاذلى ، وهى بعض ما جاء فى حزب البر المعروف بالحزب الكبير ، فقد قال فى مناجاته رضى الله عنه :

« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك ، فهنيئا لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل لمن لم يعرفك ، بل الويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك ..

« ولقد شكا اليك يعقوب ، فخلصته من حزنه ، ورددت عليه ما ذهب من بصره ، وجمعت بينه وبين ولده ، ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه ، ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت ما به من ضره ، ولقـد ناداك يونس فنجيته من غمه ، ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولدا من صلبه بعـد يأس أهله وكبـر سنه ولقد علمت ما نزل بابراهيم فأنقذته من نار عدوه ، وأنجيت لوطا وأهله من العذاب النازل بقومه » .

« فهـا أنا ذا عبدك ، ان تعذبنى بجميـع ما علمت من عذابك فأنا حقيق به ، وان ترحمنى كما رحمتهم ، مع عظيم اجرامى فأنت أولى بذلك ، وأحق من أكرم به ، فليس كرمك مخصوصا بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك .. »

اللهم اجز عنا سلفنا الصالح خيرا كثيرا ، واحشرنا معهم ، عطاء من عندك ، وتحت لواء خاتم المرسلين سيدنا ومولانا محمد سـيد الأولين والآخرين ، صلى الله عليـه وسلم ، يوم يقـوم النـاس لرب العالمين ، آمين .

أثر الشيخ في التربية

— ٣١ —

أرسل شيخي العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — الى تلميذه الصديق الوفى المبارك الصالح السيد سالم عمر جمعة رسالة كريمة جاء فيها :

« .. ولما لم أجد في ذهنى كلاما ، أمسكت بكتاب أمامى ، عسى الله أن يفتح على بالمطالعة ، فاذا به مختار الصحاح ، فقلت يا للعجب ، هذا مختار الصحاح وهو لايصلح لمثلى المكسر ، لكن على الله الجبر .. افتحه عسى أن تجد فيه شيئا ينفعك .

ففتحته فوقع نظرى على مادة « مدد » فقلت لنفسى عال ، هذا ارشاد لطلب المدد من الشيخ ومن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن الله — سبحانه وتعالى — فمددت يدى عسى أن أجد المادة ، وهى الزيادة المتصلة ،

« وفى الحقيقة ، مد الله فى عمرك ، وزاد فى نعمتك ، ان التوفيق فى الذكر والعمل الصالح ، لا يكون الا اذا أخلى الانسان قلبه ، ولو بعد صلاة المغرب ، واستجمع نفسه بالحضور فى حضرة الشيخ ، واستأذنه فى عمل الآخرة الذى يريده ، سواء كان ذكرا أو وردا أو قرآنا ، وطلب منه المدد ، ثم استأذنه واستحضر النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه المدد ، ثم استأذنه خاشعا فى حضرة الله وطلب منه المدد والاذن فى الجلوس فى حضرته لأداء الطاعة ، ثم يبتدىء بطاعته الى أن ينتهى فيقول :

« اللهم ان ذكرك لا يمل ، فارحمنا يا الله ، دستورك يا الله ، ثم يلتفت الى النبى — صلى الله عليه وسلم — ويقول : دستور يا رسول الله ، ثم يلتفت ويقول : دستور يا شيخى ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

« فى هذه الحالة يرى أنه حصل له مد ، أى سيل من النهر أو أنهر ، وشعر بسرور لا يقدر ، وانفتحت له البصيرة ، وصار يرى ببصيرته ،وامتد بصره الى بعيد ، فأنت رجل مديد القامة والباع ، سريع الاتباع ، للنبى المطاع ، حفظك الله وجعلك له من الأتباع ، فى الدنيا ويوم الأسماع » .

والقارىء العزيز يرى أن كلام سيدى الشيخ لتلميذه ، وان لابسته دعابة طريفة ، الا أنه هو الجد كل الجد ، وان يعجب القارىء فليعجب من التوفيق الذى حالفه ، فانه ما كاد يفتح مختار الصحاح حتى وقع نظره على مادة « مدد » التى فتحت له الباب الذى أقامه الله فيه ، من تعليم المريدين وتفقيههم وارشادهم ، وكل ميسر لما خلق له « فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى » .

وطالما اعترض المعترضون على كلمة « مدد » التى يتمسك بهاالسادة الصوفية ، من باب الأخذ فى أسباب الهدى ، ويظن المعترضون عليهم ، جهلا أو تعنتا ، أنها سؤال لغير الله من عباده ، وليس السادة الصوفية ، بالذين يجهلون الى هذا الحد ، فهم الذين أذاقوا الناس منهل التوحيد العذب الفرات ، وآثروا الله تعالى على ما سواه .. وقالوا فيما قرروا من مبادئهم التى لقنوها لمريديهم جيلا بعد جيل : من أنس بسواه فهو مستوحش منه ، ومن ذكر غيره فقد غفل عنه ، ومن عول على سواه فقد أشرك به .

وهم ولا شك أساتذة التوحيد المذاقى ، وان لم يتوسعوا بالجدل العقيم فى التوحيد الكلامى ، الذى جارى فيه أهل الكلام فلاسفة اليونان وغيرهم دون جدوى .

ولدقة الموضوع ، والتباسه على كثير من الناس ولأن بعض المعترضين انما يدفعهم للاعتراض على الصوفية ، غيرتهم على توحيد الله تعالى وهو أعز ما ننعم به فى الدنيا والآخرة ، نقدم بعض الشرح فى بساطة ، حتى يزول ان شاء الله الالتباس ، وتطمئن القلوب الى الحق الذى لا مرية فيه .

هناك معرضان ، معرض توحيد الله سبحانه ، ومعرض الأسباب التى أثبتها الله بحكمته حيث جعل لكل شىء سببا ، أما المعرض الأول فهو

معرض التوحيد والله سبحانه ينفرد به ، ولا يجوز أنّ يشرك العبد معه أحدا من خلقه مهما علا قدره وسما فضله ، وأما المعرض الثانى فهو معرض الأسباب التى تؤتى ثمرتها باذن مسببها سبحانه وتعالى ، وهذه لا يجوز الانكار على اتخاذها ، كما لا يجوز الخلط بينها وبين مسببها ، واذ اتخذ العبد الأسباب فيجب أن يشهد ربه مع اتخاذها ويعلم أنها لاتؤتى ثمارها إلا باذنه وارادته .

وتوضح ذلك بجلاء الأمثلة الآتية : ففى معرض التوحيد نقول الله خالق كل شيء ، ولا أحد معه ، ونقول « أفمن يخلق كمن لا يخلق »وكذلك نقول ان الله هو المميت، ومالك الموت هو مالك الحياة ، ولاشريك له فيهما..

لكننا فى معرض الأسباب نقول ان الله يخلق بأسباب ، فيلتقى الذكر بالأنثى ويتخلق الجنين فى أطواره الى أن يخرج من الرحم بشرا سويا .. فان أنكرت أن أبوى سبب خلقتى فقد أنكرت أمرا واقعا لا شبهة فيه ؛ ومع انى اعترف بأنهما سبب خلقتى وميلادى ، فانى أقول واعتقد أن الله هو الذى خلقنى ولا أقول خلقنى أبى وأمى ، وانما أقول ولدنى أبى وأمى، وبهذا أشهد ربى فى أسباب الخلقة ولا أنظر للاسباب وحدها .

كذلك نقول الله يتوفى الأنفس ، لكنه حين يتوفاها ــ سبحانه ــ يقيم لوفاتها سببا هو ملك الموت فيقبضها عند انتهاء أجلها بأمر الله ، فاذا قلت فى معرض التوحيد ان الله توفى فلانا فقد صدقت ، واذا قلت فى معرض الأسباب أن ملك الموت قبض روح فلان فقد صدقت ، وليس فى نسبة الاماتة لعزرائيل ــ عليه السلام ــ خروج عن التوحيد لأنه انما يميت الأحياء بأمر ربهم عندما يأذن الله له :

« قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون ».

وفى معرض التوحيد يقول الحق ــ جل وعلا ــ لرسوله الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » . وفى معرض الأسباب يقول له ــ صلوات الله وسلامه عليه وآله « وانك لتهدى الى صراط مستقيم » .. أى تهدى من أراد الله

هدايته .. وفى الجمع بين عطاء الله وأسبابه على يده ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الله سبحانه وتعالى : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله » .. فليس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شريكا لله فى عطائه وانما سيقت النعم من الله تعالى بسببه وعلى يده ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لسيدنا زيد بن حارثة ، فقد أسلم على يده ، واعتق بفضله ، وتزوج باختياره ـ صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم ـ فكان منعما عليه من باب السببية التى أرادها الله سبحانه بحكمته، فهو يخلق البعض بالبعض ويرزق البعض بالبعض .. ويعين البعض بالبعض ويعلم البعض بالبعض الخ .

والشيوخ العارفون بالله ، نواب عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هداية الخلق وارشادهم فى جنب الله ، لأن الله ـ سبحانه ـ ختم الرسالات بالرسالة المحمدية فكانت مسك الختام ، فصار العلماء الربانيون فى هذه الأمة يقومون مقام الأنبياء فى الأمم السابقة فى تفقيه المؤمنين وتبصيرهم فى أمور دينهم بالأقوال والافعال والاحوال على منهج الشرع الشريف .

فاذا استرشد مريد بشيخ من هؤلاء ، فقد أخذ فى سبب من أسباب الطاعة التى أمر الله بها .. وجعل لها أئمة يدلون عليها : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .. كما قال تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

واتصال المريد بشيخه اتصال روحى ، لا تفصله الجدر ولا المسافات، واذا كانت الجدر والمسافات لا تفصل أصوات الأثير المادية فكيف تفصل بين الأرواح المتعاونة فى ساحة الملكوت وهى ساحة الأنوار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء .

وطريقة الذكر التى أرشد اليها سيدى الشيخ انما هى لأهل الجد من رجال الطريق ، لأن بعض الناس يذكرون ذكر العادة دون استجماع

كاف أو حضور كامل وهو ذكر حسنات ، أما الخواص فيذكرون ذكر درجات ، فيجمعون القلب على الله بأسباب الجمع ، فيأتنسون بروح شيخهم لأنه بابهم الى مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويأتنسون بروحه — صلى الله عليه وسلم — لأنه بابهم الى الله تعالى ، وبهذا الاستئناس يقوى مددهم من الله بأسبابه ولا يستطيع الشيطان أن يقطع عليهم الطريق، لأنه لعين يقعد بكل صراط مستقيم ليصد عن سبيل الله ، والطريق تحتاج لرد كيده الى الرفيق ، والشيخ انما أقامه الله حيث أراده لدعوة الناس الى الحق ، فهو معان منه سبحانه فيما أقامه فيه ، ومولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انما هو البحر الزاخر الذى يستمد منه هؤلاء الشيوخ وعنه يصدرون ، قد علم كل أناس مشربهم .. فاذا أنس المريد بروح شيخه وبروح النبى — صلى الله عليه وسلم — فانما يقصد الفتح من بابه وهو يشهد ربه ويذكره ، ويستعين بالمدد العالى على النفس والشيطان، واعداد السلاح لقتال الأعداء لا يتنافى مع اعتقاد أن النصر من عند الله ، فقد قال تعالى : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وفى حين يقول تعالى ذلك فى معرض الأسباب ، يقول فى معرض التوحيد « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » ولكنه — تعالى يقتلهم بأيدينا من باب السببية « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » .. وأثر الروح فى الروح أشد من أثر السلاح فى الأعداء ، فان الروح تتعدى بأثرها لا فى الأرواح بل قد تتعدى باذن الله الى الجماد والحيوان ومن ذلك تسبيح الجبال والطير كأثر لتسبيح سيدنا داود — عليه السلام — قال تعالى : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » .. وسبحان الفعال لما يشاء .

وقد كان سيدى الشيخ يجمع لفيفا من المريدين بين المغرب والعشاء ويعلمهم الذكر بالكيفية السابقة ، وكان لى شرف حضور تلك الجلسة ، وعندما تحين صلاة العشاء يأمر الشيخ باقامة الصلاة ، وكان يبارك لنا فى هذه الجلسة فنذكر فى حضور واستجماع أضعاف ما كنا نذكره فرادى

ويد الله مع الجماعة ، والأرواح القوية تسقى بمددها الأرواح الضعيفة، كما ينساب الماء من الأرض المرتفعة الى الأرض الواطئة ويرويها •

وكان سادتنا الصحابة يجلسون بين يديه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كأنما على رءوسهم الطير ، وكانوا بعد تفرقهم يحسون بالفارق فيوجدانهم وهم بين يديه وحين ينصرفون ، لأن اجتماع الأشباح له أثر فى مد الأرواح وان كانت متصلة بغير الأشباح ، وسبحان من ربط بين الظاهر والباطن وبين القلب والقالب •

ولقد حدث حنظلة بن الربيع ــ كما جاء فى الصحاح ــ فقال : نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأى عين ، فاذا خرجنا من عنده عافسنا ــ أى لاعبنا وعالجنا ــ الأولاد والزوجات والضيعات ونسينا كثيرا •

وقد بلغ من حرص سيدنا حنظلة ــ رضى الله عنه ــ على أن تدوم عليه الحالة الروحية السنية ، ان اتهم نفسه بالنفاق حين فارقته بفراق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد لقيه سيدنا أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ فقال له : كيف أنت يا حنظلة ، فقال نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ماتقول؟ قال نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأى عين ، فاذا خرجنا من عنده عافسنا الأولاد والزوجات والضيعات فنسينا كثيرا ، فقال سيدنا أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ : انى أجد مثل ذلك •• انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فانطلقا •• فذكرا له ذلك فقال : « والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر ، لصافحتكم الملائكة فى فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ولكن ياحنظلة ساعة وساعة •• ولكن ياحنظلة ساعة وساعة •• ثلاث مرات •• أخرجه مسلم والترمذى •

والحكمة ظاهرة فى قوله صلى الله عليه وسلم : ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، فاننا متعبدون بالتكسب والسعى على المعاش ، ولابد من التفرغ بعض الوقت لهذا الكسب ، ولادارة شؤونه •• وشؤون الأسرة وهو سعى مشكور ومأجور •• مادام العبد يراعى فيه وجه الله ويتقيه ، ومايلقاه

المؤمن من مدد النور فى الجلسات الرحمانية يعاونه فى رعاية جانب الله فى أوقاته الأخرى .. ومع أن الأجيال التى تلت جيل الصحابة الكرام ــ رضى الله عنهم ــ لم يكن لهم شرف صحبته بشخصه الجليل ، فانهم لم يحرموا من الاتصال بروحه الشريفة ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وكيف لا ونحن نسلم عليه مشافهة فى كل تشهد فى الصلاة ، وتقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، ولا تقول : السلام على النبى :

وينصحنا سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى ــ رضى الله عنه ــ فيقول :

لا تؤخر طاعات وقت لوقت آخر ، فتعاقب بفواتها أو فوات غيرها أو مثلها ، جزاء لما ضيع من ذلك الوقت ، فان لكل وقت سهما ، فحق العبودية يقتضيه الحق منكم بحكم الربوبية .. ومن حكم السادةالصوفية قولهم : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .. وقولهم : نفسك ان لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

ومما تقدم نرى أن الصلة الروحية أمر مقطوع به ، واذا كنا لا تؤمن الا بالمادة ، فان ذلك سينتهى بنا الى غاية خاسرة والعياذ بالله ، فقد ننكر الملائكة والجن والجنة والنار الخ لأننا لا نرى شيئا منها بأعيننا .. ولقد كفر بنو اسرائيل حين قالوا لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ــ : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .. والايمان بالغيب من قواعد الدين الصحيح ، لأنه تصديق بكلمات الله .

فان سلمنا بقيام الصلة الروحية سلمنا بقيام المدد المترتب عليها ، لأن الله يرزق البعض بالبعض فى أمر الدنيا والدين ، وهذههى القاعدة العامة ، فان شذت فجاء الرزق بلا سبب ظاهر فالأمر لله ، والتدبير بيده ، والأسباب تقيدنا ولا تقيده سبحانه ، ولا يجوز أن يعترض بهذا الاستثناء علىالقاعدة العامة ، لأن الحكم للغالب كما يقولون .

ومما جرت به التجارب أن يهتدى الخلف بالسلف ، ويسترشد الضعيف بالقوى ، والجاهل بالعالم ، والفضل كله بيد الله يؤتيه من يشاء ، وما قسمه كان وما لم يقسمه لم يكن ، وقد يؤتى عبد أقوى الأسباب

ولا ينتفع منها بشيء ، وقد تأتي السعادة لاناس عطاء من الله ، فذلك أبو جهل القرشي لم ينتفع من مولانا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن الله طبع على قلبه بكفره .. بينما سبقت السعادة لسلمان الفارسي ، رضي الله عنه ، فالحقه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بآل البيت وقال سلمان منا آل البيت ، ويرضى الله عن شيخي العارف بالله سيدي الشيخ على عقل اذ يقول في الهامه الفوري :

وكم من بعيد ولكن قريب

وكم من قريب ولكن بعيد

والشيخ أداة اتصال المريد بربه ، وانما ينفح من شيخه بقدر جده وسعيه وما قدره الله له في سوابق أزله ، فقد يتبع الشيخ عدد كثير فينتفعون منه بتفاوت ، وقد يصير بعضهم من الصديقين وهم الأقلون عددا والأعظمون عند الله قدرا ، ويقول في وصفهم سيدي الامام أبو الحسن الشاذلي ــ رضي الله عنه ــ :

« الكاملون ، حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق » فان رأيتهم من حيث الخلق رأيت أوصاف البشر وان رأيتهم من حيث الحق رأيت الأوصاف التي زينهم بها .

« فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقا بأخلاق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال تعالى « ووجدك عائلا فأغنى » أفتراه أغناه بالمال ؟ كلا ، وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج من مكة على قدميه ليس معه شيء يأكله ذو كبد الا شيء يواريه ابط بلال » .

هذا ويرى السادة الصوفية أن الذاكر اذا تاب وأخلص دينه لله ،وسار على نهج الكتاب والسنة والجماعة ، فهو انما يحسن الى نفسه بكثرة ذكر الله فيترقى في درجات اليقين ، ويقطع في الترقي العلائق والعوائق ،ويغمره فيض الله فيكون من أهل الفتح والالهام والحكمة ، ويقول الامام القشيري ــ رضي الله عنه ــ في فضل الذكر على الذاكرين ..

« الذكر ركن قوي في طريق الوصول الى الحق ــ سبحانه وتعالى ــ بل هو العمدة في طريق القوم ولا يصل أحد الى الله الا بدوام الذكر » .

والامام القشيرى محق كل الحق فى ذلك القول ، الذى أيدته التجارب الطويلة ، عبر القرون الماضية .. والتصوف يقوم على التجربة والعيان أكثر مما يقوم على الدليل والبرهان ، والله تبارك وتعالى يقول : « فاذكرونى أذكركم » فأى شرف للذاكرين فى هذا القول الكريم ، فاذا ذكرك ربك فقد نفحك ، واذا نفحك ، فقد آنسك بقربه .. وقد قالوا من آنسه الله بقربه أعطاه أربعا بغير أربع : علما بغير طلب ، وغنى بغير مال ، وعزا بغير عشيرة ، وأنسا بغير جماعة .

ونختم هذا المقال بالحديث القدسى الرائع وقد رواه الشيخان ، يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الله تعالى :

« أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منه ، وان تقرب الى شبرا ، تقربت اليه ذراعا ، وان اقترب الى ذراعا ، اقتربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة » .

ويجب تأويل هذه الألفاظ ، فالله ـ سبحانه ـ لا يحده مكان ، ولا يتحرك ولا يسكن ، وانما المعنى أن يكون الله سبحانه فى عون عبده المجاهد فى سبيله ، يضاعف حسناته ويعفو عن سيئاته .. فيعمل فى جهاده القليل ويثاب عليه بالكثير .. ويذنب بالفعل ويستغفر بالقول ، فيقبل استغفاره .. فما أكرم ربى وما أبره ، واذا نسب الله عملا صالحا لعبده فان ذلك من آيات احسانه ، واذا جد العبد فى أسباب الطاعة وجب أن يستعين بالله ربه ، فانه هو الذى يوفقه ويشرح صدره ، ولله عليه المنة فى كل طاعة « وما بكم من نعمة فمن الله » فمنه ـ سبحانه ـ العطاء ومنه سبحانه الثناء ، ومن هنا وجب ألا يغتر مؤمن بطاعته ، أو يمن بها على الله مهما جد واجتهد ، بل يرد الفضل لله فى كل عمل صالح ، ويسأله دوام التوفيق لما يحب ويرضى « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

الصبر في طلب الله

— ٣٢ —

جاء في رسالة بعث بها شيخي العارف بالله سيدي عبد السلام الحلواني ، رضي الله عنه ، الى تلميذه الصديق الوفي المبارك السيد سالم عمر جمعة ما يلي :

(فكن معه واصطبر لعبادته ، فقد قالوا ان الاصطبار نهاية الصبر ، ومن صبر ظفر ، ومن لازم وصل ، ومن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له .

(والشجرة اذا أورقت ازهرت ، فاذا أزهرت وكانت من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، أدركت ، فاذا أدركت أثمرت .

« والثمرة هنا الاعتقاد الكامل ، ثم المعرفة ، والوقوف عند حد الأدب فالله سبحانه وتعالى مالك الملك ، فنحن في ملكه ، وواجب علينا خدمته سبحانه وتعالى .

« فاذا عبدناه فانما نحن عبيد ، مفروض علينا عبادته ، أي خدمته ، ولا نبغي بذكرنا وعبادتنا الا أننا خدم وعبيد ، والله يفعل فينا ما يريد ، لا نبغي بذكرنا وعبادتنا أي ثواب ، ولا نخاف من عقاب ، بل نرضى بما قدره وقضاه ، فليس الأمر لسواه ، جل وعلا ، وهو الرحمن الرحيم » .

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالعبادات المختلفة ، وفيها تكاليف بدنية ومالية ،يتميز بها المسرع من المبطىء والمقبل من المدبر ، وذلك مظهر من مظاهر عدله سبحانه وتعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وليس عدلا أن يكون المحسن والمسيء بمنزلة سواء عند ربهم .

والعبادة مدخل للعبودية ، والعبودية سبيل لمعرفته سبحانه وتعالى ، ومعرفته سبحانه هي علة وجودنا في هذه الحياة الدنيا فقد بين تعالى تلك العلة في قوله الكريم (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريدمنهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقد قال ابن عباس رضى الله عنه في معناها : الا ليعرفون .

ومعرفة الله تتفاوت بتفاوت الفهم عن الله ، والفهم عن الله يتفاوت بتفاوت الجهاد في سبيله والصدق فيه ، وما قدره الله لعبده من عطائه في سوابق أزله ، ولأن ما قدره سبحانه وتعالى في سوابق أزله غيب لا يعلمه الا الله ، وجب على العبد أن يتخذ كل سبب مرسوم في الشرع لمرضاته ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وقد أمر سبحانه بالعبادة ، كما أمر بالاصطبار عليها في مثل قوله الكريم (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) وقوله تعالى (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) •

واذا كنا مع اعتقادنا في أن الرزق بيد الله تعالى نجهد جهدنا في أمور دنيانا الفانية لنصل فيما نبغيه لحياتنا الدنيوية الى أفضل مستوى مستطاع فكيف بنا نتوانى في طلب الآخرة الباقية ، واذا كانت مطامعنا في الدنيا لا تقف عند حد ، فكيف نرضى بالقليل لأخرانا مع أننا نستطيع أن نبلغ أضعافه ، أليس في ذلك ايثار للدنيا على الآخرة وقد نهانا الله عنه وحذرنا منه (بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) .

وما أبدع ما يقوله سيدى على الخواص ، رضى الله عنه ، فيما نقله عنه سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، فقد قال :

« من أدب العبد في الفهم في كلام ربه جل وعلا أن يمشي حيث مشى به الشرع ، ويقف حيث وقف به ، فيعقل ما يقول له اعقل ، ويؤمن فيما يقول له فيه آمن ، وينظر فيما قال له فيه انظر يعنى تفكر ، ويسلم فيما قال له فيه سلم .

« وذلك لأن الآيات وردت في القرآن متنوعة ، فآيات لقوم يعقلون ، وآيات لقوم يؤمنون ، وآيات لقوم يتفكرون ، وآيات لقوم يسمعون ، وآيات للعالمين ، وآيات للمؤمنين ، وآيات للموقنين ، وآيات لأولى النهى ، وآيات لأولى الألباب ، وآيات لأولى الابصار ، ففصل يا أخى كما فصل لك الحق تبارك وتعالى ، ولا تتعد الى غير ما ذكره لك ، ونزل كل آية وعبرة موضعها وانظر فيمن خوطب بها ، واجعل نفسك كأنك المخاطب بها ، فان فيك مجموع ما تفرق في اخوانك المسلمين لنعته تعالى لك بالعقل ، والايمان ، والتفكر والتقوى والسمع ، والقلب الذى هو اللب ، والأبصار وغير ذلك ، فانظر يا أخى فى كل صفة نعتك بها واظهر بها فى العالم تكن ممن جمع له القرآن وأعطى الفرقان .

أما أن الاصطبار نهاية الصبر ، فان الشيخ يوجه تلميذه الى موالاة الطاعات في صبر جميل ، واستقامة دائمة ، مع احتمال المشقات في سبيله سبحانه ، وما يقول به السادة الصوفية في الاصطبار ، مأخوذ من كتاب الله تعالى كما بينا آنفا وهم يستنهضون همتنا فيقولون انه سبحانه قال (ليس كمثله شيء) ولما كان تبارك وتعالى لا مثل له ، حق للعابدين ألا يذروا مقدورا فيه الا بذلوه ولا يغادروا ميسورا فى طلبه الا تحملوه وانشدوا في ذلك :

سهر العيون لغير وجهك باطل
وبكاؤهن لغير هجرك ضائع

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه ناصحا للمؤمن :

« لمن تدخر مجهودك اذا لم تطلب معبودك ، هل تعرف أحدا يستحق ما يستحقه أو يوجد ما يخلقه ؟ ان دعوته أجابك ، وان أطعته اثابك ، وان تركته أمهلك ، وان رجعت اليه واصلك ، وان عرفته أحبك ، وبغير شفيع قربك ، وبلطفه كاشفك ، وبفضله لاطفك » .

ويقول الامام الدقاق ، رضى الله عنه .

« ان مجنون بنى عامر ادعى المحبة لشخص ، وتحقق فيها حتى هجر الأوطان ، وفارق الاخوان ، واغترب عن كل شيء حتى اسمه (اسمه قيس ومحبوبته ليلى كما هو معروف فلما خرج الى الصحراء رأى ظبية) فقال :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها
سوى أن عظم الساق منك دقيق

فقال له أهل التحصيل :

« اف لك من محب قاسيت ما قاسيت ، وتحملت ما تحملت ، وحين خرجت الى الصحراء وجدت من أمثالها ما لا يحصى » .

ومن لازم وصل ، كما قال سيدى الشيخ رضى الله عنه ، والوصول لا يكون الا بالمعرفة ، لأن المعرفة تعلمك ، كما يقول الامام الدقاق ، رضى الله عنه ، ايه ليس كذاته سبحانه ذات ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة الا من جهة موافقة اللفظ ، وجلت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة ، كما استحال أن تكون الذات المحدثة لها صفة قديمة ، سبحان من ليس كمثله شيء ، وجل عن الزمان والأين .

وليس المقصود أن تعرف ذلك اعتقادا فحسب ، بل المقصود أن تشهد ذلك مذاقا واحساسا ، فذلك الاحساس ، يهون معه كل جهاد فى سبيله ، ويصغر به ما سواه جل وعلا ، كما يقول استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، رضى الله عنه .

فتشت كل الخلق عن علم فلم
أر لى سوى رب السما من وال
فتركت كل العالمين وجئته
وجعلت ذكرى ذاته منوالى

وقد تحلى السادة الصوفية بذلك الأدب ، فعقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، لأن العلم انما هو وسيلة للعمل ، فجدوا

فى طلب الله بكلياتهم وجـزئياتهم ، وأخـذ عنهم أكابر العلمـاء ، واليك ما يحدثنا به حجة الاسلام الامام الغزالى رضى الله عنه عن التصوف وأثره فى كتابه (المنقذ من الضلال) .

بقيت نحـو عشرين سـنة بعد خروجى للتصوف ، وانكشف لى فى أثنائها أمور لا يمكن احصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به الناس انى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ؛ بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منـه ، لم يجدوا اليه سبيلا ، وان جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وبالجملة ماذا يقول القائل فى طريقـة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى .

ومعلوم أن الامام الغزالى ــ رضى الله عنه ــ انتهى الى ذلك القول بعد أن تبحر فى العلوم العقلية والنقلية ووقف على آراء الفلاسفة ، وحين أقبل رضى الله عنه على التصوف هجر العراق ورحل الى الشام وتفرغ فى خلواته لله ما وسعه الجهاد والذكر حتى وصل الى مقام قال فيه : يضيق نطاق المنطق عنه وكل ما أقوله لكم :

فـكان ما كان مما لست أذكـره
فظن خيرا ولا تسأل عن الخبـر

ولا عجب أن يجمل ولا يفصل لأن مقامات السادة الصوفية انما هى مذاقات وجدانية وهى اذن فوق ما يصف الواصفون وصدق الامام النبهانى رضى الله عنه اذ يقول :

لا تسـل وصف حبهـم فهـو سر
بسـوى الـذوق مـاله افشـاء

وصدق شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه حين يقول الهاما :

نحن فى عالم اليقين رجال　　قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم　　انما نحن فوق ذاك شربنا
فتح الباب ثم قال لجوه　　فولجنا وبعدها قد وصلنا

ومن لازم وصل ، ومن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، كما قال شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، والوصول لا يكون الا بالمعرفة ، ومعرفة الله لا تكون الا بعد معرفة النفس ومن عرف نفسه فقد عرف ربه فمن عرف نفسه بالحدوث ، عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء ، عرف ربه بالبقاء ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى ومن عرف أنه مخلوق ، عرف أن ربه هو الخالق ، ومن عرف أنه مرزوق ، عرف أن ربه هو الرازق وهكذا ، وبهذه المعرفة المذاقية يقف المؤمن من ربه موقف العبد من سيده ، فاذا قال له ربه ياعبدى قال لبيك ربى فصدق فى الامتثال بصدق العبودية المذاقية ، فلا يكسر حدود ربه بل يلتزمها ، فان كسرها أسرع بالانابة والاستغفار ولم يصر على ما فعل ، فأكرمه الله بالمغفرة .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك العبودية المذاقية الغاية القصوى التى يستطيعها البشر ، فشرفه ربه بالانتساب اليها فى آيات كثيرة فى مثل قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) وقوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) .

فاذا جد السادة الصوفية فى طاعة الله ، فهم يجدون عبودية لله ، غير ناظرين الى ثواب أو عقاب حتى لا تكون الطاعة معلولة بخوف أو رجاء ، بل تكون صافية وخالية من العلة لأنه سبحانه بسيادته على خلقه أهل لأن يعبد لذاته ، لأنهم صنعته ، واليه مآلهم وبيده أمرهم ، وما قدره كائن بهم ، فليس الأمر لسواه ــ كما يقول سيدى الشيخ ولم يبتدع السادةالصوفية

فى ذلك جديدا ، بل أخذوه من مثل قوله تعالى (فصل لربك وانحر) أى لذاته سبحانه ، ومن مثل قوله فى السادة أهل الصفة (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فمن أراد أن يكون من السابقين بالخيرات باذن الله ، فليكن ذلك مشربه (والسابقون السابقون • أولئك المقربون) ومعلوم أن السابقين أعلى فى درجاتهم من أصحاب اليمين •

وقد كنت أقرأ فى كتاب لطائف المنن لسيدى العارف بالله الامام الشعرانى رضى الله عنه ، فوجدت وصية يوصيه بها شيخه القطب الكبير سيدى على الخواص رضى الله عنه ، يقول له فيها :

اياك أن تشره عينك ، فتتمنى ما ليس لك أن يكون لك ، فانه لايخلو اما أن يكون قسمه الله لك أو لم يقسمه ، فان كان قسمه لك فهو صائر اليك لا محالة اما بمشيك اليه ، واما بمجيئه هو اليك من غير مشى ، وأما ان لم يكن قسمه الله لك ، فلا يمكنك الوصول اليه بحيلة من الحيل ، فاشتغل عن ذلك باحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك فى وقتك الحاضر ، فقد نصحتك ، وعليك ببذل طوقك وجهدك فى طاعته ، معتذرا ، مفتقرا خاشعا مطرقا ، غير ناظر الى عوض من دنيا أو أخرى ، فانك عبد ، والعبد لا يستحق على خدمة سيده شيئا لأنها من حقوق السيد •

وهذه الوصية كما تراها تتشابه فى مبناها ومعناها بوصية سيدى عبد السلام الحلوانى لتلميذه ، وسبحان من جمع الصادقين على بساط المحبة ، وعلمهم من كلماته التى لا تنفد ما لم يكونوا يعلمون •

وكان سيدى القطب الكبير أحمد الرفاعى رضى الله عنه يقول :

« كن طيارا الى الحضرة كلما تغيب عنها ، ولا ترض بالقعود عنها ، ثم اذا من الله تعالى عليك بالدخول ، فأحسن الأدب ، ولا تغتر بما أنت فيه من النعيم الأوفر والعز الدائم والكفاية الكبرى والدلال والغنى فى الدنيا والأخرى ، فمن اغتر بذلك قصر فى الخدمة ضرورة ، وأخلد الى الرعونة الأصلية من الظلم والجهل ، فأخرج (بضم الهمزة) من الحضرة فى أسرع من لمح البصر » •

والدخول هنا ليس دخولا حسيا ، بل هو اتصال روحي ، حين يشتغل القلب بربه ، وتجتمع الهمة في مرضاته ، فلا يتشتت اللب في أودية الدنيا وهمومها بل يكون العبد في حضور ، ذاكرا مذكورا ، ساعيا مشكورا ، أنس قلبه بالله فاستوحش مما سواه ، أقبل على الله فأقبل الله عليه وفرح به فاختصه برحمته وآواه وكيف لا وقد قال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) والقرب هنا قرب منزلة ودرجات لأقرب مكان ومسافات ، وهذه الرحمة الرحمانية ، هي مطمع الصادقين والصديقين من عباده الصالحين لأنه سبحانه يكتبها للذين يتقون ، لذلك ترى سيدى الامام العظيم أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول في حزبه الكبير — حزب البر — فيما قال :

« يا الله ، يا الله ، يا الله ، يا لطيف يا رزاق ياقوى ، ياعزيز لك مقاليد السموات والأرض ، تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر ، فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به الى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نقمتك ، ومن حلمك ما يسعنا في عفوك ، واختم لنابالسعادة التى ختمت بهالأوليائك واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ،وزحزحنا في الدنيا عن نارالشهوة، وادخلنا بفضلك في ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلابيب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيمنا من أرواحنا ومسخرا من أنفسنا ، كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا .

« وهب لنا منك مشاهد تصحبها مكالمة ، وافتح اسماعنا وأبصارنا ، واذكرنا اذا غفلنا عنك باحسن مما تذكرنا به اذا ذكرناك ، وارحمنا اذا عصيناك باتم مما ترحمنا به اذا أطعناك ، واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر ، والطف بنا لطفا يحجبنا عن غيرك ، ولا يحجبنا عنك فانك بكل شيء عليم » .

وفي الحديث القدسى الشريف يقول الحق تبارك وتعالى « انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ويفسره سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فيقول : أى الذين كسرت ارادتهم البشرية وأزيلت شهواتهم

الطبيعية ، واستؤنفت لهم ارادات ربانية ، فهم دائما تحت قهر ارادتى طوعا منهم لا ينجبر لقلبهم كسر أبدا حتى يلقونى .

ويؤيد ذلك ما قالت السيدة رابعة العدوية ، رضى الله عنها : المحب لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه .

ويحذر سيدى عبد القادر الجيلى ، رضى الله عنه ، الأغنياء من التقصير فى طاعة الله تعالى اغترارا بالمال الذى فى أيديهم فيقول :

« احذر أن تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته ، فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال وأفقرك وغيرك عقوبة لك ، واعلم أنك ان اشتغلت بطاعته تعالى عن ذلك المال ، فهو موهبة من الله تعالى لك ، وليس هو من المال المذموم » .

وقد كان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول لأصحابه :

« كلوا من أطيب الطعام ، واشربوا من ألذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش ، والبسوا الين الثياب فان أحدكم اذا فعل ذلك ، وقال الحمد لله ، يستجيب كل عضو فيه للشكر » .

« بخلاف ما اذا أكل خبز الشعير بالملح ، ولبس العباءة ، ونام على الأرض ، وشرب الماء المالح السخن وقال الحمد لله ، فانه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله تعالى ، ولو أنه نظر بعين البصيرة ، لوجد الاشمئزاز والسخط الذى عنده ، يرجح فى الاثم على من تمتع بالدنيا بيقين ، فان المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى ، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فعل ما حرمه الحق عز وجل » .

وينصحنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، أن ننتقل من الأكوان الى المكون فيقول :

« لا ترحل من كون الى كون ، فتكون كحمار الرحى يسـير والذى ارتحل اليه هو الذى ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان الى المكون ، وان الى ربك المنتهى » .

ومع أخذ السادة الصوفية فى أسباب الطاعات فهم يسـتعينون دائما بالله تعالى ، ويسألونه العون والتوفيق والقبول ، ويتجـلى لك ذلك منهم فى مناجاة سيدى ابن عطاء ، رضى الله عنه ، وهو يقول فيها :

« الهى : أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ؟ .

الهى : أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟.

« الهى : ان اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك ، منعـا عبـادك العارفين بك عن السكون الى عطاء ، واليأس منك فى بلاء .

« الهى : منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك .

« الهى : كيف يستدل عليك ، بما هو فى وجوده مفتقر اليك،أيكون لغيرك من الظهـور ما ليس لك حتى يـكون هو المظهـر لك ، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تـكون الآثار هى التى توصل اليك .

« الهى : هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك اطلب الوصول اليك ، وبك استدل عليك ، فاهدنى بنورك اليك واقمنى بصدق العبودية بين يديك .

« الهى : بك استنصر فانصرنى ، وعليك أتوكـل فلا تكلنى ، واياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضـلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى وببابك أقف فلا تطردنى .

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا الى غيرك .

« أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم .

« ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك لقد خسر من بغى عنك متحولا ، وقد خاب من رضى دونك بدلا ، كيف يرجى سواك وانت ما قطعت الاحسان أم كيف يطلب غيرك وانت ما بدلت عادة الامتنان .

وقد وقع لى الاطلاع على مخطوط نفيس من مؤلفات سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه (أعارنيه أخى العارف بالله الاستاذ عبد المنعم الحلوانى رضى الله عنه) يشرح فيه أسماء الله الحسنى ، فرأيت أن أنقل منه الى السادة القراء شيئا من كلامه القيم فى الصبر والاصطبار فقد قال جزاه الله عنا خيرا .

أما رتبة العبادات في الصبر ، فعلى أقسام ، أولها التصبر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة فيه ،

وبعد ذلك الصبر وهو سهولة تحمل ما يستثقله غيره من فنون القضاء وضروب البلاء ،

وبعد ذلك الاصطبار وهو النهاية فى الباب ويكون ذلك بان يألف الصبر فلا يجد مشقة بل يجد روحا وراحة قال الشاعر :

تعودت مس الصبر حتى ألفته
وأسلمنى حسن العزاء الى الصبر

وأنشدوا :

صابرا لصبر فاستغاث نه الصبر

فصاح المحب ياصبر صبرا

ونقل عن الامام أبى على الدقاق رضي الله عنه قوله :

« ليس الصبر ألا تذكر البلاء لفظا ونطقا ، انما الصبر ألا تعترض على قدرته استقباحا لذلك ونكرا ، وشاهده ما أخبر الله تعالى عن أيوب عليه السلام بقوله (انى مسنى الضر) ثم قال تعالى (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) .

ثم يقول الامام القشيرى رضي الله عنه فى ابداع :

« وأما ما يجب على العبد من الصبر فهو الصبر على ما أمر الله تعالى به من أوامره ، والصبر عما نهى عنه من محارمه ، والسكون تحت مايجرى قضاؤه به وقدره ، وفقنا الله تعالى لذلك بمنه ورحمته انه على كل شيء قدير » .

وأقول بعد ما تقدم : اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك واجعلنا من عبادك الصالحين الذين جعلتهم فى حماك المنيع وقلت فيهم (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) .

صحبة الشيخ العربي

— ٣٣ —

« أما الشوق فشوق يؤدى للجمع ، والجمع لا يكون الا بالجمع ، والجمع جمع القلب على الله ، فاذا كان شوق فلا يكون الا لله ، فان تعدى لانسان ، فلا يكون الا بجمعه على الله ، فلا يكون شوق لانسان الا لمحبة الله ، فهو بالله والى الله وفى الله وعلى الله وبالله .

« فاذا كان عندى شوق فمظهره أنت ، ومنك طوقت جيده وعرفتك بالله ، فاذا توجهت الى الله ، وجدتك انت مع الله ، فاذا عرفت انسانالاتعرفه الا لله » .

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، لتلميذه الصديق الوفى المبارك السيد سالم عمر جمعة ، حفظه الله وهى كما تراها ، كلمات صوفية صافية، تأخذ منها أن شوق المؤمن لأخيه المؤمن عبادة ، من أسمى العبادات ، لأن محبة الله هى الباعثة لذلك الشوق ، واذا قامت الأخوة على محبة الله تعالى ، لم تدنسها علة دنية ، أو غاية عرضية ، تزول بزوالها الرابطة ولا تدوم .

والاخوة فى الله ، أخوتان ، اخوة عامة تقوم على أخوة العقيدة ، وأخوة خاصة ، تقوم على محبة الله ، والمحبة فى الله ، أخص من اخوة العقيدة ، ومحبة الشيخ لتلميذه أو التلميذ لشيخه ، هى من المحبة الخاصة، بل هى خاصة من الخاصة ، لأنها بنيت أساسا على محبة الله ، وقويت أركانها بالأبوة والبنوة الروحية ، التى قامت بين الشيخ وتلميذه فى الله وبالله .

والشيخ ينمى فى التلميذ محبة الله ، وايثاره تعالى على ما سواه ، والتلميذ يقدر لشيخه فضله فى تنمية المحبة وتشييد دعائمها ، وتوثيق عراها ، وكفالة الشيخ لتلميذه فى هذا الضوء من حياته الروحية ، كفالة يراد بها وجه الله وأجر الشيخ على الله سبحانه ، وهو لا يريد من تلميذه جزاء ولا شكورا •

والأخذ عن شيخ عارف بالله ، من المبادىء الصوفية الهامة ، حتى لقد قالوا : كل من لم يكن له أستاذ ، يصله بسلسلة الاتباع ، ويكشف عن قلبه القناع ، فهو فى هذا الشأن لقيط لا أب له ، دعى لا نسب له ، فان لم يكن له نور ، فالغالب غلبة الحال عليه ، لم تروضه سياسة التأديب والتهذيب ، ولم يقده زمام التجربة والتدريب

والسادة الصوفية ، يقولون وهم محقون فيما يقولون ، ان الطريق تحتاج للرفيق ، وخاصة طريق الله ، التى يعالج العبد فيها خوافى علله القلبية ، ولابد لعلاجها من طبيب خبير بالعلل وعلاجها ، ممن يسرهم الله لذلك ؛ ويقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه لولا ميادين النفوس ، ما تحقق سير السائرين ، اذ لا مسافة بينك وبين الله حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك ، كما يقول رضى الله عنه حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه •

والدواء فيه المرارة فى البداية ، ولكنه موصل الى الشفاء فى النهاية ، وان الذى أنزل الداء ، أنزل معه الدواء ، ليتداوى صاحب الداء من الداء بالدواء الذى أراده الله وأذن به للشفاء ، وينصحنا سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه فيقول : لا تكن كالعليل يقول لا أتداوى حتى أجد الشفاء، فيقال له ، لا تجد الشفاء حتى تتداوى •

ويتدرج المريد فى الجهاد على يد شيخه شيئا فشيئا ، حتى يذوق حلاوة الطاعة ، فينتقل من ذل المعصية الى عز الطاعة ، ويرقى حتى يتحلى ــ كما يقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه ــ بسبعة أصول :استحقار ما سوى الله حالا ، والتعظيم لأوامر الله كشفا ، وسقوط الاكوان شهودا ،

والفناء فى الجمع استغراقا ، وتعلق الهمة بالله دأبا ، ومراقبة الأنفاس سرا ، ثم حدوث الوله بحيث لا يرى غير الله ، ولا يحس بشىء سواه .

ويقول سيدى الامام الغزالى ، رضى الله عنه ـ فى كتاب الاحيـاء ، « المحبة لله ، هى الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضا واخواتها ، ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

ويبين لنا السادة الصوفية ان الشيخ فى التربية الروحية يجلو بارشاده للمريد مرآة قلبه حتى تتجلى فيه أنوار ربه فيقول له شيخه عندئذ (ها أنت وربك) فيشهد ربه ويؤثره على هواه وعلى كل ما سواه ، ويصلح فى هذه المرتبة لأن يجاهد نفسه بنفسه جهادا مثمرا ، وذلك أشبه بما يقع من كفالة والد الجسد لابنه حتى يبلغ رشده فيجاهد على رزقه بنفسه على أسـاس صالح من الكفالة الابوية السابقة ، ويرى المـريد من ربه تعالى العـون والالهام مصداقا لقوله سبحانه ، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سـبلنا وان الله لمع المحسنين) ، وليس معنى ذلك أن ينسى فضل شيخه فان من لم يشكر الناس لم يشكر الله ويقول العارفون : لا يطمع أحد فى معرفة الله وهو لا يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يطمع أحد فى معـرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف شيخه .

ويبين لنا السادة الصوفية كـذلك ، ان الحجاب الذى بين العبـاد وربهم ، ليس أمرا وجوديا بل هـو حجاب توهمى ، واليك ما يدلك به سيدى ابن عطاء الله السكندرى ــ رضى الله عنه ، على صـحة رأيهم اذ يقول فى روعة ظاهرة :

« من شـهد ظلية الآثار ، لم تعقه عن الله ، فان ظـلال الأشـجار فى الأنهار ، لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله ، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب اليك منه ، ولا شىء أقرب من الله فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب » وهى نظرة فلسفية كما ترى ، وللتصوف فلسفته الصـافية

الخالية من الريبة والشك أو الخيال والوهم ، وكل ما خطر ببالك فهوهالك والله بخلاف ذلك .

ويقول السادة الصوفية ان من ذاق شيئا من خالص محبة الله ، ألهاه ذلك عما سواه ، كما يقولون : ان وصول العبد الى ربه انما هو وصوله الى العلم به سبحانه ، وجل تبارك وتعالى أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء، وأين ذواتنا من ذاته العلية ، وأين الحادث من القديم ، والفانى من الباقى، فهو جل وعلا ، يتقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ولا انفصل عنه حادث مسبوق به جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل .

وما رمى به السادة الصوفية من الحلول والاتحاد ، انما رموا به حسدا من عند أعدائهم ، أو جهلا بمراميهم فى أقوالهم ، وقد تعلو عن افهام القاصرين ولا يفهم كلامهم الا واحد منهم ، سلك مسلكهم ، وذاق مذاقهم • خاصة وأنهم اعتمدوا فى كلامهم على الاشارات ، كلغة رمزية لأهل التصوف ، لا لعامة الناس ، والخواص يفهمون مالا يفهمه العوام وقد قيل فى حكم الأقدمين .

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم

على أن بعض أئمتهم بينوا لنا أنه حيث ورد الاتحاد فى كلامهم فانما قصدوا به اتحاد مرادهم مع مراد ربهم كما قال سيدى على وفا رضى الله عنه .

وعلمك ان كل الأمر أمرى
هو المعنى المسمى باتحاد

ومن عجيب الأمر أن يرمى اعداء التصوف سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه بالحلول والاتحاد ، مع انه يقول فى صراحة تامة فى الفتوحات المكية (باب ٢٥٢) ومن أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء

وان الشمس ما انتقلت اليه نواتها وانما كان القمر مجلاها كما جاء فى أشعاره قوله :

ودع مقـــالة قـــوم قال عالمهـم
بانه بالاله الواحـــد اتحـــدا

الاتحـــاد محـــال لا يقـــول به
الا جهـول به عن عقـله شردا

وعـن حقيقتـه وعـن شريعتـه
فاعبـد الهك لا تشرك به أحـدا

وقد نبه سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه ، فى مقـدمة كتابه القيم (اليواقيت والجواهر) الى أن حساد الصوفيةدسوا علىسيدى محيى الدين وغيره ، كما دسوا على سيدى الشعرانى فى حياته ، أقـوالا تخالف ظاهر الشريعة وقد اطلع على النسخة الخطية الأصلية للفتـوحات المكية ، ولم يجد فيها شيئا من تلك المدسوسات .

وقد وجب علينا اذن ، أن نحسن الظن باسلافنا الصالحين ، وألا نسىء اليهم ، وهم أولئك الذين علمنا عنهم أنهم متمسكون بالكتاب الكريم والسنة الشريفة والجماعة الملزمة ، واذا عجزنا عن فهم عبارة من عبـاراتهم فلنرد علمها ومرادهم منها لله تعالى ، وقد رأيت للامام النبهانى رضى الله عنـه عبارة فى هذا المعنى فكان اذا التبس عليه الفهم يقول : وللشيخ هنا كلام لا يجوز اعتقاده على ظاهره والله أعلم بمراد الشيخ منه ، فلا يجرح الشيخ ولا يسىء به ظنا .

والسادة الصوفية ، حسدهم عـلى مر الأزمان ، المسـلمون وغير المسلمين لأن كل ذى نعمة محسود ولا نعمة فوق حسن الصلة بالله تعالى .

محســدون عــلى ما كان من نعم
لا ينزع الله عنهـم مـاله حسـدوا

والحسد ، ونعوذ بالله منه ، داء قديم ، سنه ابليس اللعين،حين حسد سيدنا آدم عليه السلام على ما آتاه الله من فضله ، فأبى أن يسجد له ، ويقول سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، فى وصاياه :

« لا تكترث بحسادك ، فقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (قل أعوذ برب الفلق) حتى قال له (ومن شر حاسد اذا حسد) فكأنه عز وجل يقول له : سلنى ان أكفيك شر حسادك ولا تسألنى أن أقطعهم عنك ، فان الحسد مع النعم ، ولابد من نعمة عليك » .

ويبين لنا سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه انالأولياء هم صفوة المؤمنين والله يجمعهم على محبته ، ويجمع بهم أهل مودته على طاعته وهم يتعاونون فى الدرجات ، فمنهم الأولياء ، ومنهم الصديقون ، وغايات الأولياء بداية الصديقين ، كما يبين لنا أنهم انما يبلغون الولاية والصديقية بحسن متابعتهم لحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو يقول ، فيما أورده عنه الصديق العلامة التقى النقى ، الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه القيم أبو الحسن الشاذلى واصفا المخلصين من المؤمنين :

رجال جبلهم على حسن عبوديته وأخلصهم لاخلاص توحيد ربوبيته واتباع شريعته ، فيما متع اسرارهم بأنوار حضرته ، وأمد أرواحهم بمعانى المعارف ، وخصائص عنايته وأجال عقولهم فى عظمته ، وزكى نفوسهم فأحرزها وأخرجها من ظلمة الجهل ، وهداهم بنجوم العلم وشمس معرفته ، وأيد عقائدهم ببرهان كتابه وسنته ، ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئته ، وطوى ارادتهم بتيقن وقفها على ارادته ، وزينهم بزينة الزهد ، وحلية التوكل ، وشرف الورع ، ونور العلم ، وضياء المعرفة ، وألهمهم لفضله وطوله ، وتولاهم فأغناهم به عن غيره .

« وجعل منهم مفاتيح قلوب الورى ، وينابيع الحكمة الكبرى يتلقونها شرعا ، ويلقونها لأهلها سرا وجهرا ، ومنهم من سترته الأقدار ، وحجبته عن الأغيار ، لينفرد بالتمكن فى حقيقة الأسرار ، تعرف كلا بسيماهم باطنهم مع الحق ، وظاهرهم مع الخلق ، فهم هم فى الوجود ،

بوصف الغناء ظاهرين ، صفوا وافترقوا فى سيرهم سننا ، ظاهرهم الفقر، وباطنهم الغنى ، يتخلقون بأخلاق نبيهم صلى الله عليه وسلم كما قال العلى الأعلى (ووجدك عائلا فاغنى) •

« أفتراه أغناه بالمال ؟ كلا وقد شد الحجر على بطنه ، وأطعم الجيش من صاع ، وخرج من مكة على قدميه صلى الله عليه وسلم ، وركب فوق البراق ، وعرج به الى السماء العلى الى سدرة المنتهى ، ورأى ما رأى ، ما كذب الفؤاد ما رأى •

« فانظر الى حال الغنى فى الوصفين ، واشهد شرف أوصافه فى الحالين ، فان قلت بشر ، قلت نعم لا كالبشر ، كما تقول فى الياقوت حجر لا كالحجر •

وفى العباد نبى ورسول يدعو بالحق الى الحق ، فأعطى الأولياء منه ميراثا من النبيين بين الخلق ، اذ هم قوم أخذوا فى التأسى بجد واتيان ، واعتقدوا قول كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ماهو عليه كائن ، وأقاموا فى مقام التوحيد ، على قدم التجريد من حظوظ النفس، وملاحظة الحظوظ ، واقتداء بالسلف رضى الله عنهم •

هذا قصد القوم ، وأصل فى الاخلاص والتخصيص ، فيما لو نظرت الى حقيقة ذلهم وافتقارهم الذى هو عين العز والغنى بمولاهم اشتد تحقق حالهم الا على ولى فى نهايته ، أو صديق ولو فى بدايته لأن غايات الأولياء بداية الصديقين :

فخذ السر جهرا اليك
واحبس عليه بكلتا يديك

ويبين لنا كذلك رضى الله عنه ان الطريق الى الله يسلكها العبد بأربعة أشياء ، ويقول من حازها فهو من الصديقين المحققين ، ومن حاز منها ثلاثا فهو من الأولياء المقربين ، ومن حاز منها اثنتين فهو من الشهداء الموقنين ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصالحين • ويبين هذه الأربعة فقال رضى الله عنه :

أولها — الذكر ؛ وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور •

وثانيها — التفكر ، وبساطه الصبر ، وثمرته العلم .

وثالثها — الفقر (أى مما سوى الله والغنى بالله) وبساطه الشكر وثمرته المزيد منه •

ورابعها — الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها (أى شهوات الدنيا وأهل الشهوات) وثمرته الوصل بالمحبوب •

ويقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه ، فى وصف عباد الله هؤلاء ، فيما نقلنا عنه من الهامه الفورى :

هم الجواهر طبعا لا يغيرهم مر الزمان وهم من أهله الدرر
ان يشبعوا حمدوا أو أفقروا صبروا أو يحزنوا كتموا أو يوهبوا شكروا
ملائك الله ترعاهم وتتبعهم والفضل يحضر فيهم أينما حضروا
من أمهم كان فضل الله غامره وحيث منزلهم يستنزل المطر
أزكى القلوب وأسماها وأشرفها من بالهداية والايمان يأتزر
أضالعى شاهدات أنها اتقدت لكن كتمت فلم يظهر لها شرر
والعاشقون لهم فى الحب ان صبروا روض من العز لم يذبل له ثمر
مياهه الذكر والتقوى منابعه والعلم والدين والآيات والعبر
خل المعارف للعشاق تقطفها ان كنت منهم فسر واسهر كما سهروا

ويقول رضى الله عنه فى كلام رائع طويل :

يا راضيا بالحب فى ربه لقيت كل الخير فى قربه
احفظ عليك الدين مهما تكن يحفظك من جهل ومن ريبه
هذا كتاب الله باب الهدى أنواره تهدى الى رحبه
من طهر النفس بآياته يكشف رب العرش من كربه
من يجعل الشرع له منهجا أخرج كل الشك من قلبه
دع ما يقول الناس من علمهم ما دمت تلقى العلم من سيبه

بحــر التجــلى كــله حــكمة كم تســكر الأرواح من عــذبه
علمنــا المختــار خيــر الورى أن نقطــع العمــر عــلى بابه

ومن فضل الله على هذه الأمة المحمدية ، انها تستجيب للآمــرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، ولا عجب فهى خير أمــة أخــرجت للناس ، ولقد اتصل بى بطريق مجلة منبر الاسلام الغراء ، قراء أفاضل ممن يتابعون هذه السلسلة ، الصوفية فى الهامهم ، وتآخينا فى الله تعــالى وتعاونا فى طاعته سبحانه ، وهو ما شجعنى عــلى الاسترســال فيها ، مهمــا كلفنى الجهد .

وانى ناقل للسادة القراء ، كتابا طريفا ، جاءنى من الأخ المفضــال السيد محمد محمد البلقينى . وقد طلب الى فيه ان اعاونه فى ســلوك طريق التصوف وقد فعلت ، فسعدت بصحبته فى طريق الله ، طــريق الخير والسعادة الحقة ـــ قال فيه حفظه الله :

سيدى الأستاذ حسن كامل الملطاوى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

منذ نحو عام قرأت لكم عن (الصوفية فى الهامهم) ومنذ ذلك اليوم وأنا أتابع هذه الحلقات النورانية ، كما أســعدنى الحظ بقــراءة كتاب منهاج الصوفية ، كنت لم أتمه بعد ، وكذلك كتابكم عن الامام الحسين رضى الله عنه .

وفى كل مرة اقرأ لكم ، اشعر بهزة نفسية ، ويقظة روحية ، تصل الى حد الانفعال المتدفق ، لكن سرعان ما تنطفىء فى تيار الحيــاة المتقلب بين مطالب العيش ووساوس النفس .

وكان لزاما أن أسعى الى الطريق ، طريق النور والهدى والسكينة ، والحق والحقيقة ، طــريق الأمــل الالهى ، الذى يحقق للانسان انسانيته وخلافته ، وتكررت المحاولات ، وأخيرا عزمت ان اكتب اليك .

وكنت قد ذكرتك يوما عند صديقى الاستاذ صالح أحمد صــالح المحامى ، فأخبرنى ان سيادتكم تشغل منصب وكيل وزارة الخزانة (كان

ذلك قبل احالتي للمعاش) وان جلساتكم في مصر الجديدة (انى أسكن مدينة الاوقاف) حافلة بالمريدين طلاب العلم والحقيقة ، فخشيت أن تكون هذه الصوفية استكمالا لزينة النفس أو استجماعا للثناء (أعجبتنى هذه الصراحة ، كما أعجبنى التدقيق في اختيار الرائد المتصوف) •

حتى طلع علينا مقالكم الاخير في عدد جمادى الأول ، فكان مكاشفة صريحة نابعة من قلب كبير متعلق بالآخرة ناظر الى مولاه (بينت في ذلك المقال ان درجات الدنيا وان علت لا تغنى عن درجات الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية) وكان هذا المقال ، ردا بليغا على كل حديث خفى ، ودعوة خالصة للراغبين الى المسير •

سئمت التردد ادبارا واقبالا وتعبت من توالى الهبوط والصعود ، وأخشى فوات الأوان ، اشارة منكم قد تهدينى الى طريق الحرية والسعادة والرضوان ، وقد تكون ايذانا للانطلاق في أسعد مسيرة الى أعظم هدف فما أتعس القاعدين • ان مثلك لا يمكن أن يضن على طالب أو يخيب رجاء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

اللهم اكتبنا في أولى الالباب ، الذين قلت في وصفهم (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) آمين يارب العالمين •

رقائق الصوفية فى التوحيد

— ٣٤ —

« باسم ربى احييك بالسلام سلام الروح الخالية من الخيال ، ومن الحيلة والأحوال ، الا من الله الواحد ذى الجلال ، سلام من عبدالسلام ، عبد يفخر ويزيد تيها وعلوا بانه عبد الله ، الواحد ، الأحد ، الفرد الصمد ، هنيئا له ، لأنه خلقه الله .

« أسألك يا رب حيث خلقتنى من عبيدك ، منتسبا اليك ، أن تجعلنى من فريق الجنة ، وما أطلبها الا لأنها مكان قربى منك ، ولا تجعلنى من فريق السعير ، لانها تبعدنى عنك ، وان كان قدرك قد سبق ، ولكنى أسألك اللطف فيه ، انت المسيطر ولك حضرة الاطلاق تفعل ما تشاء ، سبحانك لا اله غيرك ، ولا معبود سواك ، يا حى ، يا قيوم » .

هذه بداية رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، كرمه الله الى تلميذه الصالح التقى النقى الصديق السيد سالم جمعة ، زاده الله فضلا ونعمة ، وهى كما يرى القارىء العزيز سطور من نور ، دلت على توحيد الصوفية الخالص من الأكدار والاغبار ، ومن دعوى الحلول والاتحاد الذى ينسب للصوفية حسدا أو سوء فهم من خصوم التصوف ، وحاشا ان يتلوث توحيد السادة الصوفية ، وقد اعتصموا بالكتاب والسنة والجماعة ، وهم الذين نأخذ عنهم فى هذه المقالات ، أما غيرهم من الضالين المضلين ، فلا شأن لنا بهم ، مهما ادعوا انهم صوفية ، وهل ذهب صرف يساويه بهرج ؟ .

واليكم تفسير ما يقول سيدى الشيخ ، لا من كلامى ، وانما من كلام أئمة التصوف ، الذنن خلا توحيدهم من الشوائب والأوحال ، وصفا فلم يجعل المخلوق متصفا بصفات ذات الحق سبحانه وتعالى ، وأين العبد

من ربه ، وأين المخلوق من خالقه ، وأين الحادث من القديم ، وأين الفانى من الباقى الذى يبقى بعد فناء خلقه ، فها هو ذا سيدى الامام القشيرى — رضى الله عنه — يعلمنا كيف يكون توحيد المؤمن خالصا فيقول فى مناسبة شرحه لمعنى اسمه سبحانه الباقى الوارث :

« مما يجب أن تشتد به العناية أن يتحقق العبد أن المخلوق لايجوز أن يكون متصفا بصفات ذات الحق سبحانه ، فلا يجوز أن يكون بعلم الله عالما ، ولا يجوز أن يكون العبد بقدرة الله قادرا ، وأن يكون سميعا وبصيرا بسمعه وبصره تعالى ، ولا أن يكون حيا بحياته ولا باقيا ببقائه تعالى ، لأن الصفة القديمة لا يجوز قيامها بالذات الحادثة .

« وحفظ هذا الباب أصل التوحيد ، فان كثيرا ممن لا تحصيل له ولا تيقن ، زعموا أن العبد يصير باقيا ببقاء الحق ، وأن يكون سميعا بسمعه ، بصيرا ببصره ، حيا بحياته ، وهذا خروج عن الدين وانسلاخ عن الاسلام بالكلية .

« وهذه البدعة توازى قول الحلولية حيث جوزوا على ذات الحق سبحانه الحلول فى الأشخاص المحدثة ، كذلك هؤلاء جوزوا قيام الصفة القديمة بالذات المحدثة ، وربما تعلقوا فى نصرة هذه المقالة الشنيعة بما روى فى الخبر عن الله تعالى اذ قال : « فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا فبى يسمع وبى يبصر » .

« ولا احتجاج لهم فى ظاهره ، لأنه ليس فيه أنه يسمع بسمعى ويبصر ببصرى ، بل قال بى يسمع وبى يبصر .

« فالاتفاق ان ذاته لا يجوز أن تكون لأحد سمعا ولا بصرا ، فاذا تركوا الظاهر لم يبق الا التأويل .

« فالواجب الاشتغال بالتأويل الصحيح دون الباطل ، وانما حملنا على المبالغة فى شرح هذا الفصل ما رأينا من الواجب علينا فى نصرة الدين ونحن فى زمان يناظر فيه من ليس له تحقيق ولا تحصيل .

« قال النصراباذى رحمه الله تعالى : الحق باق ببقائه والعبد باق بابقائه .

« واما الوارث فهو الباقي بعد فناء الخلق ، يفني الأولين والآخرين من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين ثم يقول (لمن الملك اليوم) ويجيب نفسه بقوله (لله الواحد القهار) .

وفي مناسبة شرح اسمه تعالى : ذو الجلال والاكرام ، قال الامام القشيري رضي الله عنه :

« قيل الاجلال أن ترى مادونه بعين الاقلال ، وجلاله وكبرياؤه وعلوه وبهاؤه ، سبحانه ، كونه بالوصف الذي يحق له العز .

« أما الاكرام فقريب من معنى الانعام الا أنه أخص ، لأنه ينعم على من لا يقال أكرمه ، ولكن لا يكرم الا من يقال أنعم عليه .

« أما ترى كيف اكرم موسى عليه السلام ، حيث سلمته اليه أمه ، كيف رباه في حجر عدوه ، وكيف صرف عنه كيده ، أسلمته الى البحر ، متوكلة على الله بالغداة ، فرده اليها قبل الظهر .

« واذا سلمت اليه ولدها فرباه في حجر عدوه ، وصرف عنه كيده ، فمن سلم اليه قلبه ، حفظه ، كما في الخبر : القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، أي بين نعمتين من نعمه ، ترى أنه يضيعه ولا يحفظه حاشا لله .

أما في مناسبة شرحه لاسمه تعالى السلام فقد قال الامام القشيري رضي الله عنه :

« السلام اسم من اسمائه تعالى ورد به نص القرآن ، واختلفوا في معناه ، فمنهم من قال انه ذو السلام ، والسلام ، بمعنى السلامة ، كالرضاع بمعنى الرضاعة ، ومعناه يعود الى تنزه الرب سبحانه عن الآفات ، وتقدسه عن سمات المخلوقات ، وهو بمعنى القدوس .

« وقيل معناه ذو السلامة أي منه السلامة لعباده ، ولهذا قيل ان معنى السلام انه سلم المؤمنين من عذابه .

« وقيل انه السلام أي ذو السلام على أوليائه ، قال الله تعالى : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) .

« وإذا قلنا انه ذو السلام أى السلامة من الآفات كان من صفات ذاته ، وإذا قلنا ان المؤمنين يسلمون من عذابه كان من صفات فعله .

« ومن آداب من عرف انه السلام ، ان يسلم منه المؤمنون ، كما ورد فى الخبر عن سيد البشر صلوات الله عليه أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

وحكى عن بعضهم انه رأى انسانا يغتاب رجلا فقال هل غزوت العام الروم ؟ فقال لا ، قال وكيف تسلم منك الكفار ولا يسلم منك أخوك المسلم .

وفى مناسبة قوله تعالى (ليس كمثله شىء) قال الامام القشيرى رضى الله عنه :

« التشبيه يكون باحد شيئين ، اما بالكاف ، واما بالمثل ، فجمع بين حرفى التشبيه ، ونفى بهما عن نفسه التشبيه ، فكأنه قال ليس مثله شىء، وليس كهو شىء وهذا غاية نفى التشبيه .

« ولما كان المعبود سبحانه ، لا مثيل له ، حق للعابدين الا يذروا مقدورا فيه الا بذلوه ، ولا يغادروا ميسورا فى طلبه الا تحملوه ، فحق للدموع أن تتقطر على فوات قربته ، كما حق للقلوب أن تتعطر بنسيم محبته ، وكما حق للارواح أن تتفطر من خوف فرقته ، وانشدوا :

سهر العيون لغير وجهك باطل
ويكاؤهن لغير هجرك ضائع

وقال الامام كذلك فى ضعف الانسان :

« قال تعالى : (أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) .

وقال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) ذكره سبحانه وتعالى نفسه لئلا يعجب بحالته ، وجرده من كل فضيلة ، ولهذا قال المشايخ عرفهم مقدارهم لئلا يتعدوا أطوارهم .

وقال الله تعالى (والله أخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا) ثم قال تعالى (الرحمن • علم القرآن) ثم قال (وما بكم من نعمة فمن الله) •

جردك أولا وعراك ، ثم أخبرك بما عرفك من العلوم والفهوم وأعطاك، ثم ذكرك عظيم ما انعم به عليك وأولاك •

وفى مناسبة شرحه لاسمه تعالى الصمد ، قال الامام رضى الله عنه :

« بمعنى انه لا يطعم ، ومن علم ذلك علم انه يطعم ، قال تعالى(وهو يطعم ولا يطعم) فتتوجه رعايته عند مآربه اليه ويصدق توكله فى جميع حالاته عليه •

وفى مناسبة شرحه لاسمه تعالى الحى القيوم ، قال الامام رضى الله عنه :

« هما اسمان من أسمائه تعالى قال الله سبحانه (الله لا اله الا هو الحى القيوم) فأما الحى فهو الذى له حياة ، وأما القيوم فهو المبالغة من القائم بالأمور ، يقال فلان قائم بهذا الأمر وقيم وقيام ، وقيوم فى وصفه تعالى ، قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحى القيام ، ومعنى القيوم فى وصفه تعالى انه المدبر والمتولى لجميع الأمور التى تجرى فى العالم قال الله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) •

« واذا علم العبد انه سبحانه حى ، وعلم انه تعالى حى لا يموت وقديم لا يجوز عليه العدم ، صح توكله عليه ، ولهذا قال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) •

« فمن علم أنه سبحانه حى أبدا ، علم أن نفسه لابد من فنائها وهلاكها وان طالت مدة بقائها وملكها ، وقيل الموت جسر يوصل الحبيب الى الحبيب ، وانشدوا :

أنت تبقى والفناء لنا
فاذا أفنيتنا فكن

« ومن عرف انه القيوم بالأمور عاش براحة التفويض فلم يجعل فى قلبه للدنيا كبير قيمة ، واستراح من كد التدبير .

وقال الامام فى مناسبة اسمه تعالى الواحد الأحد ، هما اسمان من أسمائه تعالى ، قال سبحانه (والهكم اله واحد) وقال سبحانه (قل هو الله أحد) فأما الواحد فهو الذى لا قسم له ولا استثناء منه ، أما غيره فاذا وصف بانه واحد فعلى المجاز ، كما يقال دار واحدة ودرهم واحد ، واما الفصل بين الواحد والأحد فمن الناس من لم يفرق بينهما ، ومنهم من فرق فقال الواحد اسم لمفتتح العدد ، لأنه يقال واحد واثنان ، واحد اسم ينفى ما يذكر معه من العدد .

وتقول قد جاءنى واحد ، ولا يقال قد جاءنى أحد ، ويقال لم يأت أحد بمعنى انه لم يأت واحد ولا اثنان ولا ما فوقه ، وقيل الأحد انما يذكر فى وصفه تعالى على جهة التخصيص ، يقال هو الله أحد ولا يقال رجل أحد ، ويقال فى وصف غيره وحيد وواحد ، ولا يقال ذلك فى وصفه تعالى لعدم التوقيت ، وقال الجنيد رضى الله عنه : التوحيد افراد يقدم عن الحدث ، وقيل التوحيد أن تعلم ان كل ما يخطر ببالك مما ترتقى اليه كيفية ، أو تنتهى اليه كمية ، أو تنتمى اليه ماهية ، أو تليق بوصفه أينية فالله جل جلاله بخلافه .

ولا شك أن ما نقلته للقارىء الفاضل من تفسير الامام القشيرى رضى الله عنه للاسماء الحسنى التى وردت فى الفقرة الاولى من كلام سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، يزوده بمعلومات طريفة ، هى الدر بل أغلى والشهد بل أحلى ، لأنها صادرة عن قلوب تقية ، وسرائر نقية ، يعلمها الله ويلهمها ما شاء من كلماته التى لا تنفد ، ويشير اليها أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه فى الهامه الذى نقلناه عنه :

كل شىء ينتهى فى موته ... غير سر الله عندى ما نفد
لى خليل كلما أملته ... جاءنى الفيض اذا سح المدد
كلما قد زاغ قلبى قال لى ... يا معنى قل هو الله أحد

وقال أيضا الهاما لوقته :

فؤادى قد أبعدت عن مشهد الورى ... فطهر فى نجـواك من ظلمةالرجس
وقد شاهدت روحى جلالك وارتقت ... تجردت عن معنـاى فى عالمالحس
وأعـدمنى فى الحب علمى بقـدره ... فابس غرامى فيه يدرك عن قيس
تعشقت نور الله وهـو بصـيرتى ... وقد وضح البرهان من آيةالكرسى
وتوجت بالقـرآن نفسى عقيـدة ... أصون به نفسى عن الزيـغ والدس
وان شرب النـاس الطلا وتصببوا ... فسـنة خير الخلق فى شربها كأسى

أما الفقرة الثانية من كلام سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فيشير فيها الى أنه انتسب بالعبودية لله تعالى ، ويسأله سـؤال العبد لسيده ، والفقير للغنى عنه ، أن يجعله من فريق الجنة ، لانها مكان المقربين ، وليس قربهم قرب مكان ، بل قرب أنس ومحبة ، وصفوةونشوة باصطفاء من الله ورحمة ، ورضوان من الله أكبر ، واستعاذ رضى الله عنه من النار ، لانها مكان المبعدين المطرودين من رحمته ، المعـذبين بغضبه ، المحجوبين بسخطه ، اعاذنا الله منها بمنه وكرمه .

وإذا ذاق المؤمن العبودية لله ، قدس الربوبية ، واعطى لمولاه حقه من الهيبة والاجلال ، وخلت روحه من الخيال والحيلة والأحـوال ، أى كان خالص التوحيد ، منكسر القلب ، وكان الله عنده ، لأنه تعالى يقـول فى الحديث القدسى : (انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى) ، ألست تراه تعالى يقول لأهل بدر (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) تقربوا الى الله بالمسكنة ، ونظر الله تعالى الى قلوبهم المنكسرة ، فرضى عنهم ، وأيدهم بنصره ، فأنزل ملائكة قاتلت معهم ، حتى تمت لهم الغلبة على أعدائهم .

ويفسر العالم العارف الحجة سيدى الشيخ عبد الوهاب الشـعرانى رضى الله عنه ، الحديث القدسى المتقدم فيقول فى تفسير المنكسرة قلوبهم من أجلى أى الذين كسرت ارادتهم البشرية ، وأزيلت شـهواتهم الطبيعية ، واستؤنفت لهم ارادات ربانية ، فهم دائما تحت قهر ارادتى ، طوعا منهم ، لا يتجبر لقلبهم كسر أبدا حتى يلقونى ، ويقول سيدى الامام عبد القادر

الجيلانى رضى الله عنه ، انكسرت قلوبهم أى على الكشف منهم والشهود والا فهو تعالى عند كل عبد انكسر قلبه أم لم ينكسر .

ويستطرد الامام الشعرانى رضى الله عنه فيقول : فعليك يا أخى بالقناعة والاشتغال بالله تعالى ، عن نعيم الدارين ، فانه هو النعيم المطلوب للأكابر الباقى ، كما قال تعالى (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

ويحدثنا سيدى الامام الشعرانى رضى الله عنه ، عما وقع له فى صغره مع والده رضى الله عنه ، فقد قال له : ما ثم شىء أبرزه الله تعالى الى هذا الوجود الا وفيه حكمة بالغة ، وأمره يوما بالوقوف على حداد يقوم الرماح على النار ، قال فوقفت ، فقال لى ما رأيت ، فقلت ما رأيت شيئا ، فقال يا ولدى أما تنظر انه لا يعرض على النار الا للعوج ، وأما المستقيم فلا يعرضه على النار ، قال فاخذت من ذلك العبرة .

ويعلمنا سيدى الامام الشعرانى رضى الله عنه ، العبادة الخالصة لوجهه تعالى فيقول انه سمع شيخه سيدى عليا الخواص يقول : من اقبح الذنوب عند الله تعالى القيام بين يديه فى الاسحار بالتملق والخداع على نية انه تعالى يعطيه مقاما فوق ما هو فيه ، وقد قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) فذكر تعالى شيئا ، فشمل كل شىء من جميع المخلوقات ، حتى الارادة والهوى والشهوة ، فانها من خلقه تعالى بيقين ، فلا يريد ولا يهوى شيئا دون الله تعالى فيكون شركا .

ويقول سيدى الإمام الشعرانى كذلك : مما انعم الله به على ، عدم اشتغالى بالنعمة عن المنعم سبحانه وتعالى ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل ، فقل من لا تشغله النعمة عن المنعم ، والمعين لى على ذلك شهودى عدم ملكى لما خولنى الله تعالى فيه من الأطعمة والملابس ، انما أنا عبد آكل من مال سيدى ، واسكن فى داره .

ويقول أيضا ، رضى الله عنه : وفى كلام سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، احذر أن تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته ،فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال ، وافقرك وغيرك ،عقوبة

لك ، واعلم انك ان اشتغلت بطاعتـــه تعالى عن ذلك المال فهو موهبة من الله تعالى لك ، وليس هو من المال المذموم ، وتقل سـيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه ، عن سيدى أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه، أنه قال : كنت فى بدايتى أعبد الله تعالى أنا وصـاحب لى ، وأقـول غدا يفتح علينـا ، بعد غد يفتح علينا ، فمكثنا على ذلك الحال زمانا ونحن فى تعب عظيم •

فدخل علينا رجل مهيب المنظر ، فقلنا من أنت فقال عبـد الملك ، فعلمنا انه من أولياء الله تعالى ، فقلنا له ما حاجتك ، فقال جئت أنصحكما لله تعالى ، أن تعبدا الله تعالى لله تعالى ، ولا تقولا غدا يفتح علينا ، بعـد غد يفتح علينا •

قال فكشف لنا عن أمر كنا عنه غافلين ، فعبدنا الله لله ، ففتح علينـا فى ثانى يوم •

ويقول سيدى الشعرانى تعقيبا على الكلام المتقدم ، فعـلم ان من اتخذ عباداته وسائل لتحصيل غرض من الاغراض طالت عليه الطـريق ، وربما رجع من أثنائها ، كما هو حال غالب المريدين فى هذا الزمان •

ويذكرنى هذا الكلام المفيد ، بما قاله فى الهامه الفورى أسـتاذى الشيخ على عقل طيب الله ثراه :

لا تذكـر البـارى لقصـد ولاية
أو أن تـكون على السـما لا تنطفى
اذكـر لوجـه الله جـل جـلاله
من رام غيـر جنـابه لم يشرف
ليس التصـوف بالـكلام وانمـا
صدق الفعـال قرارة المتصـوف

اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين الذين أغنيتهم بك عن غيرك وقلت فيهم (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون) آمين •

— ٣٥ —

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، بحر الجود ، الذى شرب من شرعه قوم ، وقفوا على ساحل بحره الزاخر ، فلم يخوضوه خوف الغرق ، ولكنهم وقفوا للشرب منه عند الشرق ، فكل من عطش واشتد به العطش ، شرب من بحر الرسول فارتوى ، وكل من ارتوى أدرك بأثر الرى أنه ضعيف ذليل ، ولا يمكنه أن يشرب البحر — وهو الشرع — فيبوء بعجزه الى الله ، ويقف عند حده عاجزا أمام الله ، خاليا فى التوحيد من كل دليل عقلى أو نقلى ، متبرئا الى الله تعالى من نسبة العلم والدليل.

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها من القاهرة سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — نور الله ضريحه — الى تلميذه الصالح المبارك ، الصديق السيد سالم جمعة — زاده الله فضلا وتوفيقا — .

وقد فسر الشيخ — رضى الله عنه — بمقصوده من خوف الغرق فى آخر عبارته ، تفسيرا مجملا ، كما يرى القارىء العزيز ، وقد وجهنا فيه الى ما يجب علينا نحن المؤمنين ، من اجتناب البحث فى ذات الله العلية ، وأسراره القدسية ، التى لا تدركها العقول المحدودة ، لأنه تعالى فوق كل مقول ، والعجز عن الادراك ادراك — كما يقولون — ويبرر عجزنا عن ادراك كنهه — سبحانه — قوله الكريم : « ليس كمثله شىء » ، وبهذا نقدر لله فضله فى ايماننا به — جل جلاله — وفى توحيده توحيدا خالصا من الشوائب ، عطاء منه — سبحانه — فى سوابق أزله ، وما أبدع ما يقوله سيدنا أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى — وليس معنى ذلك انه ينفى أثر مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بل انه يبرز فى معرض التوحيد ، انه عرف ربه بتقديره

ـ سبحانه ـ فاستجاب للدعوة المحمدية ولولاما قدره الله له من الاسلام ما تم له اسلام ولا عرفان •• « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » فمن شاء الله له الهدى ، استمع لدعوتك ، واهتدى بهديك « وانك لتهدى الى صراط مستقيم » •

وقد اعتمد الفلاسفة فى البحث عن الحقيقة الأزلية ، على العقل المجرد فلم يصلوا الى الحقيقة ، وضلوا السبيل ، وقد جاراهم أهل الكلام ، فلم يظفروا بطائل ، وعكروا بكلامهم ، صفاء التوحيد الفطرى ، الخالى من التعقيدات العقلية ، الذى التزمه أوائل المسلمين وأعلامهم ، ممن يقتدى بهم على مر الأجيال ، واليك ما ينصحنا به الامام الصوفى الكبير ، عمرو بن عثمان المكى « المتوفى سنة ٢٩١ هـ » •

« اعلم ان كل ما توهمه قلبك أو سنح فى مجارى فكرك ، أو خطر لك فى معارضات قلبك ، من حسن أو بهاء ، أو أنس أو ضياء ، اوجمال او قبح ، او نور ، او شبح ، او شخص او خيال ، فالله تعالى بعيد من ذلك كله ، بل هو أعظم وأجل وأكبر ، ألا تسمع الى قوله تعالى « ليس كمثله شىء » والى قوله « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » •

ويقول الامام سهل التسترى (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) :

« ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض ، الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه ودنياه وآخرته ، ويقول أيضا « أدنى الأدب أن تقف عند الجهل وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة » •

وهو بهذا يوجهنا الى ترك الجدل الذى خاضه أهل الكلام فيما يتصل بذات الله أو قضائه وقدره ، ولا طائل تحته ، والاقبال على العمل ارضاء لله تعالى ، وفق ما رسمه الله فى كتابه الكريم ، وما بينه فى سنته مولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك يقول الامام سهل ـ رضى الله عنه ـ :

أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام والتوبة ، وأداء الحقوق •

وما أروع ما ينصحنا به رضى الله عنه فى قوله : أعمال البر يعملها البار والفاجر ، ولا يجتنب المعاصى الا صديق .. وفى قوله « شكر العلم العمل ، وشكر العمل زيادة العلم » .

وقد نقل سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ــ رضى الله عنه ــ كلاما نفيسا عن شيخه سيدى على الخواص .. جاء فيه :

« لولا اعلام الأنبياء لنا بما غاب عنا من أحوال البرزخ والآخرة ، ما علمنا ذلك ولا كانت عقولنا تستقل بدركه من حيث نظرها ، لأن أمور الموت وما بعده من وراء طور العقول ، وقد تتابعت الرسل كلهم على اختلاف الأحوال والأزمان يصدق كل رسول صاحبه ، وما اختلفوا قط فى الأصول التى استندوا اليها .

« ولو أن العقول استقلت بأمور سعادتها ، لكان وجود الرسل عبثا ، فان كل انسان يجهل بالضرورة مآله وعاقبته ، والى أين ينتقل ، ويجهل سبب سعادته ان سعد ، أو شقاوته ان شقى ، كل ذلك لجهله بعلم الله فيه ، وما يريده به ، ولماذا خلقه فهو مفتقر بالضرورة الى التعريف الالهى بذلك » .

أقول واذا كانت العقول تجهل أمر كثير من المخلوقات المحدثة التى تغيب عن الأنظار .. فكيف بها تطمع ، وهى محدودة الأفق ، أن تبحث فى أسرار الله القديم الذى خلقها وركبها بقدرته فى ذواتها ، وأقرب المخلوقات التى تغيب عن نظر الانسان الروح التى بين جنبيه ، وهى محدثة مخلوقة باجماع أهل السنة .. وقد قطع الله أطماع الباحثين فى سرها الخفى .. فقال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .. وهو ما يفيد أن الروح من عالم الأمر لا من عالم التوالد : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

ويقول سيدى العالم العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى) رضى الله عنهما ــ فى كتابه « وسائل الرحمات » .

« ومن الإشارات اللطيفة قول أبى بكر الرازى : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فليس بحديث كما ذكره الحفاظ ، وقد غلط فيه كثير من الأفاضل فاورده حديثا مرفوعا ولا أصل لذلك .

« وموضع الاشارة منه ، ما أشار اليه بعض الصوفية فيه ، اذ قال : معناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى ، ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعزة وهكذا .

وقال بعضهم : بل معناه ان من عرف انتساب نفسه الى حضرة الربوبية باشارة اتصالها بالعالم العلوى فقد عرف ربه ، ولأجل فخامة ذلك الانتساب نوه به رب العزة اذ قال « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » فأضاف الروح اليه تشريفا واشعارا بأن له شأنا ونسبه الى حضرته ، وقيل بأن معناه من تأمل حقيقتها عرف أن له ربا صانعا موجدا له ، واليه الاشارة بقوله « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام : قد ظهر لى من سر هذا الكلام ما يجب كشفه ، ويستحسن وصفه ، وهو أنه تعالى وضع هذه الروح الروحانية فى هذه الجثة الجسمانية ، لطيفة لاهوتية ، فى كثيفة ناسوتية ، دالة على وحدانيته وربانيته ، ووجه الدلالة من عشرة أوجه :

الأول : أن هذا الهيكل الانسانى ، لما كان مفتقرا الى مدبر ومحرك ، وهذه الروح مدبرة ومحركة ، علمنا أن هذا العالم لابد له من مدبر ومحرك .

الثانى : لما كان مدبر الجسد واحدا وهو الروح ، علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تقديره وتدبيره .

الثالث : لما كان هذا الجسد لا يتحرك الا بارادة الروح وتحريكها له ، علمنا أن الله تعالى مدبر لما هو كائن ، لا يتحرك متحرك بخير أو شر الا بتقديره وارادته .

الرابع : لما كان لا يتحرك فى الجسد شىء الا بعلم الروح وشعورها به ، فلا يخفى عليها من حركات البدن وسكناته شىء ، علمنا أنه لا يعزب عن علمه تعالى شىء فى الأرض ولا فى السماء .

الخامس : لما كان هذا الجسد لم يكن منه شيء أقرب الى الروح من شيء ، بل هو قريب الى كل شيء في الجسد ، علمنا أنه تعالى أقرب الى كل شيء ، وأن نسبة جميع العالم اليه في القرب والبعد سواء ، أي وان كان الروح في البدن والله تعالى ليس في العالم .

السادس : لما كان الروح موجودا قبل وجود الجسم ، علمنا انه تعالى موجود قبل كل شيء . وكذا بعد فناء خلقه فان الروح لا تزول .

السابع : لما كان الروح في الجسد لا تعلم له اينية ، علمنا انه تعالى منزه عن الأينية ، بل الروح موجودة في كل الجسد لم يخل منها موضع منه ، فكذا الحق تعالى أي معكم أينما كنتم بلا اتصال ولا حلول تعالى الله عن ذلك .

الثامن : لما كان الروح في الجسد لا يعلم له كيفية علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية .

التاسع : لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، علمنا أنه تعالى ليس كمثله شيء .

العاشر : لما كان الروح لا يحس ولا يمس ، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والمس .

ثم يقول سيدي الشيخ أحمد الحلواني ــ رضى الله عنه ــ وهل النفس والروح شيء واحد ، قيل نعم ، وعليه جرى الأكثرون ، وصححه ابن القيم والسيوطي ، وصوبه ابن رشد من المالكية ، وبه جزم ابن السبكي وغيره ، وعليه فهما مترادفان على معنى اللطيفة الربانية التي بمفارقتها يموت الانسان ، لا يتغايران الا في التذكير والتأنيث ، فالنفس مؤنثة وقد تذكر على ارادة الروح ، والروح مذكر وقد يؤنث على ارادة النفس ، ومنه قول ذي الرمة ، وقد أمر أن يكتب على قبره فكتبوه :

يارب قد أسرفت نفسي وقد علمت
علما يقينا لقد أحصيت آثاري
يا نازع الروح من جسمي اذا احتضرت
وفارج الكرب انقذني من النار

وما أبدع ما يقوله الامام القشيرى ـ رضى الله عنه ـ فى كتابه « شرح أسماء الله الحسنى » (مخطوط) وقد تفضل فأعارنيه أخى فى الله الأستاذ عبد المنعم الحلوانى ـ زاده الله فضلا ـ (وهو أكبر أبناء سيدى الشيخ) اذ يقول :

قال تعالى « أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » .

ذكرك عظيم ما أنعم به عليك وأولاك ، فمن أين لك العرفان والاسلام ، والايمان ، والطاعة والاحسان ، والاستدلال والبرهان ، لولا ما ألبسك من التوفيق ، وأخلص لك من التحقيق ، وأهلك له من التصديق قال سبحانه : « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها » .

وما أروع تعقيبه ـ رضى الله عنه ـ على كلمة التقوى : لا اله الا الله ، فهو يقول :

« اعلم أن هذا القول وان كان ابتداؤه النفى ، فالمراد به غاية الاثبات ونهاية التحقيق ، فان قول القائل لا أخ لى سواك ، ولا معين لى غيرك ، آكد من قوله : أنت أخى ، وأنت معينى .

« وروى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة ، وروى فى الخبر : مفتاح الجنة لا اله الا الله»

« وانما يكون العبد قائلا فى الحقيقة لا اله الا الله ، اذا كان قائلا بقلبه ، لأن الكلام المخلوق محله القلب ، وذلك معلوم من مذهب أهل الحق ، وكذلك من طريقة أهل اللغة ، قال الأخطل الشاعر :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

« وانما يكون قائلا لا اله الا الله بقلبه ، اذا كان عارفا بربه ، وكل الناس يحملون قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قال لا اله الا الله ، مخلصا ، على أنه مات على الاخلاص ، وأهل الاشارة قالوا اذا كان مخلصا فى مقالته ، كان داخلا فى الجنة فى حالته ، قال تعالى : « ولمن

خاف مقام ربه جنتان » .. قيل جنة معجلة وهي حلاوة الطاعات ، ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات ، وجنة مؤجلة هي فنون المثوبات ، وعلو الدرجات ، ولقد أحسن من قال : لا وحشة مع الله ، ولا راحة مع غير الله ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا راحة للمؤمن دون لقاء الله » .

ويقول سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ــ رضى الله عنه ــ فى كتابه « لطائف المنن » ما خلاصته ان معرفة الله الثابتة هى التى لا تزلزلها الأدلة .. ويعبر عن ذلك بالوصول الى حضرة الله ــ عز وجل ــ ومعنى ذلك وصول العبد الى حضرة يشهد فيها ألا فاعل الا الله عز وجل، ولا رازق الا الله تبارك وتعالى ، ولا محيى ولا مميت الا الله جل وعلا .. وهكذا ، ويغنى عن شهود الخلق والهوى ولا يشهد فى الكون الا أفعاله وخلقه وحده لا مشارك له فى ذلك ، فليس الوصول الى الله جل وعلا مثل الوصول الى خلقه ، كما قد يتوهمه أصحاب العقول الضعيفة المحجوبة « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

ثم يقول ــ رضى الله عنه ــ : فعلم أن كل من ادعى معرفة الله جل وعلا وزلزلته الأدلة ، فهو لم يشم من المعرفة رائحة ، لأن كل وقت يترك اعتقادا ويعتقد آخر ، والفرق بين معرفة أهل الله ، ومعرفة غيرهم أن جميع تعرفات أهل الله تعالى يرضى بها الله جل وعلا لأنها بتعريفه ، بخلاف تعرفات الأفكار ، لأن الأفكار لا تقدر أن ترقى عن الكون أبدا .. فافهم » .

أقول والذى أود أن أنبه اليه هو أن السادة الصوفية فى كلامهم المتقدم انما أرادوا أن يعلمونا انه لولا فضل الله ، وما بدأنا به من احسانه ما عرفناه ، فله الحمد والمنة على نعمة الايمان بوحدانيته ، وكلامهم هذا انما هو فى معرض التوحيد ، ولكنهم لا ينكرون الوسائط والأسباب ، وأخذ الخلف عن السلف ، فالسادة الصحابة أخذوا الدين عن مولانا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأخذ الأبناء عن آبائهم وعلمائهم جيلا بعد جيل ، فمن أراد الله أن يهديه شرح صدره للاسلام ، ونفع معه السبب ، ومن لم يرد الله له الاسلام ، لم ينفعه السبب ، وهذا يفسر لنا لماذا

آمن البعض وكفر البعض ، وليس لنا أن نخوض بجهل فى قضاء الله وقدره، فذلك من سره واختصاصه ، ونحن عبيد والله تعالى يفعل ما يريد .

وذلك الذى تقدم يجرنا الى أمرين : أولهما ألا نمن على الله بايماننا أو طاعاتنا ، لأنه لا ينتفع من ايماننا ولا من طاعاتنا بشيء « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

الثانى : أن نسأل الله على الدوام أن يحفظ ايماننا ولا يسلبه منا ، ولا يقول قائل ان الله كريم اذا أعطى لا يسلب ، فهذا حق اذا جزمنا أن الايمان عطية ، ولكن قد يكون وديعة وللمودع أن يسترد وديعته ،ويقول السادة الصوفية وهذا هو وجه الخوف المذيب للأكباد .

لكنى مع ذلك أحب أن يكون المؤمن حسن الظن بربه ، فيرجوه بقدر خوفه منه ، فيكون مع ربه بين خوف ورجاء ، لأن الخوف والرجاء للمؤمن كالجناحين للطائر لا يستطيع أن يطير الا بهما معا .

ولولا ذلك الفقه القلبى ، ما كان للسادة الصحابة المبشرين بالجنة أن يخافوا ، ولكننا رأيناهم أشد الأمة خوفا ، وأعظمهم رجاء .. وانما جاءهم الخوف من نظرهم الى أن الله تعالى له حضرة الاطلاق « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

وفى هذا بيان لصدر عبارة سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه في القوم الذين وقفوا على بحر الرسول الزاخر — صلى الله عليه وسلم — فلم يخوضوه خوف الغرق ، ولكنهم وقفوا للشرب منه عند الشرق .

ومعلوم أن مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشر وأنذر، فأخذنا عنه الرجاء كما أخذنا عنه الخوف ، وكان — صلى الله عليه وسلم — شديد الرجاء كما كان شديد الخوف ، وأنت تعجب لخوفه ، مع أنه كان معصوما بعصمة الله له من الصغائر والكبائر ، كما أن ربه بشره بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر — أى ان وقع منه ذنب فرضا — لكن خوفه كان على قدر معرفته بربه ، وصلته به ، وهيبته له ، وتقديره لجلاله

ـ سبحانه وتعالى ـ فكيف بنا ، مع أحوالنا المعروفة ، كما أن رجاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان على قدر معرفته بفضل ربه وواسع رحمته.

ويجمع شيخي وسيدى العارف الشيخ على عقل ـ رضى الله عنه ـ بين الخوف والرجاء ، في الهامه الفورى الذى نقلناه عنه فيقول :

يارب انت علمتنى
لم تخف منى خافية
سقمى يزيد وانما
آيات عفوك شافية

ويقول كذلك رضى الله عنه :

رضاء الفتى بالله يشرح صدره ... فلن يتأذى بالحوادث والخطب
اذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى ... اليه وما تثنى الذنوب عن الحب
فيارب ان زادت ذنوبى فاننى ... وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة ... فانك غفار الذنوب بلا ريب
وان كان لى مما فعلت جريمة ... فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى
وما لذتى الا التجائى لوجهكم ... فوجهكمو دون العوالم لى قطبى

ويحذرنا سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى ـ رضى الله عنه ـ من الخوف الموئس من رحمة الله فيقول :

قرأت ليلة من الليالى قل أعوذ برب الناس حتى ختمتها فقيل لى : شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ينسيك أفعالك الحسنة ، ويذكرك أفعالك السيئة ، ويقلل عندك ذات اليمين ، ويكثر عندك ذات الشمال ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله ، الى سوء الظن بالله ورسوله ، فاحذر هذا الباب .

وليتمتع القارىء الكريم بعد ذلك بما يقوله الامام القشيرى رضى الله عنه ـ في شرحه لاسمائه تعالى : الأول والآخر والظاهر والباطن اذ يقول :

« الأول اخبار عن قدمه ، والآخر اخبار عن استحالة عدمه ، والظاهر اخبار عن قدرته ، والباطن اخبار عن علمه وحكمته .

« وهو الأول باحسانه ، والآخر بغفرانه ، والظاهر بنعمته ، والباطن برحمته ، وقيل هو الأول بحسن تعريفه ، اذ لولاه ولولا فضله ، ولولا ما بدأك به من احسانه لما عرفته .

« وقيل الظاهر لقوم ، فلذلك وجدوه ، والباطن عن قوم ، فلذلك جحدوه ، وقيل الأول بوده لك بدئيا ، اذ لولا انه بدأك بسابق وده ، لما أخلصت له فى عقده وعهده .. فأين كنت حيث كان لك ، ومتى كانت رحمة أبيك وشفقة أمك وذويك ، وقد قسم لك الايمان ، ورضى لك الاسلام ، وسماك بالصلاح فقال عز من قائل « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » جاء فى التفسير انهم أمة سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — .

« آثرك فى سابق القدم وحكم لك بصدق القدم ، رباك بفنون النعم ، وعصمك عن سجود الصنم ، واختارك على جميع الأمم ورداك برداء الايمان ، وتلقاك بجميل الاحسان ، ورقاك الى درجة الرضوان ، وحرسك من الشرك والبدع ، وألقى فى قلبك حسن الرجاء والطمع ، وان لم يلبسك رداء الوفاء والورع فلم يؤنسك من لطفه بنهاية الفزع .

« وان الذى هداك فى الابتداء لهو الذى يكفيك فى الانتهاء . فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك متظاهرة ، والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة .

وأقول فى ختام المقال « ربنا اغفر لنا ولاخوتنا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رءوف رحيم » .

— ٣٦ —

« فاذا نوى الحج خلع كل نية أخرى ، وفسخ كل عقد عقده منذ خلق ، ما يكون غير نيته الحج الى الله ، والوقوف بين يديه خاليا من الشوائب ،

فاذا نزع لباسه ، تجرد من كل شيء فاذا تطهر زالت عنه كل علة .. فاذا لبى سمع بقلبه جواب التلبية ، فتلذذ بالنداء ، فاذا دخل الحرم ترك كل محرم ، فاذا أشرف على مكة أشرف عليه حال من الحق ، وعلامته البكاء ، لأن الملائكة تحفه ، فاذا دخل المسجد دخل في قرب من الله سبحانه وتعالى ، فخشع وطاف ورمل هاربا من الدنيا ، ورجع وسكر، وركع بعد أن صافح الحق بمصافحة الحجر ، كما ورد فى الأثر ، فظهر عليه الأثر ، ومن ظهر عليه الأثر نال الرضا .. واستشعر أنه تحت العجز عرف واغترف ، وترك أمره لله ، وصفا له الحال ، وافتقر من الدنيا مالا وعلما وعملا ، واغتنى بالمآل ، مآل الخادم عند مولاه ، يصيره كيف يشاء، ويضعه فى مكانه كما شاء أن يجعله من خدامه ، والله رءوف رحيم ، فمن عرف القوم ، وسار بسيرهم نجا ، وكان مع شدة الخوف كثير الرجا » .

جاءت تلك الكلمات الطيبة فى رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — طيب الله ثراه — لتلميذه الصالح الورع ، الصديق الوفى ، السيد سالم جمعة ، وهى تشع بأنوارها المشرقة ، فى مجال الحج وبركاته وآثاره .

والحج خامس ركن من أركان الاسلام ، وقد أكمل الله به الدين للمسلمين ، ونزل فى حجة الوداع على حبيبنا المصطفى — صلى الله عليه

وسلم ــ يوم الجمعة وفى موقف عرفه ، قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

والحج فريضة على المستطيع ، وقد فسرت السنة النبوية المطهرة الاستطاعة بالزاد والراحلة فى قوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » .

وكان ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ يقول : من مات ولم يزك ، ولم يحج ، سأل الرجعة الى الدنيا وكان يفسره فى هذه الآية .. « قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت » قال أحج ، ومثله « فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » قال أزكى واحج .. وكان رضى الله عنه يقول : هذه الآية أشد شىء على أهل التوحيد .

وسيدى الشيخ عبد السلام الحوانى ، رضى الله عنه ، يوجه تلميذه أول ما يوجهه الى تصحيح نية الحج ، من كل الشوائب ، ليخلص حجه لله، كما أراد ــ سبحانه ــ فى قوله الكريم :

« وأتموا الحج والعمرة لله » .. ولا شك أن تصحيح النية ، من اخلاص العبد لربه :

« ألا لله الدين الخالص » ويقول « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، ولهذا أمرنا الله أن نترك كل شائبة تشوب اخلاص القلوب فى الحج فقال تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » .

والرفث اسم جامع لكل لغو وفجور من الكلام .

والفسوق جمع فسق ، وهو اسم جامع لكل خروج من طاعة الله وتعدى حدوده تعالى .

والجدال .. وصف مبالغ للخصومة والأخذ والرد فيما يورث العداوة والبغضاء .

والحج فى اللغة معناه القصد الى المعظم ، وكانت العرب فى الجاهلية يقولون نحج الى النعمان أى نقصده تعظيما له وتعزيزا •

والحج أيضا معناه سلوك الطريق الواضح ، واشتقاقه من المحجة وهو اسم للطريق •

ويقول سيدى الامام أبو طالب المكى — رضى الله عنه — فى كتابه القيم قوت القلوب :

« وأول فضائل الحج ، حقيقة الاخلاص به لوجه الله تعالى وأن تكون النفقة حلالا ، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب ، وتفرق الهم ويكون الهم مجردا والقلب ساكنا مطمئنا مملوءا بالذكر ، فارغا من الهوى ، ناظرا أمامه ، غير ملتفت الى ورائه ، وصحة القصد بحسن الصدق ، ثم طيب النفس بالبذل والانفاق ، والتوسع فى النفقة والزاد ، لأن النفقة فى الحج بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى ، الدرهم بسبعمائة درهم ، والحج من سبيل الله ، روى ذلك عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم •

وكان ابن عمر — رضى الله عنهما — يقول : أفضل الحجاج أخلصهم نية ، وأزكاهم نفقة ، وأحسنهم يقينا ، وقال مجاهد لابن عمر — رضى الله عنهم — وقد دخلت القوافل : ما أكثر الحجاج فقال : ما أقلهم ، ولكن قل ما أكثر الراكب •

وأنت ترى من ذلك أن ابن عمر — رضى الله عنه — وعن سائر الصحابة — كان يقيس الحجاج بورعهم ، ويرى أهل الورع قلة فى الركب ، فاذا كان ذلك كذلك فى السلف الصالح ، فماذا نقول نحن اليوم ، اللهم اغفر لأولنا وآخرنا ، وعاملنا بفضلك ، ولا تعاملنا بعدلك •

وفى الحديث الشريف : « الحجاج والعمار وفد الله تعالى وزواره ، ان سألوه أعطاهم ، وان استغفروه غفر لهم ، وان دعوا استجيب لهم ، وان شفعوا شفعوا » وهذا ما يفسر لنا قوله تعالى « ليشهدوا منافع لهم » •

وحسن الظن بالله تعالى واجب على كل حاج مهما كانت ذنوبه قبل الحج ، لأن الحاج ضيف الله ، ولا أكرم من الله سبحانه وتعالى بضيفه ،

ومع أن الأرض كلها له سبحانه ، فقد جعل البيت محلا لضيافته ، وحاشا أن يقول ــ سبحانه ــ « ليشهدوا منافع لهم » ، ولا يشهدونها •

وقد كنت أقول لبعض من صحبني في الحج ، لا يجوز أن ننظر هنا الى سيئاتنا ، بل يجب أن ننظر الى احسان ربنا وفضله وفيضه « وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » •

وقد لقي رجل سيدي عبد الله بن المبارك ، رضي الله عنه ، وقد أفاض من عرفة الى مزدلفة •• فقال : من أعظم الناس جرما يا أبا عبد الرحمن في هذا الوقت فقال من قال ان الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء •

وقد روى الامام أبو طالب المكي ــ رضي الله عنه ــ عن سيدي على بن الموفق « يقال انه هو الذي يضاهي الخضر ــ عليه السلام ــ في أمتنا ويجاريه في العلم ، قال : حججت سنة فلما قضيت مناسكي تفكرت فيمن لا يتقبل حجه فقلت اللهم اني قد وهبت حجتي هذه وجعلت ثوابها لمن لا يتقبل حجه ، قال فرأيت هاتفا في النوم قال لي : يا على تتسخى على الله ، وهو خلق السخاء ، وخلق الأسخياء ، وهو أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأحق بالجود والكرم من العالمين ، وقد وهبت كل من لم يقبل حجه لمن قبلته •

ويقول الامام أبو طالب المكي أيضا : وكان ابن الموفق هذا قد حج عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حججا وقال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن الموفق حججت عني ، قلت نعم يا رسول الله، قال ولبيت عني ، قلت نعم ، قال فهذه يد لك عندي أكافئك بها يوم القيامة ، آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب •

هذا والاعتبار من أسرار الحج ، فما أكثر العبر وأقل الاعتبار ، كما قال امامنا على بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ــ ولذلك يقول السادة الصوفية :

« وليعتبر الحاج في طريقه وسيره بالآيات ، وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق ، فيكون له في كل شيء عبرة ، ومن كل شيء موعظة فانه على مثال طريق الآخرة .

« وليكن له بكل شيء تذكرة ، وفي كل شيء فطنة وتبصرة ، ترده الى الله تعالى ، وتدله عليه ، وتذكره به ، ويشهده منها فيتفكر في أمره ، ويستدل على حكمته ، ويشهد منه قدرته .

وهذا مما يفسر لنا توجيه سيدى الشيخ عبد السلام لتلميذه ، في عباراته التي صدرنا بها المقال ، فقد وجهه الى خلوص النية في الحج ، والاستبصار بشعائره ومناسكه ، لأن الحج تقديس لله تعالى ، في بيته الحرام ، دار ضيافته ، وساحة مغفرته ، يأتيه الناس شعثا غبرا من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويقول سيدى محيى الدين بن عربى بحق :

« ان عبادة الحج ، شبيهة بالناس في أحوالهم يوم القيامة شعثا غبرا ، متضرعين ، تاركين للزينة ، يرمون بالحجارة وكأنهم يرمون ذنوبهم عن كواهلهم ، لأنهم في عبادة لو علموا ما فيها من الخير لذهلت عقولهم ، وما ثم عبادة هي تعبد محض في أكثر أفعالها الا الحج » .

ويقول أيضا رضى الله عنه :

« .. وكما تتفاضل المنازل الروحية ، كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية ، وقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد. ثم يقول :

« والملائكة تعمر جميع الأرض وأعلاهن رتبة ، وأعظمهم علما ومعرفة ، عمرة المسجد الحرام ، وعلى قدر جلسائك يكون وجودك فأن لهمم الجلساء في قلب الجليس تأثيرا ، وهممهم على قدر مراتبهم ، وقد طاف بالبيت مائة الف نبى وأربعة وعشرون ألفا ، سوى الأولياء ، وما من نبى ولا ولى الا وقد ترك همته المتعلقة به ، لأنه البيت الذى اصطفاه الله على سائر البيوت » .

والبكاء الذى جعله سيدى الشيخ علامة على اشراف حال من الحق سبحانه وقع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقد ورد عنه فى كتاب قوت القلوب أنه وقف عند الحجر الأسود ثم قال : انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقبلك لما قبلتك .. ثم بكى حتى علا نشيجه ، فالتفت الى ورائه فاذا على - كرم الله وجهه - فقال يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات .. فقال على: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال وكيف .. قال ان الله عز وجل لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر ، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء .. ويشهد على الكافر بالجحود ، قيل فذلك معنى قول الناس عند الاستلام « اللهم ايمانا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك » . يعنون هذا الكتاب والعهد .

أما ما يقول به الشيخ من الافتقار من الدنيا مالا وعلما وعملا، فليس مقصوده أن يفتقر جيبه ، وأن ينبذ عمله ، وأن ينسى علمه ، بل المقصود أن تكون الدنيا فى يده مالا وعلما وعملا ولا تشغله بكل ذلك عن ربه .

ألست تراه تعالى يقول فى وصف عباده الصالحين : « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .. فهؤلاء كانت لهم تجارة ، وكان لهم بيع وشراء وأموال ، لكن محبة الله ملأت عليهم قلوبهم ، والسادة الصوفية يقولون أن الدنيا كالحية وليس الشأن أ نتقتل الحية ، انما الشأن أن نمسك بها وهى حية ، وعندى أن الدنيا نار تنتفع بها فى شؤونك العامة والخاصة وتحذر شررها حتى لا تحترق بحرها .

وأما غنى المآل ، الذى نوه به الشيخ - رضى الله عنه - فهو صدق العبودية مع الله تعالى ، صدق مذاق ، لا صدق عقيدة فحسب ، فاذاصدق المؤمن عقيدة ومذاقا فى عبوديته ، فوض أمره الى الله وسار الى اللهوأعرض عما سوى الله ، فكان ربانيا ، ممن سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى وشرفهم بالانتساب اليه حين عرفهم فقال :

« وعباد الرحمن .. الآيات التى ختم الله بها سورة الفرقان » .

وقد سئل الامام الحسن البصرى ، ما علامة الحج المبرور ؟ فقال أن يرجع العبد زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة ، وقالوا أيضا ان من علامة قبول الحج ترك ما كان عليه العبد من المعاصى ، والاستبدال بالأخوان البطالين اخوانا صالحين .. وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

وقالوا فى فضل مكة ، ان أعمال البر تضاعف بها ، والحسنة فيها بمائة ألف حسنة على مثال الصلاة فى المسجد الحرام .. روى معنى ذلك عن ابن عباس وأنس ـ رضى الله عنهم ـ وقالوا أيضا ان العبد يؤاخذ بالهمة فى مكة ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه : ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالارادة قبل العمل الا بمكة وقال أيضا : لو هم العبد أن يعمل سوء بمكة عاقبه الله تعالى ثم تلا « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » .

يعنى أنه علق العذاب على الارادة دون الفعل .

وكان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : لأن أذنب سبعين ذنبا بركية أحب الى من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة ، وركية منزلة بين مكة والطائف ، وقد أقام ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ بالطائف وجاور بها خوفا من حرمة مكة ، وقد تشرفت هذا العام بزيارة قبره هنالك ، جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا كثيرا بما ترك من علم زاخر .

وكان الورعون من السلف ، ومنهم عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز ، يضرب أحدهم فسطاطا فى الحرم وفسطاطا فى الحل ، فاذا أراد أن يصلى أو يعمل شيئا من الطاعات ، دخل فسطاط الحرم ليدرك فضل المسجد الحرام ، لأن المسجد الحرام عندهم فى جميع ما يذكر انما هو الحرم كله ، واذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوط خرج الى فسطاط الحل .

ومما من الله به على هذا العام أنى كنت أذكر المؤمنين بحرم مكة وأنصحهم أن يتجنبوا فيها الاساءة ، ويحرصوا كل الحرص على الاحسان والطاعة ، وكنت أجد منهم استجابة والحمد لله ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ومن فضل الله علينا أن موقف عرفه هذا العام كان فى يوم الجمعة ، وعرفه ، هى أهم أركان الحج ، ففى الحديث الشريف « الحج عرفة » .

وقد قال بعض السلف : اذا وافق يوم عرفه يوم جمعة غفر لكل أهل الموقف ، وهو أفضل يوم فى الدنيا ، وفيه حج مولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجة الوداع ، ولم يحج بعد نزول فرض الحج غيرها .

ولقد تذكرت فى الحرم قول المغفور له الشيخ عبد الله عفيفى وأسمعته لبعض احبابى فأعجبوا به كل الاعجاب :

يا خليلى بالصفا والمصلى ... ها هو الصبح فى البقاع تجلى
فانشد القلب فى الحمى أين حلا ... ضل عنى وما غوى حين ضلا
ودنا من حماك وتدلى

شفه الحب والحبيب فثارا ... وسرى الركب بالعشى فطارا
كان نورا وصار بالحب نارا ... نعم دار الحبيب يا قيس دارا
وبقاع الحبيب روضا وظلا

زمزم ورده وفيها هواه ... ومنى قصده وفيها مناه
وسنا البيت وحيه وهداه ... هذه دورهم وفيها جناه
قدست أربعا وجلت محلا

يا مراح البراق أنت راحى ... يا صلاح العباد أنت صلاحى
يا صباح الحياة طاب صباحى ... ومسائى على رباك الصباح
حين يجلى الكتاب فيك ويتلى

مهبط الوحى أنت مهبط قلبى ... عن امام الأنام فرعا وأصلا
وحمى الله أنت موطن حبى ... يا ديار الحبيب والدار تنبى
حدثينى عن النبى ونبى

وكذلك جئت الملتزم وتعلقت باستار الكعبة بعد الطواف لأدعو الله

تعالى ، فتذكرت قول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ــ رضى الله عنه ــ فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

انى عــلى أعتــابكم لم أرض غيــر الحب مشرب
حـــريتى رق لـــكم وهى المقــام وذاك أقرب
وأدلتى أنــى ضـــــعيف والضـعيف عليـك يحسب
قــالوا بأنــك لم تـــكن فيمــا تقــرره منسب
فأجبتهــم أنــا نســـبتى عبــد على الأبــواب أحسب

وكم كان لشيخى ــ رحمه الله ــ من روائع حين كان يتعرض للحجاز وهو ينشد ، فكم شدنا اليه ، فيما كان يتغنى به الهاما لوقته من عطاء ربه لأوليائه المتقين .. فمن ذلك قوله طيب الله مثواه :

سهام الهوى لم تثننى عن رحابكم ولو أننى منهــا على مركب صعب
وكيف أهاب الصعب أو أرهب السرى ومن نام لا يرقى الى مشهد القرب
وغفــلة قلب المــرء بعــد وحسرة فمــا نال عقبى ربه غافــل القلب
ونحن أولو عــلم ولــكن بوجدنا شربنــا من الأنوار ما ليس بالشرب
فكنا بفيض من الله خير أئمــة لنا نوره يهدى من الزيغ والعجب
ولمــا تدانينـــــا ولاحت دياره وقــد جذبتنا نحــوها أيما جــذب
هتفت بحبى دم لــربك وجده وأخرج جميع الــكائنات من القلب

وما أروع قول شيخى كذلك :

دع زمانا مضى وعــد بى لأرض شـــــغفتنى بنـــورها المتلالى
بــين بيــداء روعت ووهاد وذئاب تختــال فى اقبــال
ونجوم مثل الحباب على الكأس تسامت أو كالحــلى والــلآلى
قيــل ماذا تريد من هــذه الأرض أتبــغى البقــاء فى جمــع مــال
قلت والله غيــر احمــد مالى بعــد رب العبــاد من آمــال

يا حبيبى رضاك دنيا ودين فهما باتباعكم صحا لى
نفحتنى بنوركم نفحة الخير وقد طابت منكمو آصالى
انما أنت مصدر النور من ربى ومعنى الرضا وباب الوصال
كل جاه يزول فى روعة الموت ولكن خالقى أبقى لى
واكتحال العيون أيسر شيء واكتمال القلوب صعب المنال
هو ذكر ورغبة وشهود ووفاء للخالق الفعال

وما من شك أن الهجرة الى الحجاز ، مقر البيت الحرام ، ومزار النبى عليه الصلاة والسلام هجرة من الدنيا الى الآخرة .. وسعى لرؤية صورة مصغرة للمحشر يوم القيامة ، فكم ترى فى تلك الرحلة المباركة وتسمع من أجناس مختلفة ، ولغات متنوعة ، ودعوات متوالية ، واستغاثات ضارعة ، وتوبات صاعدة ، وعيون باكية ، وقلوب خاشعة ، وأكف الى السماء مرفوعة ، وجباه الى الأرض موضوعة ، ووجوه ضاحكة مستبشرة ، وألسنة بكتاب الله ناطقة ، وعيون الى الكعبة ناظرة ، وآلاف من الناس بها طائفة ، وأخرى راكعة ساجدة ، أما فى المسعى بين الصفا والمروة أو عند رمى الجمرات بمنى ، فقال ان الناس جراد منتشر ، وأما وقوفهم فى عرفات فكأنهم اجتمعوا ليوم الحساب ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود .

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، وآمن روعاتنا ، واستر عوراتنا ، يوم ينكشف المستور من أمرنا ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

اللهم انا نعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ، ونعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم ، ونعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحرم « ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » .
آمين ..

— ٣٧ —

« من تفكر في دينه سلك ، ومن حافظ على آداب الطريق في سيره الى الله ملك ، وكان في أفعاله كالملك .

سبحان من أدب النفوس ، وأرسل لها العروس ، وأنزل الكتاب كالطروس ، فكان طبيب النفوس ، كتاب أحكمت آياته ، ونطقت بيناته .
وكل انسان بنياته ، له هبة موهوبة ، وأمور في الدنيا مطلوبة ،فمن أسعده الله أعطاه ، ومن وفقه اليه أغناه .

اليك أرغب ، واياك أرهب . اللهم ألهمنى الصواب ، واجمع قلوب الأحباب على الباب » .

ذلك من بعض ما كتب شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، طيب الله مثواه ، لتلميذه الوفى الصديق الصالح السيد سالم جمعة ، مد الله في عمره ، وبارك له في عمله .

والعروس يستوى فيه المذكر والمؤنث وجمع الرجل عرس بضمتين مثل رسول ورسل ، ويقصد به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والطروس جمع طرس أى الصحيفة ويعلمنا سيدى الشيخ في هذه الكلمات الطيبة أمورا دينية ودنيوية هامة وينقلنا فيها من درجة الى درجة ، أخذا بمبدأ التدرج ، الذى هو سنة من سنن الكون والتكوين في النواحى الحسية والمعنوية .

واذا نظر الانسان الى تكوينه الجسدى والعقلى والروحى ، كمثل حى قريب منه ، رأى أنه تدرج في تكوينه الحسى والمعنوى شيئا فشيئا ، وكان لكل طور من أطواره ما يناسبه من جهد وثمرة .

ولو سأل نفسه فى سن التفكر والتمييز ، من خلقنى ولماذا خلقت ، وما مآلى بعد الموت لاستدل على أن له خالقا ، قادرا ذا حكمة ، ليس له شريك فى ملكه ، والحكمة تنفى عنه أن يخلق عبثا ، ولو ان حياةالانسان انتهت بحياتها فى الدنيا لكان ذلك عبثا ، وهو ما يستحيل فى حق الخالق سبحانه ، ولابد من رجعة اليه تعالى ، اما الى سعادة أبدية ، أو شقاء أبدى فى حياة أخرى تكون بعد البعث من الموت ولا انتهاء لها أبدا .

ولو أن الخالق سبحانه ، ترك العباد لأنفسهم يتفكرون ، لشق الأمر عليهم ، ولـكنه أراد برحمته أن يعاونهم ، وييسر لهم الاهتـداء اليه ، سبحانه ، فأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بالحجج البالغة ، والمعجزات الباهرة ، واقتضت حكمته العالية ، أن يكون هؤلاء الرسـل من صنف البشر ، لا من صنف آخر ، ليحصـل لهم الألفـة بالتجانس ، ويقرب التصديق لمن كتبت لهم السعادة الأبدية . والذى يخلق العباد من عدم ، لا يكون محتاجا اليهم ، ولا الى تصديقهم بربوبيته ، ولا الى طاعتهم لأوامره ، كما لا يضره تكذيبهم بربوبيته ، أو عصيانهم لنواهيه ، وانمـا العباد هم المحتاجون ، الذين ينتفعون من الطاعات ، ويضارون بالمعاصى ، أفرادا وجماعات ، وحكاما ومحكومين ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وقد مهدت الرسالات السابقة لظهور أعظم الرسالات شأنا فى الناس كافة ، وهى الرسالة المحمدية التى كانت مسك الختام فهدى الله بهـا من العمى ، وانقذ بها من الردى .

وكان كل رسول من الرسل الأمناء يرسل الى قومه خاصة ، وأرسل الله تعالى مولانا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاقوام كافة ، فكانت أعم رسالة عرفتها البشرية ، كمـا كانت أسرعهـا ظهورا وأبقاها وأنماها ، على مر السنين وتعاقب الأجيال ، فكان عدد المسلمين بعد انتقاله صلوات الله وسلامه عليـه وعلى آله الى الرفيق الأعلى أضعاف أضعاف ، من أسلموا فى زمانه ، وبذلك صار صلى الله عليه وآله وسلم أكثر النبيين تبعا يوم القيامة .

وذلك لا يكون الا بسر من أسرار الله العليا ، آتاه الله حبيبه الأصفى ومصطفاه الأسمى ، ليتم له شرف خطابه الأعلى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فكان صلى الله عليه وسلم بذلك عروس المملكة ، التى خلقها الله، وشاء لها أن تكون ، ولله ملك السموات والأرض فرحم الله به كل العالمين، والعالمون هم كل ما سوى الله عز وجل، ودخل فى العالمين اذن الأنس والجن والملائكة والأنبياء والمرسلون ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (ان فضله كان عليك كبيرا) .

ويشير الى ذلك سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى) رضى الله عنهما فى قصيدته المسماة المستجيرة فيقول :

وعروس مملكة المهيمن أنت ياطه وأنت بجمعها الفرد العلم
أو لست أنت الأصل فى فيضان ما عم الأنام من المكارم والنعم
أو ليس من سطعات نورك أشرق البدران والداران يا نور الظلم
طب اذا الحسنات أعضل كسرها صححتها للمذنبين فلا سقم
تهب الجزيل لمن أتى يبغى الندى تحمى النزيل اذا بحضرتك اعتصم

وقد جاء حبيبنا المصطفى ، صلوات الله عليه وآله ، بمعجزة القرآن الكريم ، الذى أحكمت آياته ، ونطقت بيناته ، كما يقول سيدى الشيخ عبد السلام ، رضى الله عنه ، فكان فيه طب النفوس ، فعالجها به صلوات الله وسلامه عليه ، من أدوائها ، حتى رشدت بعد غى ، وحييت بعد موت ، فآمنت بعد كفر ، وشكرت بعد جحود .

وقد جاء القرآن المجيد مجملا ، ففصل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ما أجمله من عظات وأحكام ، وكان أمين الله فى ابلاغه ، كما كان أمينه فى تفصيله وبيانه ، ومن ثم ألزم الله تعالى المؤمنين باتباع رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم وجعل اتباعه ، دليلا على حبه سبحانه فى قوله الكريم (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) وجعل طاعته طاعة لله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وبيعته بيعة له (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) .

وكما كان اتباعه صلى الله عليه وسلم دليلا على محبة العبد لربه ،فانه كذلك مجلبة لاسمى غاية ، وأشهى نهـاية ، وهى محبة الله لعبده ، وهى الأفق الأعلى ، الذى تتعطر عنده أرواح المؤمنين المخلصين بنسيم المحبـة الالهية ، وثمرتها مغرية للغاية ، فهى مفضـية لا محالة بالمغفـرة والرحمة والرضوان ، ومن أصدق من الله حديثا •

ولا تعجب بعد ذلك مما يقوله سيدى الشيخ فى مطلع كلامه : من تفكر فى دينه سلك ، ومن حافظ على آداب الطريق فى سيره الى الله ملك، وكان فى أفعاله كالملك •

فالملائكة مخلوقات نورانية ، لا تعوقهم عن طاعة الله شهوات فانية ، ولذات زائلة ، يعمرون أوقاتهم بذكر الله تعالى (يسـبحون الليل والنهار لا يفترون) (يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون) فهم عـلى الدوام محفوفون بالتجليات ، مغمورون بالرحمات •

وقد بين القرآن الكريم ، سلوك الجيل الأول فى هذه الأمة ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، فوصفهم فى دينهم ودنياهم أروع وصف ، وشهد لهم ربهم ، بنظافة ظواهرهم وبواطنهم ، بما لا مطمع لأحد فى المزيد عليه، لا بل وفى بلوغ حده الا ما شاء الله •

فانظر ، رعاك الله ، فى قول الله تعالى مثلا فى وصف سادتنا الصحابة رضوان الله عليهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الـكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) فكشف عن عبادتهم الظاهرة ، وعن نيـاتهم الخفية السامية (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) والى قوله تعالى(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فهى عبادة خلت من النفاق ، والغرض الدنيوى ، حلقوا فيها بأرواحهم الصـافية الى الملأ الأعلا ، الذى هبطت فيه ، والذى اليه تعود ، عند انتهاء الأجل ، حين تسمع لذيذ خطابه الكريم (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) •

ولا يظن ظان أن هناك مسافة يطويها العبد في سلوكه الى مرضاة ربه ، وانما المقصود بالسلوك ، مجاهدة النفس التي تحجبه بشهواتها عن مذاقات المعرفة ، وبالمجاهدة والمثابرة،والمصابرة ، يزول الحجاب،وينكشف الغطاء ، فيرى العبد بعين بصيرته ، أكثر مما يراه بعين بصره ، لأن عين البصر محدودة ، لا ترى الا المحسوسات ، وعين البصيرة ، مطلقة ، فيما شاء لها أن تكشفه ، من أمور الملك أو الملكوت ، بقدرة الحى الذى لايموت والذى قال (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) كما قال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير)

وقد يقول قائل هذه الآيات في حق الرسل صلوات الله عليهم ، وليست للمؤمنين فأقول : ان الله يكرم بالمرسلين تابعيهم بصدق ، ويؤيدهم بحق ، ليجعلهم منارات لاجيالهم ، يهتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، (قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني،وسبحان الله وما أنا من المشركين) فكما يكون للرسل عليهم الصلاة والسلام معجزات خارقات ، يكون لأولياء الله آيات بينات والله يؤيد بنصره من يشاء .

ومن هنا وجب أن يسترشد للسالك الى الله بمرشد من أهل البصيرة يكون عاملا بالكتاب والسنة ، وملازما للجماعة ، ويعتبره نائبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يربى السالكين في جنب الله ، حسبة لوجه الله ، وابتغاء مرضاة الله ، لا يسأل الناس على هدايتهم أجرا ،وقدأثبت الله لعباده الذين شرفهم بالانتساب اليه في قوله الكريم (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا .. الخ) دعاءهم بأن يهيئهم ليكونوا أئمة لأهل التقوى فقال تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) وانما سألوه ذلك ليكونوا من خدام دعوة الحق ، وهو شرف اعتز به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم .

فكما أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول رب العالمين ، فالأولياء نوابه وجنوده في حياته الشريفة وبعد وفاته ، يعلمون المؤمنين أقواله

وأفعاله وأحواله الشريفة وقد من الله على أمته فى كل جيل من أجيالها ، حتى بقيت كلمة الله ثابتة فى الأرض ، وان تعرض الناس للفتن ، ورمتهم الأيام بالمحن (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيــا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وكل ذلك من بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « أنا حظكم من الأنبياء وأنتم حظى من الأمم » فما أعظم حظ الأمة المحمدية « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئكهم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) •

ومن عجب أن يخاف بعض الناس من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه بما حباه الله تعالى به ، ويظن أن ذلك يجر الى الشرك بالله، ولست أدرى كيف يؤدى التعظيم للشرك ، ونحن نشهد بالألســنة ونقر بالقلوب أنه عبد الله ورسوله فى كل تشهد وفى كل أذان ، كما أننا مؤمنون بالقرآن الكريم الذى يدعو الى التوحيد الخالص ويصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه عبد من البشر يوحى اليه •

وانما عظم مولانا رسول الله صلى الله عليه وســلم بعظم الله الذى أرسله الينا والى الناس كافة ، وبعظم الأمانة التى عهــد بها اليه ، فأداها أحسن أداء وهى تقوم على أساس أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولا وجه للخوف من الشرك أو تخويف الناس منه ، فاننــا نعظم بيت الله الحرام ولا نشركه بالله ، ونظم آباءنا وأمهاتنا ومشايخنا ولا نشركهم بالله ، والشرك حده بعيد ، حمى الله منــه المؤمنين بالــكتاب والسنة والجماعة والحمد لله على ذلك •

أما ان كان الخوف والتخويف من التوسل به صلى الله عليه وســلم الى ربه ، فــذلك التوســل انما هــو أخذ بالأسباب التى أقامها المسبب سبحانه ، فالرسالة جاءتنا على يده صلوات الله عليه ، واهتدينا على يديه ، فكان الرحمة المهداة لنا من الرحمن الرحيم ، وهو بابنا الى الله تعالى، تجرى نعمة الله الظاهرة والباطنة لنا على يديه ، وذلك تقدير العزيز العليم ،والمنعم

سبحانه هو الواحد الأحد ، ليس له شريك فى تقديره أو عطائه لأن معرض السبب غير معرض التوحيد (كما بينا ذلك فى مقالة سـابقة) فحين قال تعالى فى معرض التوحيد (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهـدى من يشاء) قال فى معرض السبب (وانك لتهدى الى صراط مسـتقيم) وفى معرض الجمع بين السبب والمسبب قال تعالى (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) فاذا وضـع المؤمن ذلك نصب عينيه أراح واستراح ، فالمنعم هو الله ، وجاءت نعمه لسيدى زيد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم على يديه وأعتـق على يديه وتزوج على يديه صلى الله عليه وآله .

والموت الذى كتبه الله على عباده انما هو نقلة من هذه الحياة الدنيا الى حياة البرزخ القائم بين الدنيا والآخرة ، وقد صرح القرآن الـكريم بحياة الشهداء فى البرزخ فى قوله الكريم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهـم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين)

اذا كان ذلك كذلك فكيف بحياة سادتنا الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وكيف بحياة سيدهم وأميرهم صلوات الله وسلامه عليـه وآله ، واذا كان أثره الشريف قد انقطع بموته فلماذا حرص أفقه الأمة ، وأعظمهم توحيدا ، على جواره فى قبره ، فكان أول من سعد بهذا الجوار ، الصديق الأكبر ، والعلم الأشهر ، مولانا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لحق بهما الفاروق ، الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، مولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد آثرته سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالمكان الذى كانت تود أن تدفن فيه ، وكان مولانا السبط الحسن بن على كذلك يود لو سعد بدفنه الى جوار جده المصطفى صـلى الله عليه وسـلم لولا أن عارض فى دفنه الأمويون فدفن بالبقيـع الى جوار والدته سـيدتنا الزهراء رضى الله عنها .

كما أنه حين جاء مولانا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، بكل ماملكت يداه من المال الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال له ماتركت لأهلك ، قال تركت لهم الله ورسوله ، وهو يعلم علم اليقين ان الله تعالى هو الرازق وحده ، ولكنه لم يشأ أن يحرم أهله من أن تصاحبهم بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعله الله رحمة للاولين والآخرين ، والفقير اذا وقف بباب الغنى ، فهو لا يعتقد فيه الألوهية ، وانما يتعرض لأن يرزقه الله على يدى ذلك الغنى الذى وسع الله عليه ، وأوصاه خيرا بالفقراء وجعله أداة من أدوات عطائه ، والسعيد من الأغنياء من أعطى ، والشقى من قال ، أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، لأن الله تعالى انما يطعم الفقراء من يد الأغنياء ، وجعل ذلك بابا من أبواب الابتلاء .

ثم انه سبحانه أمرنا بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم ، ولعجزنا عن الصلاة والتسليم عليه بأنفسنا ، سألنا الله تعالى أن يصلى عليه ويسلم كما يحب ويرضى ، فلماذا كلف الله المؤمنين بالصلاة عليه ، ما كان ذلك الا ليربط قلوبهم بقلبه الكبير فيستمدوا منه نورا تقوى به محبتهم له ، فيتخلقون بأخلاقه فيحبهم الله ويدخلهم فى رحمته ، ومعلوم أن المصلى عليه يقول اللهم صلى على سيدنا محمد ، فهو ناطق بذكر الله فى قوله اللهم فصارت الصلاة عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ذات طرفين ، يذكر فيها رب العالمين سبحانه ، ويذكر فيها رسوله الكريم ، الذى تفتح على يديه أبواب رحمة الله .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه فى كتاب مفتاح الفلاح ، (ولعل سر مشروعية الصلاة على الأنبياء ، أن روح الانسان ضعيفة لا تستقر لقبول الأنوار الالهية ، فاذا استحكمت العلاقة بين روحه وروح الأنبياء بالصلاة فالأنوار الفائضة من عالم الغيب على أرواح الأنبياء تنعكس على أرواح المصلين عليهم .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الاحياء ، فى باب ما ينبغى أن يحضر فى القلب عند كل ركن من الصلاة ما نصه : وأحضر فى قلبك النبى صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل السلام عليك

أيها النبى الخ .. ويقول العلامة الشهاب بن حجر المكى شيخ الشهاب الخفاجى فى شرح العباب فى بيان كلمات التشهد ما نصه :

وخوطب صلى الله عليه وسلم كأنه اشارة الى أنه تعالى يكشف له عن المصلين فى أمته حتى يكون كالحاضر معهم ، ليشهد لهم بأفضل أعمالهم، وليكون تذكر حضوره سببا لمزيد الخشوع .

وليس يغيب عن السادة القراء الأفاضل ، أن الله تعالى ، أدام حرمته صلى الله عليه وسلم ، بتحريم أزواجه على المؤمنين من بعده فحرمته فينا قائمة على الدوام ، وقد حرص السلف الصالح من فقهاء الأمة على رعاية هذه الحرمة ، فراعوا الآداب بجوار قبره الشريف ، من خفض الصوت عند السلام عليه ، وعند المناقشة فى دروس العلم ، واستقبلوا وجهه الشريف عند الدعاء ، وحرص الامام مالك ، ومنزلته الفقهية فى المسلمين معروفة ، وهو من تابعى التابعين ، على ألا يطأ بنعله أو دابته أرض المدينة المنورة ، لأنها تضم جدث النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن عمر من قبله يتتبع مواطىء قدمه صلى الله عليه وسلم حيث مشى ، تبركا بها، كما كان رضى الله عنه ـ على ما رواه الامام مالك بسنده فى الموطأ ، اذا أراد سفرا أو قدم من سفر جاء قبر النبى صلى الله عليه وسلم فصلى عليه ودعا ثم انصرف ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقترعون على الشعرة الواحدة من شعراته صلى الله عليه وسلم ويرى الواحد منهم انه لو كانت عنده شعرة واحدة منه كانت خيرا من الدنيا وما فيها ، وكفن رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة فاطمة بنت أسد (أم الامام على كرم الله وجهه) فى قميصه وقال انما ألبستها قميصى لتكسى من حلل الجنة ، واضطجع معها فى قبرها وقال (انما اضطجعت معها ليهون عليها) أى الحساب وقد دعا لها فقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبرانى وغيره : « اللهم ارحم أمى فاطمة بنت أسد ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى » وحياته صلى الله عليه وسلم خير لنا ، ومماته كذلك خير لنا ، فخيره لا مقطوع ولا ممنوع بفضل الله عليه وعلينا (وللآخرة خير لك من الأولى) وله سبحانه الثناء الحسن الجميل .

والذائق لا يحتاج الى أدلة وبراهين ، فالعيان يغنى عن البرهان ، وما يعقل ذلك الا العالمون ، أما المتعالمون ، فنسأل الله أن يهديهم الى سواء السبيل ، ولا يكفروا المتوسلين ، وفيهم أعلام الدين ، وأئمة المتقين ،وكيف لا تتوسل الى الله ، بمن جعل الله الشهادة برسالته ، ركنا من أركان التوحيد ، نعوذ بالله أن نكون ممن يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، فالشهادتان انما وصلتا ليكون المؤمن متصلا برسوله الكريم الذى هداه الى الله تعالى ، والأسباب قامت بأمر مسببها سبحانه ، فاذا قلنا ان الأرض أنبتت الزرع ، فانما نذكر سبب الانبات ، ونشهد ربنا الذى أقامها تنبت، وكذلك اذا قلنا أحيا الماء الزرع قصدنا به أنه سبب الاحياء على سبيل المجاز وشهدنا أن الله تعالى هو المحيى فى الحقيقة ، وعقيدة المؤمنين فى التوحيد راسخة بحمد الله ولا محل للتشكيك فيها .

واستمع بعد ذلك الى بعض الروائع التى جاد بها الهام سيدى العارف بالله الشيخ احمد ابو الوفا الشرقاوى (المتوفى ١٩٦١) طيب الله ثراه فى قصيدته المسماة ، لمعة الاسرار فى مدح الحبيب المختار ، والتى تفضل فشرح معانيها مولانا المفتى الأكبر الاسبق الشيخ حسنين محمد مخلوف ، مد الله فى عمره وزاده فضلا وهى طويلة جدا ، وتزداد حلاوة كلما تكررت تلاوتها ، وقد تخيرت منها قطرات عطرة قال فيها رضى الله عنه :

ومذهبى أنه يسمو ويعظم أن ... يبدى لسانى فى أوصافه قولا
وكيف يوصف والأكوان قاطبة ... فى ظل أعتابه تستمطر الفضلا
يحن قلبى الى مغناه حيث سنا ... خضرائه يشمل الأملاك والرسلا
تفديه نفسى من مغنى يتيه على ... العرش العظيم بمن فى حيه حلا
فانه مربع قد خص طيبه ... بنور جثمان من يعلو ولا يعلى
فيا فؤادى ذب شوقا اليه ويا ... انسان عينى تصبب فى الهوى سيلا
هناك يامقلتى حيث الحبيب غدت ... تسدى المواهب من ساحاته فضلا
حيث الملائك تستجدى لطائفه ... والأنبياء ترجى سحبه هطلا
كم رفرفت فى سناء أنوار قبته ... أرواح أمته يبغونها طولا
تغدو خماصا فتمسى وهى رائحة ... منها بطانا بما تحبى العطا جزلا

فلا حجاب غدا من دون حضرته ولا يرى مبتغى أبوابه قفلا
لكن النفس من أهوائها حجبا تغشى القلوب فتغدو للحجا كبلا
فاقطع علائقها وارحل بروحك عن آثار ظلمتها واحذر لها هولا
وخلها وتيمم بالفؤاد لمن كل الكمال له رب الورى أولى
هناك تظهر أنوار الحبيب ولم تطو المطايا له صخرا ولا رملا
له الجمال الذى لما سما قدما أحبه الله سبحان الذى جلا
فانه قد سرى فى الليل من حرم وحضرة القرب قد صارت له حلا
لكى يفوق على كل السوى شرفا بالجسم والروح تخصيصا له قبلا
كأننى بجميع الكون اصبح فى لهف اذا الروح من احشائه سلا
لكن الطاف ربى للورى سبقت فرده كرما للكون اذ دلى
وكل أطواره تبدى لأمته أنوار بارئها الاقوال والفعلا
فذاته حضرة لله جامعة وما سوى روحه للمبتغى وسلا
انى بسطت يد الآمال مفتقرا فلا تجبنى يا رحب القرى أن لا
فانتى فى عهود الحب من قدم أبو الوفا أحمد الشرقاوى لاأسلى
لاعلم يا سيدى أرجو ولا عملا سوى محبتكم أنعم بها شغلا
جعلتها نسبى فيكم أروم به منك الدنو وان ادعى لكم شبلا

ويؤخذ من شرح فضيلة المفتى الأكبر الأسبق لبعض الأبيات المتقدمة، أن العلماء أجمعوا على أن البقعة التى تضم الأعضاء الشريفة أفضل بقاع الأرض حتى موضع الكعبة المشرفة ، وقيل :

جزم الجميع بأن خير الأرض ما
قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
كالنفس حين زكت زكى مأواها

بل هى ، كما ذكره السيد السمهودى نقلا عن التاج السبكى عن ابن عقيل الحنبلى ، أفضل من العرش ، لاحتوائها على جسد أشرف الخلق الذى تتنزل الرحمات والبركات غير المتناهية عليه صلى الله عليه وسلم فى قبره .

وكذلك قال فضيلة المفتى الأكبر ، وقد ثبت فى الصحيحين فى حديث الاسراء اجتماعه صلى الله عليه وسلم بأرواح الأنبياء وبالملائكة ، وأنه تعالى جمعهم تلك الليلة فى بيت المقدس تكريما لنبيه ، وأمرهم أن يؤمهم فى الصلاة ، اظهارا لتفضيله وامامته ، كما ثبت اجتماع بعضهم به فى عروجه فى تلك الليلة الى السماء واحتفاؤهم به ، وثناؤهم عليه صلى الله عليه وسلم .

وثبت أيضا تفضيله عليهم ، بما رواه ابن جرير وابن كثير عن على كرم الله وجهه قال : لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد فى محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويأخذ العهد بذلك على قومه ، وهو مروى أيضا عن ابن عباس موقوفا ولكن له حكم الرفع ، لأنه مما لا مجال للرأى فيه .

يقول المفتى الأكبر : فاعلم ذلك ولا تكن من الغافلين .

ويستطرد فضيلته قائلا : وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ان الله تعالى فضل محمدا صلى الله عليه وسلم على أهل السموات وعلى الأنبياء عليهم السلام ، قالوا فما فضله على أهل السماء ، قال ان الله تعالى قال لأهل السموات « ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم) وقال لمحمد (انا فتحنا لك فتحا مبينا) قالوا فما فضله على الأنبياء ، قال ان الله تعالى قال (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم)وقال لمحمد (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) .

هذا وان الله تعالى قد جعل المؤمنين وسيلة يرحم بعضهم ببعض فى صلاة الجنازة التى فرضها عليهم فرض كفاية ان لم يؤدها البعض أثم الجميع ، مع انه غفور بذاته ورحيم بذاته ، لكنه أقامها أسبابا يتخذها المؤمن ، وهو يشهد ربه ، وجعل الأبناء وسيلة لرحمة آبائهم وأمهاتهم ، فأمرهم بالدعاء لهم (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) ونحن ندفع الجوع بالطعام والظمأ بالماء ، ونشهد ربنا الذى هو يطعمنا ويسقينا ، فكيف يحمل التوسل على الشرك بالله ، وهو من باب اتخاذ الأسباب ، وكيف يشبه المعترضون المتوسلين بعبدة الأصنام ، والأصنام احجارلاتضر

ولا تنفع ، وأين عبادة الأصنام واتخاذها آلهة من حب من أحبهم الله ، فهو حب فى الله ، وبالله ولم يرد أن الله أحب الأصنام حتى يكون لهم عذر فى حبها ثم فى التبرك بها ، فيا بعد ما بين القياسين ، وقد أخبرنا سبحانه ان حملة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، وأعلمنا ما كان غائبا عنا من استغفارهم وهو وسيلة أرادها الله (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

لقد ذكر الله فى كتابه الكريم الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ، وأثنى عليهم ، فخلدهم فى الخالدين من عباده وجعل أسماءهم وأوصافهم تتلى فى المحاريب ، وجعل قصصهم عبرة لأولى الألباب ، وأوصافهم مثلا عليا يحتذيها أهل الرشاد والاسعاد ، وللثقة فى محبة الله لهم ، ورضائه عنهم ، سأل الأنبياء والمرسلون ربهم أن يلحقهم بالصالحين ممن سبقوهم وهذه غبطة بما نالوه من فيضه واحسانه فى جواره الكريم، فهل كان فى سؤالهم هذا اشراك بالله ؟ ، حاشا وكلا .

ثم انه تعالى أمرنا نحن المؤمنين أن نكون مع الصادقين من عباده ، ولم ير فى ذلك عبادة أو شركا بل رآه سببا معينا لنا على طاعته ، فهم وسيلتنا اليه فى الدنيا والآخرة ، وهم حجتنا فيما بيننا وبينه سبحانه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقد قال العارفون أن الكينونة تكون ظاهرا بمجالستهم حتى تنطبع فى المؤمن صفاتهم ، وباطنا برابطة الروح ، حيث تسقى الأرواح بعضها بعضا ، كما يسقى الماء المتدفق من الأرض العالية ، الزروع القائمة فى الأرض الواطئة ، ورزق الظاهر بحركات الأجسام ، ورزق الباطن بحركات القلوب .

والله من قبل ذلك ومن بعد ذلك هو وحده المقدر ، ان شاء ساق الأسباب النافعة لعبده ، وان شاء حرمه منها ، وكما يقول سيدى الشيخ

عبد السلام : وكل انسان بنياته ، له هبة موهوبة وأمور فى الدنيا مطلوبة ، فمن أسعده الله أعطاه ، ومن وفقه الله أغناه .

وما أحلى ما يقول الصوفى الكبير جلال الدين الرومى فيما ترجمه عنه صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

ان الظواهر أضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين ، وأضلت الظواهر أبا جهل حين نظر الى رسول الله صلى عليه وسلم على أنه محمد بن عبد الله القرشى ، فلم يره سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وما ذنب البستان اذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود أنواره .

وأقول بعد ذلك : اللهم انا نتوسل اليك بأحب أحبابك لديك، وأعزهم عليك ، ومن شرفت أهل السماء والأرض بامامته ، وجعلته مفتاح رحمتك، سيدنا ومولانا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه ومن والاهم ، ونسألك بجاهه العظيم عندك ، أن تربط أرواحنا بروحه الشريفة ، حتى يأتيها رزقها رغدا من ساحة كرمك ، فأنت المعطى وهو القاسم ، وماأجود المعطى ، وما أعدل القاسم ، وما أرأفه ، وما أرحمه، وأنت يا الهنا الواصف له (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

— ٣٨ —

« .. ولا يخفاك ان عطاء الله لا ينفد ككلماته التى لا تنفد (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) .

« وأنت ان شاء الله ممدود منه ، باتباعك شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وسيكون قربك منه قريبا ان شاء الله ، وتراه وتتمتع به وتمتد منه حتى تمد غيرك ، فالمدد من الله سبحانه وممن أمدهم فيكون لك ومنك النور والسرور .

« ابعد الله عنا الشرور ، وطهر قلوبنا من المدة وهى قيح تورثه الذنوب ، ونجانا من العطب والكروب وجعلك دائما مطمئن النفس تتبع البر كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم ، البر ما اطمأنت اليه النفس .

.. وربما تمر حوادث بشىء من الخوف ، فعليك بحسن التوكل واستشر قلبك بما يطمئن اليه » .

جاءت هذه الإرشادات القيمة فى رسالة بعث بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد سالم عمر جمعة زاده الله فضلا وتوفيقا وتاريخ الرسالة ٢٨ مايو ١٩٤١ ، أى ابان اشتعال الحرب العالمية الثانية والتى امتدت الى الصحراء الغربية حتى صارت على مقربة من الاسكندرية التى يسكنها ذلك التلميذ الصالح .

وكلمات الشيخ تبعث الأمل الفسيح لتلميذه فى عطاء الله الذى لا يحده حد ، ولا يحصره عد ، فقد أسبغ سبحانه على عباده نعمه ظاهرة وباطنة ، وبين لهم عجزهم عن عدها واحصائها فقال تعالى :

(الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار • وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار • وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) •

وكما أن عطاءه سبحانه لا يعد ولا يحد ، فكلماته كذلك لا تنفد ، وقد اخرجنا سبحانه من بطون امهاتنا لا نعلم شيئا ، فعلمنا مالم نكن نعلم ، وكل ما يفتح به علينا من فهم أو الهام أو استنباط ، أو اكتشاف ، أو اختراع انما هو من عطائه وكلماته ومن أوائل ما نزل من كتابه الكريم قوله تعالى (اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) •

ويعلم سبحانه رسله وأنبياءه الكرام وحيا ، ويعلم الأولياء والصديقين الهاما ، وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون صلته به ، فالرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه هم أعرف الناس بربهم ، وهم متفاوتون فى المعرفة كما شاء الله لهم ، ولذلك كانوا أعظم الناس محبة لله ، وأشدهم خشية منه سبحانه وتعالى ويليهم فى ذلك الصديقون ثم الأولياء ، الأمثل منهم فالأمثل •

والقرآن الكريم بين لنا من ذلك شيئا كثيرا وبين لنا أنه على كثرة ما علم الناس فى شئون دنياهم فان العلم الذى يربطهم بربهم ، هو العلم الذى يكشف عنهم غطاء الغفلة فيعرفون ربهم بفضله عليهم فيشكرون له نعمه كما يعرفونه بسلطانه فيخافونه من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا ما يوجهنا اليه قوله الكريم (انما يخشى الله من عباده العلماء) فمن لا يخشى الله ليس من العلماء عند الله وان كان عند نفسه وعند الناس من العلماء وقوله العظيم (وما بكم من نعمة فمن الله) فمن لم يدرك ذلك يكون جاحدا لنعمة الله •

ولقد اغتر قارون بجهله ، فظن انه اغتنى بعلمه فحكى الله تعالى ماكان من أمره (قال انما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من

قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وقص علينا سبحانه ان قومه فتنوا بماله وزينته فى الحياة الدنيا حتى قالوا : (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم) فنصحهم العلماء الراشدون وقالوا لهم ما حكاه تعالى (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون) ثم بين الله عاقبة جهل قارون الذى ظن فى نفسه أنه عالم فقال تعالى :

(فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) فتيقظ عندئذ أهل الغفلة وتبينوا الرشد من الغى (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) .

ونأخذ من قصة قارون هذه أن كل كافر بربه جاهل وان حمل من الشهادات الجامعية أعلاها ، أو اخترع من المخترعات أدقها وأعقدها وهو ما يؤكده قوله تعالى :

(.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون . أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) .

واذا كانت قلوب الكافرين قد انطمست وطبع الله عليها بكفرهم ، فلا عذر للمؤمنين فى غفلتهم عن الله تعالى وقد آمنوا ، ولا عذر لهم فى أن تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، وقد آمنوا بالبعث بعد الموت ، وآمنوا بالحساب والثواب والعقاب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا .

واذا رشد المؤمن ، وتيقظ بعد غفلة ، عمل لما بعد الموت ، وقد رسم الله له طريق العمل ، وجعله واضحا ميسرا لا مشقة فيه ولا حرج ، وانما هو جهاد لنفسه الأمارة بالسوء ، والتى تستحب العاجل على الآجل ، وتجنح لشهوات الدنيا التى توبقها ، وتهرب من الطاعات التى تسعدها ، وفى راحتها هنا تعبها هنالك ، وفى تعبها هنا راحتها هنالك ، والعاقل لا يشترى موقوتا بغير موقوت ، ولا يشترى لذة فانية بسعادة أبدية ، والا كان من الذين استحبوا العمى على الهدى ، وليس ذلك من شأن المؤمنين .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه ، وأدى رسالته أصدق أداء ، وفصل ما أجمله كتاب الله عز وجل ، امتثالا لأمر ربه ، وتركنا كما قال صلوات الله وسلامه عليه وآله على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك فالطريق اذن واضح ، والحق لائح ، والداعى قد أسمع ، فما التخلف بعد ذلك الا من الغفلة عن الحق الذى تنطق به الآية الكريمة (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) .

وذلك ما يوضح لنا مقصود سيدى الشيخ فى قوله لتلميذه : وأنت ان شاء الله ممدود منه (أى الله) باتباعك شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو يوجهه الى التزام الاتباع ، وتجنب الابتداع ليسلك سبيل المؤمنين على نور من ربه ، فيحل حلال الله تعالى ويحرم حرامه ويحب بحبه ، ويبغض ببغضه ، فلا يستحسن مااستقبح ، ولا يستقبح مااستحسن فانه لا يكمل ايمان المؤمن حتى يكون هواه تبعا لما جاء به رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم وآله ، لأنه انما جاء بشرع الله ، ولا يصل أحد الى ربه الا بشرعه الذى يقتدى فيه ويتأسى بمولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصدق العارف البكرى رضى الله عنه اذ يقول :

وأنت باب الله أى أمرىء
أتاه من غيرك لا يدخل

أما ما يقوله سيدى الشيخ لتلميذه : وسيكون قربك منه قريبا وتراه وتتمتع به ، وتمتد منه حتى تمد غيرك ، فانه يبشره بزيارة روضته الشريفة

والتسليم عليه ، وهى سعادة روحية لا يدركها الا أهل التجربة من ذوى التبصرة ، وقد أسعدنى الله بصحبة السيد سالم جمعة فى زيارة الروضة الشريفة كثيرا والحمد لله حمدا لا نهاية له وقديما قالوا :

لا يدرك الشوق الا من يكابده
ولا الصبابة الا من يعانيها

وقالوا :

وأبرح ما يكون الشوق يوما
اذا دنت الخيام من الخيام

كما يحتمل أن تكون البشرى برؤيته مناما وهى أيضا تبعث السعادة والاشراق فى روح الرائى كما هو معروف ، وزيارته صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة قربة من أعظم القربات الى الله تعالى ، ففيها وفاء له صلوات الله عليه وآله ، وتصديق به ، واعتراف بفضله وشرعه ، وتجديد لبيعته بوحدانية الله تعالى ورسالة حبيبه الأصفى ومصطفاه الأسمى ، وفى الحديث القدسى (عبدى لم تشكرنى ما لم تشكر من اجريت النعمة لك على يديه) ولا نعمة أعظم من نعمة الايمان بالله ورسوله واذا كان جذع النخلة الذى كان يخطب اليه صلى الله عليه وسلم حن وأن وهومن خشب ، لفراقه صلى الله عليه وسلم حين نصبوا له المنبر ورقاه ليخطب عليه،فكيف بذوى الوجدان والأرواح المؤمنة النيرة .

ورضى الله عن سيدى الشيخ احمد الحلوانى الخليجى ، (والدسيدى الشيخ عبد السلام ، رضى الله عنهما) اذ يقول فى قصيدته المستجيرة مشيرا الى معجزة حنين الجذع :

والجذع حن وخار اذ فارقته ... فجبرته وخواره عندى نعم
فالمرء ان لم تعره لك هزة ... كالجذع فهو مضلل اعمى اصم
أرواحنا حنانة وقلوبنا انانة ... لك والغرام بنا اضطرم
بالله صل حبل الرجاء تعطفا ... أناضيفجودك ياامامأولىالكرم

وما أروع كلام الشيخ الكبير طيب الله ثراه ، وكان قد رأى فى المنام مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم له ، فأشار الى ذلك فى القصيدة ذاتها قائلا :

بشراى ان حلاك تبسم بالمنى … ان الكريم اذا رأى الضيف ابتسم
وبوجهك الميمون يسعد من رأى … أنواره ممن بملتك اعتصم
أرنيه فهو سعادتى ومجادتى … أبدا ولو نوما وعنى لا تنم
يا رحمة الله الأمان فكن لنا … سورا على الايمان يا أفق الهمم

ولفضيلة صديقى العالم المبارك المعاصر الاستاذ الشيخ احمد محمد مرسى ، مراقب دار الحديث النبوى بالمؤتمر الاسلامى سابقا ، مد الله فى عمره تعليق على رسالة العلامة الحلبى صاحب السيرة الشهيرة المسماة : تعريف أهل الاسلام والايمان بأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه مكان ولا زمان ، تضمن كثيرا من الطرائف العلمية النقية ومنها قوله بارك الله فيه : وقد يظن بعض المعاصرين أن الكلام فى هذا الموضوع من قبيل الغلو المنهى عنه ، وهو خطأ ممن ظنه ، لأن الغلو أن يعتقد فى الشخص ما يرفعه فوق منزلته كما اعتقدت النصارى فى عيسى عليه السلام انه ابن الله أو ثالث ثلاثة ، أما اعتقاد أمر دل عليه دليل فليس من الغلو فى شىء •

وقوله زاده الله علما : ويمكننا أن نبحث وجود النبى صلى الله عليه وسلم وآله فى كل مكان وزمان على أساس الوجودات الأربعة المقررة فى علم المنطق :

١ — الوجود الذهنى :
والنبى صلى الله عليه وآله وسلم موجود فى ذهن كل مسلم وفى عقيدته •

٢ — الوجود اللسانى :
وهو موجود على لسان كل مؤذن للصلوات الخمس وعلى لسان كل مصل يصلى عليه داخل الصلاة وخارجها •

٣ — الوجود الكتابى : .

وهو كذلك موجود فى خطبة كل كتاب علمى منثور أو منظــوم ، وكذلك كتب التفسير والحديث والسيرة والأدعية والصلوات وغيرها .

٤ — الوجود الجسمى :

وهو نوعان : (١) وجود الجسم الطبيعى وهو لا يتأتى الا فى مكان واحد ، ولا يجوز تعدده فى مــكانين فى وقت واحد (ب) وجود الجسم المثالى : بمعنى أن الجسم الشريف فى مكانه من الروضة المطهرة ، وتوجد أجسام مثالية فى عدة مواضع من العالم يدبرها روحه العظيم عــلى توالى الأزمنة ، ومن الدليل على وقوعه قول المصلين فى تشهدهم : السلام عليك أيها النبى ، وهذا خطاب للحاضر الموجود وان لم يروه كالحال فى الملائكة ، ولو كان غير حاضر عندهم يقينا لكان خطابهم له عبثا لا يليق أن يحصل فى الصلاة التى هى أفضل العبادات كيف والعبث منهى عنه فيها .

وقوله تعالى (فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) هــذا انذار لكل مراب الى يوم القيامة بأن يحاربه الله ورسوله ، وحــرب الله حقيقة مستمرة فمن رسوله كذلك ، لأنه معطوف عــلى الله بالواو ، وهى تفيد الجمع والاشتراك ، فهو اذن موجود يحارب المرابين بلعنهم والدعاء عليهم وعالم المثال المدلول عليه بقوله سبحانه وتعالى (فتمثل لهــا بشرا سويا) .

ولقد قال الحــافظ بن القيم : ان الروح القوية كــروح أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، تستطيع أن تهزم جيشا بأكمله ، فليس بكثير على روح نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعظم روح خلقه الله تعالى ، ان يملأ العالم فى صور أجسام مثالية ، ولهذا رآه كثير من الأولياء فى أوقات مختلفة وأماكن متعددة وسألوه عن أشياء أشكلت عليهم فأجابهم بماأزال عنهم الاشــكال (وكان الجلال السيوطى يسأل النبى صلى الله عليــه وسلم عن أحاديث فيجيبه عنها) .

هــذا ويقــول العــلامة الحلبى فى رســالته : والحجاب من قبلنــا بموجب مساوينا ، لا من قبله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا تجد العبد متى

فارق نفسه ولو بالنوم وأغمض عينيه يراه اذا قسم الله له تعالى ذلك ، ومتى قتلها بقمعها وأماتها بردعها لم يبق بينه وبينه حجـاب لا مناما ولا يقظة ، ولذا كان السيد أبو العباس المرسى يقول لو حجبت عن رؤية النبى صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين .

ويقول العلامة الحلبى أيضا : وأمر البرزخ لا يقاس عـلى غيره وقـد سئل عزرائيل : كيف تقبض روح رجلين حضر أجلهما معا ، أحـدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب ، فقال ان الله تعالى قـد زوى لى الدنيا بجميع أكوانها فجعلها بين يدى كالقصعة بين يدى الآكل أتناول منها ما شئت ، ثم ان ملكى السؤال مع تناهى عظمهما يأتيان أضيق اللحـود ويسألان ميتين أو أمواتا فى وقت واحد ، ومنهم من هو فى أقصى المشرق ومنهم من هو فى أقصى المغرب ، فالله قادر أن يعطى نبيه صلى الله عليـه وسلم الذى أعطاه لملكى السؤال وملك الموت وفـوق ذلك لانهما دونه ولانهما يسألان الأموات عنه صلى الله عليه وسلم .

أقول وما أبدع ما ينتهى اليه الامام البوصيرى فى بردته المباركة :

دع ما ادعته النصـارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتـكم
فان فضـل رسـول الله ليس له
حـد فيعـرب عنـه ناطق بفـم

هذا وثمة بشرى عظيمة لمن يراه صـلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقد جاء فى الحديث الصحيح (من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة) فقد قالوا لابد من تحقق الرؤية يقظة ولو لحظة قبيل الوفاة ، وقد رآه كثير من العلماء العاملين فى المنام ثم رأوه فى اليقظة فى أحوال مختلفة ، كماقال الحافظ السيوطى وغيره ، وقد ورد أن الشيطان لا يسـتطيع أن يتمثل به صلى الله عليه وسلم .

وبشرى أخرى لمن يصلى عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد زفها الحديث الشريف الذى رواه البزار والطبرانى وأبو الشيخ وغيرهم عن عمار بن ياسر

رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ان لله تعالى ملكا أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم علـى قبرى اذا مت فليس أحد يصلى على الا قال : يا محمد صلى عليك فلان بن فلان ، قال فيصلى الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرا) والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، ويقـول العلامة الحلبى رحمه الله ان خدمة التبليغ التى يقوم بها الملك انما هى على سبيل الاحترام والتوقير .

وورد أنه صلى الله عليه وسلم يسمع بنفسه صلاة المصلى عليه ليـلة الجمعة ويومها وقد روى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم (ليهبطن ابن مريم حكما عادلا واماما مقسـطا وليسلكن فجا حاجا أو معتمرا وليأتين قبرى حتى يسلم على ولأردن عليه) ــ صححه الحاكم وسلمه الذهبى ــ ويعقب على ذلك المفضال الشيخ أحمد محمد مرسى فيقول فى ابداع لم يسبقه احد اليه فيما اعلم : وهذا الحديث يفيد سنية زيارة القبر الشريف لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بزيارة عيسى له فى قبره ، وأقره صلى الله عليه وسلم .

ومن روائع ما يقول العلامةالحلبى : ومن الأدلة العقلية والنقليةأيضا أن الله تبارك وتعالى نصبه شاهدا عـلى أعمال العبـاد خيرها وشرها فقال تعالى (ياأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) والشاهد لابد أن يكون حاضرا للمشهود عليه وناظرا للمشهود اليه ، فعلم أنه مـلأ كل عالم وحاضر فى كل مكان .

وللبيهقى وابن عساكر وغيرهما عن حاطب مرفوعا (من زارنى بعـد موتى فكأنما زارنى فى حياتى) وتلك أيضابشرى عظيمة للسادة الزائرين، فانهم ان استغفروا الله بين يديه صلى الله عليه وسلم ، شفع لهم صلى الله عليه وسلم عند ربه ليغفر لهم ، تحية منه صلى الله عليه وسلم لضيفه ورأفة ورحمة بالوافدين عليه من المؤمنين المذنبين كيف لا والله تعالى يقول (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) كما يقول (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليـه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

ووالله لقد لمسنا بركة الزيارة فى كل مرة حتى كأن نفوسنا الأمارة بدلت بأخرى كاملة ، فذقنا حلاوة الطاعة ، وتدبرنا كلمات الله كانما تلقيناها أول مرة وملأ صدورنا أنس بالله ورسوله فكأنهما من صدور أهل الجنة التى قال تعالى فيها (ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) فياله من صفاء ، وياله من نور .

وانى لا انسى ان لسانى قد عقد فى الزيارة الأولى ، ولكن صدرى هزه اللقاء وحركه الشوق حتى كاد القلب يخرج من بين الضلوع ، فكان من الصمت كلام ، ومن العى بيان واى بيان ، واذكرنى ذلك الشعور المتدفق قول ابن العفيف رحمه الله :

يا من اعيذ جماله بجلاله ... حذرا عليه من العيون تصيبه
ان لم تكن عينى فانك نورها ... أو لم تكن قلبى فانت حبيبه

ولا يظن القارىء العزيز ، أن هذا هو شعورى وحدى فانه يشاركنى فيه كثير من الزوار المباركين ، ولقد لقينى مصادفة شاب مصرى لا اعرفه عند أحد التجار بالمدينة المنورة ، ولكنه كان يذكرنى لأنه استمع الى محاضرة كنت ألقيتها فى جمعية الشبان المسلمين بمغاغة فى سنة ١٩٤٨ ، وتجاذبنا أطراف الحديث وجرنا الكلام الى الزيارة وروعتها وجمالها وجلالها فقلت لصاحبى : انى أؤكد لك أنه لولا جمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، لحبس جلاله الكبير الألسنة عن الكلام عنده لكن الجمال يخفف عن النفوس وقع الجلال فتتحرك الألسنة بالكلام ، فقال فى دهشة : كأنك تصف ما وقع لى أول ما وفدت عليه صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت له : وماذا وقع لك ؟ قال انحصر لسانى عن الكلام فانصرفت فى اضطراب وقلت فى ذلك شعرا ، وروى لى شعره وأذكر منه قوله :

عجب لسان عند قبرك ينطق ... خرس الشفاه لديك هن الاصدق
غشى الجلال لديك كل مشاعرى ... فوقفت مضطربا وقلبى يخفق

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام :

وتمتد منه حتى تمد غيرك ، فالمدد من الله وممن أمدهم ، فيكون لك ومنك النور والسرور ، فذلك ما تشهد به الآية الكريمة (لقد من الله على

المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

فالتزكية لا تكون بالتعليم وحده بل بالسر الروحى المكنون الذى يؤتيه الله من يشاء من مدد رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعله الله واسطة العطاء وسبب الرحمة ومشرق النور القلبى الذى يهتدى به المؤمنون السالكون والعاملون والراشدون ،وصدق صلوات الله وسلامه عليه اذ يقول (انما أنا رحمة مهداة) والا فكيف يتصور العقل أن يترك مائة ألف أو يزيدون من أصحابه الأطهار ، ودعوته الى الله لم تبلغ ربع قرن من الزمان ، أو كيف يتصور العقل أن دعوته تزداد انتشارا بعده حتى يكون لتابعيه امبراطورية اسلامية غير مسبوقة بمثلها فى طول الزمن وعرضه فى سرعة قيامها وقوتها اللهم الا أن يكون ذلك بسر خفى يتعدى طور المحسوس الى اللا محسوس ، ويبلغ آفاق الروح ، والروح من أمر ربى ، وضحت آثارها وهى خافية ، وظهرت أنوارها للقلوب فلم تدركها الأبصار ، وانما أدركتها البصائر ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور .

وانك لتعجب أشد العجب من قوم يقولون ان زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقصد لذاتها والا دخلت فى عموم النهى عن شد الرحال الوارد فيه قوله صلى الله عليه وسلم (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى) وهؤلاء متأثرون برأى ابن تيمية ، وليس ابن تيمية مع مكانته العلمية بالعالم الفرد فى هذه الأمة ، وهو لم ينزل من السماء ، وكان الامام مالك رضى الله عنه يقول : كل أحد يؤخذ من قوله أو يترك الا صاحب هذه الروضة (يشير الى النبى صلى الله عليه وسلم) وقد نقل أحمد بن القاسم عن الامام أحمد بن حنبل أنه سئل عن الرجل يأتى المشاهد التى بالمدينة وغيرها فقال أما عن حديث ابن أم مكتوم انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيه فيصلى فى بيته حتى يتخذه مسجدا ، وعلى ما كان يفعل ابن عمر كان يتبع مواضع سير النبى صلى الله عليه وسلم ، قال أما على هذا فلا بأس قال ورخص فيه .

وعند هؤلاء القوم أن ينوى قاصد المدينة الصلاة فى مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليت شعرى ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب الى مسجد قباء ماشيا تارة وراكبا تارة أخرى ، كما أنه حض على زيارة مسجد قباء والصلاة فيه وقال انها توازى عمرة ثم ألم يكن يزور البقيع (مقبرة المدينة) ويدعو لأهله فكيف يحمل الحديث على النهى المطلق ، بينما مقصوده ، كما قرر أكابر العلماء ومنهم الامام النووى شارح صحيح مسلم ، أن يبين أفضلية المساجد الثلاثة ، أما غيرها من المساجد فمتماثلة .

أقول ثم ان ياء الاضافة فى قوله صلى الله عليه وسلم مسجدى لاتفيد الملكية ، فهى قطعا تفيد الظرفية ، لأن المساجد لا يملكها الا الله تعالى ، وقد زاد الله المسجد شرفا بسجود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، كما شرفه بأنه هو الذى بدأ بناءه ، وشرف المدينة المنورة فكانت مهاجره ومهبط وحيه عليه ومثواه ، ثم أليست زيارته هجرة اليه صلى الله عليه وسلم يحبها الله ويثيب عليها تأسيسا على قوله صلى الله عليه وسلم (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه وقد قال امامنا الشافعى رضى الله عنه ان هذا الحديث يدخل فى نصف العلم .

ويقول الامام الغزالى فى الاحياء ما ملخصه : والمساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد الا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة الى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، ثم قال : ليت شعرى ، هل يمنع هذا القائل من شد الرحال الى قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مثل قبر ابراهيم الخليل عليه السلام ، بل الزيارة مأمور بها قال صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا) وقد جاء فى الشفاء للقاضى عياض عن زيارة رسول الله صلى عليه وسلم : وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها ، ثم روى بسنده

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال النبى صلى الله عليه وسلم (من زار قبرى وجبت له شفاعتى) .

وأقول بعد ذلك اللهم شفعه فينا بجاهه عندك ولا تقطعنا عن رحابه ما أحييتنا يارب العالمين ، فلولاه صلى الله عليه وسلم ما كانت الصلاة ولا كان المسجد وماذا يمنع المؤمن من أن ينوى عدة نوايا فى زيارته للمدينة المنورة ، بأن يصلى فى المسجد النبوى ويزور حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ويزور أصحابه الكرام عليهم الرضوان ويصلى فى مسجد قباء الخ .. وكل ذلك وغيره من الطاعات والبر من بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله .

واذا استمد المؤمن من نور نبيه صلى الله عليه وسلم تخلق بأخلاقه ، وتحلى بصفاته ، فكان قدوة طيبة لغيره وينتفع بصحبته من يصاحبه ، وقد أرشدنا الله تعالى الى ان من علامات التقوى صحبة الصادقين فقال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ويقول السادة الصوفية :

والروح كالريح ان مرت على عطر

طابت وتخبث ان مرت على الجيف

وقد دعا سيدى الشيخ أن يبعد عنا الشرور ، وفسرها بأنها الران الذى تخلفه المعاصى فى القلوب ، فتورثها الغفلة عن الله وفى ذلك العطب والكروب ، وعبر الشيخ عن الران بالمدة والقيح الذى تورثه الذنوب ويشير بذلك إلى قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) نجانا الله من المعاصى وأهلها ونفعنا بالتقوى وأهلها .

ثم ان سيدى الشيخ يتوقع ظروفا شديدة ، وينصح تلميذه بحسن التوكل على الله وكفى بالله وكيلا ، كما ينصحه باستفتاء قلبه لأن البر ما يطمئن اليه قلب المؤمن المتوكل ، الذى خرج من حوله وقوته فاعتصم بالله وأيقن أنه مولاه ولا معين سواه ، نعم المولى ونعم النصير ، وفى قوله

تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) لفتة بديعة الى أنه لا يجوز أن يتكل المؤمن على بشر مثله ممن يدركهم الموت أو على صنعته أوعلى تجارته أو على أمواله ، فانها جميعا عرضة للفناء ، وانما يأخذ المؤمن بأسباب العيش كما أمر الله مع الركون قلبا وقالبا الى الله الذى كفل الأرزاق وضمنها لخلقه أجمعين مؤمنهم وكافرهم طائعهم وفاسقهم ، لأنه لا خالق سواه ولا رازق معه سبحانه وتعالى .

وقد قال سيدنا داود لابنه سيدنا سليمان عيهما الصلاة والسلام : يا بنى انما يستدل على تقوى الرجل بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات وما أجلها من نصيحة .

ويقول الامام حاتم الاصم (المتوفى ٢٣٧ هـ) . عجبت لمن يعمل بالطاعات ويقول انى أعملها ابتغاء مرضاة الله ثم تراه ابدا ساخطا على الله رادا لحكمه أتريد أن ترضيه ولست براض عنه كيف يرضى عنك وأنت لم ترض عنه .

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين الموقنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والذين قلت فيهم وقولك الحق (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب) .

— ٣٩ —

اعلم أن طريق شيخنا ، رضى الله عنه طريق الذكر فقط وليس غيره ، ففيه الفتح ، وفيه الطلب ، وفيه قضاء الحوائج ، وهو منه واليه ، وبه كل شىء ، فاذا أمرتك بشىء غيره فاضرب عنه صفحا ، واتبـع الذكر ، ففى الأسماء العلو الى السماء ، قلبك مـع ربك ، وربك معك ، فليس بعيـدا عنك ، يقربك اليه ، ويعرفك به .

ومن عرف الله عرفه الحكمة ، ومن سلك سبيلا غيره ، وكان يجهل بحره ، جره هذا السلوك الى الشكوك ، نجانا الله منها ، وهو تعالى يقول: « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

ورد ذلك الارشاد النافع فى رسالة كريمة أرسلها شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، الى تلميذه الصـالح المبارك الصديق السيد سالم جمعة ويدله فيه على أن شيخنا الأكبر قطب زمانه ، ومجدد قرنه ، العارف بالله سيدى الحاج محمد أبو جليل رضى الله عنه « انتقل الى رضوان الله فى يونية ١٩٢٠ وضريحه الأنور بالزقازيق وله هنالك مشهد ومسجد كبير معروف » ، كان يقتصر فى تربيـة أتباعه عـلى ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى ، فلم يكن لهم أوراد ولا أحزاب أخـرى ، لأن الشيخ الأكبر كان يرى أن الأوراد والاحزاب انمـا فتح بهـا عـلى أصحابها من أثر ذكـرهم لله تعالى ، فالأولى بالمريدين أن يسلكوا الى الله تعالى من باب ذكره سبحانه ، لأنه أصل ثابت وفرعه فى السماء ، على أنى أود أن أنبه الى أن الطرق الأخرى التى لها أوراد لا تكتفى فى التربية بالأوراد بل توجه أيضا الى الذكر بالأسماء الحسنى .

والى جانب الذكر الفردى بالكيفية والعدد المرسومين فى طريق سيدى الشيخ الأكبر هناك ذكر الجماعة بعض الوقت ، وهو أقوى تأثيرا وأقوى أثرا فى رفع الحجب عن القلب من ذكر الواحد وحده ، وفي ذكر الجماعة يحصل لكل ذاكر ثواب ذكره بنفسه وثواب سماع الذكر من غيره ، وقد أمر سبحانه وتعالى بالتعاون على البر والتقوى ، وذكر الجماعة من هذا الباب .

وقد جعل السادة الصوفية الذكر أساسا لتربية السالكين ، واتفقت على ذلك كلمتهم فى المشارق والمغارب ، وقد اشتبه على الناس هذا الأمر، بما فيهم بعض العلماء ، بل ربما كان هؤلاء العلماء أكثر الناس التباسا ، ولهذا وجب علينا أن نبين فى شىء من الشرح موضوع الذكر وأثره فى تربية الأرواح فى جنب الله ، فنقول وبالله التوفيق :

المقصود من ذكر الله تعالى أن يجتنب المؤمن الغفلة عنه سبحانه ، لأن الغفلة تجرئه على المعصية ، والذكر يعاونه على تركها ، ويقول السادة الصوفية ان أعمال البر ويعملها البار والفاجر ولكن لا يجتنب المعاصى الا صديق ، والتصوف يدعو الى تخلية القلب من الرذائل وتحليته بالفضائل ، وعندئذ تستولى عليه الأنوار القدسية فيتعلق بالله ، ويؤثره سبحانه على هواه ، وعلى كل ما سواه ، لأنه جل جلاله وعز شأنه هو المطلوب والمرغوب والمحبوب ، منه ابتداؤنا ، واليه انتهاؤنا ، وقد جعل سبحانه الدنيا دار تكليفه ، وجعل الآخرة دار تشريفه ، ولم يكلفنا فى الدنيا محالا ، وانما كلفنا ممكنا يحتاج للمجاهدة الظاهرة والباطنة ، ليتميز بالمجاهدة الخبيث من الطيب ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، أما هو سبحانه فانه غنى بنفسه عن غيره ، لانفع له من طاعة ، ولا ضرر عليه من معصية ، والنفع والضرر للعباد أو عليهم .

ووجه ابتلاء المؤمن ، أن له نفسا أمارة بالسوء ، تتحرك للشهوات بطبعها وجبلتها ، والله تعالى أمره بالكف عنها ، والحذر منها ، فصار فى مسلك وعر ، ان أرضى نفسه فى شهواتها فقد أغضب ربه ، وان أرضى ربه فقد أغضب نفسه ، ولا ثالث لهذين الأمرين ، فليختر لنفسه ما يحلو .

أما ان كان قصير الادراك واستحب العاجل على الآجل، فانه يركن الى الشهوات ليرضى نفسه فيها، وهو رضاء ظاهر نهايته اغضابها يوم يكشف عنه غطاء الغفلة وتتحسر نفسه فتقول « يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله »، وأما ان كان واسع الأفق، بصيرا بالعواقب، فانه يرضى ربه ويغضب نفسه، وهو غضب وقتى، نهايته ارضاؤها، حين يقول لها مولاها « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ».

وبين الطرفين بون شاسع، وبين النتيجتين فرق واسع، ولابد اذن من طبيب حاذق فى علاج أمراض النفوس ليعاونها فى مقاومة العلة المهلكة، التى تحركها الى الشهوات فى خفاء لا تراه العيون، كما تدركه البصائر النافذة بقدرة الله الى بعض الغيوب، ومن هنا قامت الحاجة الى الشيخ المربى الذى يتدرج بالمريد صعدا فى جهاد النفس حتى تتخطى المسلك الوعر فتتذوق حلاوة الطاعة، وتقبل عليها، وتتجنب المعصية وتنفر منها.

وما دامت العلة خافية عن العيون، ومدركة بالبصائر، فلابد من نور خفى عن العيون، ومدرك بالبصائر، ليقاوم العلة، فيخرج صاحب الشهوات من الظلمات الى النور باذن ربه، وقد دلت التجارب العملية للشيوخ العارفين بالله، أن أسماء الله الحسنى لها من الأنوار والخصائص والأسرار مايشفى صدور قوم مؤمنين، تأسيسا على قوله تعالى « فاذكرونى أذكركم » وقوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » فاذا ذكرت ربك كشف عنك غطاء الغفلة فكنت ذاكرا مذكورا شاكرا مشكورا « واشكروا لى ولا تكفرون » وتوالت عليك النفحات وغمرتك البركات، ومحيت عنك السيئات، وعظم لك الأجر « .. والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ».

ولا تنس أن الله تعالى عرف أولى الألباب بأنهم « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ».

وقد قال العارفون ان رزق الظاهر بحركات الأجسام ، ورزق الباطن بحركات القلوب وقد بين القرآن الكريم أن الذكر علاج لاضطراب القلوب ، وسبيل لاطمئنانها ، فقال تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وكل ما يذكرك بربك يدخل في نطاق الذكر ، ويخرجك من دائرة الغفلة ، لأن المقصود من الذكر دوام حضور القلب مع الله تعالى ، فتأدية الصلوات ذكر ، والزكاة ذكر ، والصيام ذكر ، والحج ذكر ، والتفقه فى الدين بالقدر الضرورى أو أكثر ذكر ، والافتاء فى أحكام الله ذكر ، وقراءة القرآن الكريم ذكر ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ذكر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ذكر .. الخ .. الخ .

فالعبادات تتنوع والمذكور فيها واحد سبحانه ، وما شرع الله العبادات والطاعات الا لذكره ، واننا ان قلنا ان الشيوخ العارفين بالله يربون المريدين بطريق الذكر ، فلا نقصد انهم ينهون عن غيره من الطاعات ، انما نقصد أنهم يزكون الأرواح فى جنب الله تعالى من طريق الاكثار من ذكر الله تعالى جماعات وفرادى بأسمائه الحسنى ، وذلك الى جانب العبادات الشرعية ، المفروضة منها والمسنونة والمندوبة ، لأنها الأساس المتين الذى تبنى عليه الكمالات التربوية الروحية .

ولا شك أن ذاكر الله على النهج الصوفى ــ كما دلت التجارب العملية الصحيحة ــ يذوق من حلاوة العبادات والطاعات مالا يذوقه المؤمن العادى الذى يغفل عن الله فى أغلب أوقاته ، كما أن الذاكر يتدبر من معانى القرآن الكريم والسنة الشريفة مالا يتدبره غيره ، والسادة الصوفية يعودون المريدين أولا على ذكر اللسان ، الذى يرقيهم مع الموالاة من ذكر القلب تكلفا الى الذكر طبعا ، ثم الى ذكر السر ، وعلامة هذا الأخير أنك اذا تركت الذكر فانه لا يتركك بل يردك من الغيبة الى الحضور ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : (من علاماته انه لا تخمد نيرانه ، ولا تذهب أنواره) ، وأذكر فى ذلك قول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

اذا قيل لى اطلب قلت زبى مطلبى   وان قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى
سلونى عن العشاق قـد ذقت حبهم   وانى لهـم رأس اذا كان من رأس
حسبت الهوى سهلا فخضت عبـابه   فطورا به أطفو وطـورا به غطسى
الى أن أتتنى من لدنه عنـاية   وصـلت بها بر السـلامة والانس

وانما نجح السادة الصوفية فى تربية مريديهم ، لأنهم برعوا فى علم النفس ، فوصفوا العـلاج عن خبـرة تربوية لايدانيهم فيها أحـد حتى المتخصصون فى علم النفس ، لأنهم علموا وعملوا ، وطبقوا علمهم أول ما طبقوه على أنفسهم ، ومن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، أمـا غيرهم فعلموا ولم يعملوا ، وشتان بين من ذاق ومن لم يذق : ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : فرق بين أن يعلم الانسـان حـد الصحة والشـبع وبين أن يكون صحيحا وشبعانا .

والشيخ العارف يعاون المريد السـالك على مقاومة هواه ، ومغالبـة نفسه ، لأن النفس فى أول مراتبها تكون أمارة بالسوء أى كثيرة الأوامـر التى ترضى طبيعتها البدنية ، وشهواتها الحسية ، فينير لها الذكر سـبيل التبصرة كما ينير السراج غرفة مظلمة ، فترقى من الأمـارة الى اللوامة . فتندم عند وقوع الذنب ، وتود اصلاح حالها مع ربها ، ولا ترضى أن تكون فى غفلة عنه ، ولا عاصية له ، فتتوب وتثوب الى رشدها ، فاذا جد صاحبها فى سلوكه ، وتابع ارشاد شيخه ، وهم فى ذكر ربه ، أمحت من قلبه بالذكر ظلمات الغفلة والمعاصى شيئا فشـيئا ، وتخلت نفسـه عن الرذائل وتحلت بالفضائل . فتلقت أنوار الحق ، فاطمأنت الى ربها ، وسكنت اليه فرضى عنها وأرضاها .

وقد خلد الله الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم ، فى القرآن الكريم بتعلق قلوبهم بالله تعالى ، حبا فيه ، وايثارا له سبحانه فى مثل قوله تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وقوله تعالى « فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصـلاة

وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

وقد جاء فى مناقب سيدى أبى فروة الصحابى ، رضى الله عنه ، أنه سار ميلا لم يذكر الله تعالى فيه ، فرجع حتى سار فيه ذاكرا لله تعالى ، فلما بلغ منتهاه قال : اللهم لا تنس أبا فروة ، فان أبا فروة ليس ينساك .

ومن حكم السادة الصوفية قولهم : خلق الله القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحو الشهوات من القلوب الا خوف مزعج ، أو شوق مقلق ، وقولهم : وحشة العباد عن الحق أوحشت منهم القلوب ، ولو أنسوا بربهم ولزموا الحق ، لاستأنس بهم كل أحد ، وقولهم: هى أربع لا غير ، عينك ولسانك وقلبك وهواك ، فانظر عينك ، لا تنظر بها الى مالا يحل لك ، وانظر لسانك ، لا تقل به شيئا يعلم الله خلافه من قلبك ، وانظر قلبك ، لا يكن فيه غل ولا حقد لأحد من المسلمين ، وانظر هواك ، فقاومه رضاء لربك ، فاذا لم تكن فيك هذه الأربع الخصال فقد شقيت .

وبان لنا مما تقدم أن ذكر الله تعالى يرفع العبد المؤمن من أرض الشهوات الى سماء المعرفة ، وهذا ما أشار اليه سيدى الشيخ اتلميذه فى قوله : ففى الأسماء العلو الى السماء ، أما قوله ، رضى الله عنه ، بعد ذلك : قلبك مع ربك ، وربك معك ، فليس بعيدا عنك ، يقربك اليه ويعرفك به ، فانما يذكره بمعنى ما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه .

وبعد العبد من ربه ، وقربه منه ، ليس بعد مسافة ، أو قربها ، وانما يكون البعد بغفلة القلب عن الله ، والقرب بحضور القلب مع الله ، فالبعد هو الحجاب ، والقرب هو كشف الحجاب ، والحجاب ظلمة ، والكشف نور، والظلمة جهل ، والنور معرفة ، وعلى قدر معرفة المؤمن بربه يكون اتصاله به ، وليس ذلك الاتصال اتصال ذات فى ذات ، تعالى الله عن ذلك علوا

كبيرا ، وانما اتصال ايمان به سبحانه ، ويقين فيه ، ومحبة له ، واعتماد عليه ، وركون اليه ، وحضور معه ، وطلب لرضاه ، وايثاره على ما سواه ، سبحانه لا اله الا هو الحى القيوم ».

ويقول السادة الصوفية : علامات الوصول الى الله ثلاث : الفهم عن الله تعالى ، والاستماع من الله ، والأخذ عن الله ، وعلامات صحة محبة العبد ربه ثلاث : عدم الاختيار ، واستحلاء كل واقع من الأقدار ، ورؤية كمال المحبوب فى كل شىء ، فيرضى عنه بكل شىء ، ويسلم له فى كل شىء ، ويشترط السادة الصوفية أن يحفظ العبد آداب الشريعة ، دقيقها وجليلها ، اذا علمها ، ويسأل عن كل حالة لا يعلمها ، والا كان خائنا فى شرع الله ، ومن كان خائنا فى الآداب الشرعية ، أحرى أن يخون فى الأسرار الالهية ، والله تعالى لا يهب أسراره الا للامناء .

وقد جرت العادة عند السادة الصوفية ، على اختلاف طرقهم ، أن تبدأ تربية المريد فيلقن لا اله الا الله ثلاث مرات ثم يشهد فى الثالثة أن سيدنا محمدا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كما جرت العادة أن يبدأ المريد فى ذكر الأسماء الحسنى بلا اله الا الله لما فيه من الخصائص والأسرار ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى شأن تلك الكلمة العظيمة ، التى سماها الله كلمة التقوى ما خلاصته :

« هذه الكلمة لما كانت أفضل الذكر فزع اليها الولى والعدو عند المحنة ، ففرعون لما قرب من الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، أى لا اله يقدر على أن يجعل النار راحة كما فى حق الخليل ، والماء عذبا كما فى حقه ، الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، ويونس عليه السلام قال تعالى فى شأنه « فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت » أى فانك أنت الذى تقدر على حفظ الانسان حيا فى بطن الحوت ولاقدرة لغيرك على ذلك ، فقبل الله نداء يونس ، ولم يقبل نداء فرعون ، لأن يونس عليه السلام سبقت له المعرفة وقال تعالى « فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون » وفى هذا تنبيه على أن من حفظ الله فى الخلوات ، حفظه فى الفلوات ، ويونس عليه السلام قال هذه الكلمة مع

الحضور والشهود والانكسار ، فقال لا اله الا أنت وفرعون قالها فى الغيبة فقال لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، وفرعون سبق له الكفر ، وما ذكرها عبودية ، بل لطلب الخلاص من الغرق لقوله تعالى « حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا له الا الذى آمنت به بنو اسرائيل » وهو كلام نفيس فليتدبره المريدون السالكون فى شتى الطرق الصوفية •

ويقول سيدى أبو سعيد الخراز ، رضى الله عنه ، اذا أراد الله أن يوالى عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره ، فاذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه الى مجالس الانس ، ثم جعله على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية ، وكشف له حجاب الجلال والعظمة ، واذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو،فحينئذ يصير العبد زمنا فانيا ، فوقع فى حفظه ، وبرىء من دعاوى نفسه •

أقول والناظر فى الكتاب والسنة يرى انهما حضا على الذكر ، بل والذكر الكثير باللسان وبالقلب ، وذكر اللسان موصل حتما الى ذكر القلب ، والمعول على ذكر القلب ، ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، الذرة من أعمال القلوب ، تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح

وليحذر المريدون من دسائس الشيطان فقد يصده عن ذكر الله ، بوسوسة خبيثة فيلقى فى صدره ، انك تذكر بلسانك وليس فى قلبك حضور ، فما فائدة هذا الذكر ، ان هذا الذكر وجوده كعدمه ، لا فائدة منه ، ولا ثمرة له ، فأرح نفسك منه ، وليعلم المريدون أن الغفلة عن الذكر، شر من الغفلة فيه ، واذا أراد المريد أن يكسب الحضور ، فليجالس شيخه أو اخوانه المجدين ، الذين يؤنس بهم فى طريق الله ، فان الأرواح يسقى بعضها بعضا ، كما سمعت ذلك من سيدى الشيخ ، ووجدت صحته بالتجربة العملية التى دلتنى على أن الغفلة تكون مع أهل الغفلة ، والحضور يكون مع أهل الحضور •

وللذكر عند السادة الصوفية آداب كثيرة من أهمها أن يكون الذاكر متوضئا ومستقبلا القبلة وملاحظا أن الله تعالى يراه ، فيستحضر عظمته

وجلاله سبحانه ، ويستغفره ويتوب اليه من عصيانه والتقصير فى طاعته ، ويستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستحضر شيخه المربى له ، لأن شيخه بابه الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بابه الى الله وقد قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وقد جعل الله لكل شيء سببا ، وذلك الاستحضار مما يعين المريد على ترك الشواغل الدنيوية وقت الذكر ، ويتكلف ذلك بالمجاهدات ، ثم يصير التفرغ للذكر البحت عادة يسعده الله بها من عونه وعطائه « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » وأكل الحلال ورد المظالم لأهلها والكف عن الغيبة ، واجتناب الحسد ، والفقه الضرورى لتصحيح العبادات والمعاملات من الأسس المؤكدة فى صلاح السلوك عند السادة الصوفية .

ويقول السادة الصوفية ان الشيخ الداعى الى الله ، أو المرشد النائب عنه يجب أن يتوافر له ذوق صريح ، وعلم صحيح ، وهمة عالية ، وبصيرة نافذة ، كما يتوافر له التواضع ، وحسن الخلق ، والشفقة على خلق الله ، والانكسار مع الله ، ومجانبة الدعوى ، وعدم المبالاة باقبال الناس ، أو ادبارهم عنه ، وتحمل الأذى فى سبيل الله ، وعدم الشكوى من ضيق العيش ، أو وقوع البلاء ، وقالوا انه ليس من لوازمه الكرامات ولا الاخبار بالغيب ، كما قالوا انه ليس من لوازمه أن يكون معصوما من الذنوب ، لأن العصمة واجبة فى حق الأنبياء والمرسلين ، وليست واجبة فى حق الأولياء ، لأن الأولياء يحفظون من الوقوع فى الذنوب بحفظ الله الذى يرعاهم ويتولاهم ، فان وقعوا فى الذنب ، أسرعوا بالاستغفار والتوبة ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

والداعى الى الله ميسر لما خلقه الله له من ارشاد تابعيه فى السلوك ، لذلك تهش القلوب لكلامه ، وتنفذ نصائحه فيها ، نفاذ الضوء فى الغرفة المظلمة ويكون التوفيق حليفه فيما يوجه اليه ويشير به ، وكان امامنا مالك بن أنس رضى الله عنه يقول : ليس العلم بكثرة الرواية وانما هو نور يقذفه الله فى القلوب ، كما كان يقول الأدب أدب الله ، هذه ابنتى وهذا

ابنى ، لأن ابنته المباركة فاطمة « وكان يقال لها أم البنين » كانت تستمع من وراء الباب لرواة الحديث من تلاميذ أبيها فاذا سمعت خطأ طرقت الباب تنبيها على الخطأ ، فكان الامام يطلب الى الراوى التصحيح ويقول له : ان فاطمة تدق الباب ، وكانت رضى الله عنها تحفظ الموطأ وترويه رواية صحيحة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

والداعى الى الله له قدم صدق عند الله ، لأنه تعالى هو الذى اختاره وجعله اماما للمتقين « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » ويسر له سبيل الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وآتاه شرف النيابة عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجبت طاعته على تابعيه ، لأنه انما يدعوهم الى الله باذنه « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » وقد ضرب لنا سيدنا موسى عليه السلام أروع مثل فى هذا السبيل ، فمع أنه من المرسلين أولى العزم ، وصاحب التوراة ، التى جمع الله له فيها موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فقد سعى سعيا حثيثا للالتقاء بالخضر عليه السلام حين أعلمه الله أنه أوتى رحمة وعلما من عند الله ، وقال له فى تواضع جميل « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » فكان الجواب « انك لن تستطيع معى صبرا » مع بيان عذره فى عدم الصبر « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » فقال سيدنا موسى عليه السلام « ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » فشارطه سيدنا الخضر عليه السلام قائلا « فان اتبعتنى فلاتسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » وبقية القصة معروفة كما وردت فى سورة الكهف .

وقد علمنا سيدنا موسى عليه السلام آدابا عالية فى قصته هذه ، أولها أن الالتقاء بالصالحين من عباد الله غنيمة ، لا يجوز أن يزهد فيها مؤمن يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وأن الاسترشاد بهم واجب ، وأن طاعتهم واجبة كذلك ، وأنه يجب ترك جدالهم فيما لا علم لنا بأسراره ، وكشفت القصة فوق ذلك كله الى وجوب الصبر على صحبتهم الى نهاية الشوط ، تحصيلا لما عندهم من الدقائق ، والرقائق والحقائق ، كما لايجوز

أن يتدلل تلميذ بعلمه على شيخه أو أستاذه ، فللأبرار أسرار لا يعلمها الا الله تعالى ، والمفروض أن يحسن المريد اختيار شيخه ، والمفروض الا يأمره الشيخ بمعصية الله اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ولهذا يجب على المريد أن يدقق فى اختيـــار شيخه أو مرشـــده ، ويقيسه بمقياس الشرع الشريف ، ويسأل الله فى سره وجهره أن يوفقه فى حسن اختياره ، لأنه سيتلقى عنه أعز ما يتلقاه تلميذ عن أستاذه ، ولا أعز من معرفة الله جل وعلا ، ولا يصل العبد الى معرفة ربه الا بعد تطهيــر قلبه من أمراضه الخفية ، وعلاج ما يخفى أشق وأصعب من علاج مايظهر، ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنــه ، فى ضرورة اتخاذ الشيخ المرشد فى الهامه الفورى الذى نلقناه عنه :

وعنــدى أن الامــر ليس كمــا ترى
فلا بد من ســوق القلوب لمن يدرى
اذا لم يكن للنفس شــيخ له هــدى
يؤدبها بالروح زاغت عن الســير
ولا يعبــر البحــر الخضــم ونوأه
سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحــر
ولولا اتصــال الــكهرباء بأصلها
على موجة التيــار ما نورهــا يسرى

ويقول سيدى الشيخ عبد السلام فى ختام عبارته ، ومن عرف الله عرفه الحكمة ، والحكمة هى العلم النافع ، والعلم النافع نور يقذفه الله فى القلوب ، فلابد من اعداد القلوب وتطهيرها بالطاعات حتى تصير أهــلا لتلقى الواردات « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب » ثم يحذرنا سيدى الشيخ من ســلوك طريق غير طريق الله ، لأن ذلك يجر الى الشكوك والعياذ بالله ، وليس وراء الشكوك الا انحلال عرا الايمان ، نجانا الله من ذلك ، وأماتنا على مايحب ويرضى لنا من الاعتقاد واليقين .

ويسترعى سيدى الشيخ انتباهنا الى قوله تعالى « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ويقول السادة الصوفية ناصحين لنا : من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله ، فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته .

وأخيرا يقول سيدى ذو النون المصرى « المتوفى ٢٤٥ هـ » « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه » جعلنا الله ممن يقتدون به صلوات الله وسلامه عليه وآله فى كل ذلك فقد قال تعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » كما قال تعالى « وان تطيعوه تهتدوا » .

فهرس الكتـــاب

رقم الإيداع
١٩٩٢/٣٩٠١
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

شركة الإعلانات الشرقية / مطابع دار الجمهورية للصحافة